سَمَر يزبك
ذاكِرة النُّقْصان
روايات أهْل غَزّة عَن الإبادَة
مكتبة
دار الآداب

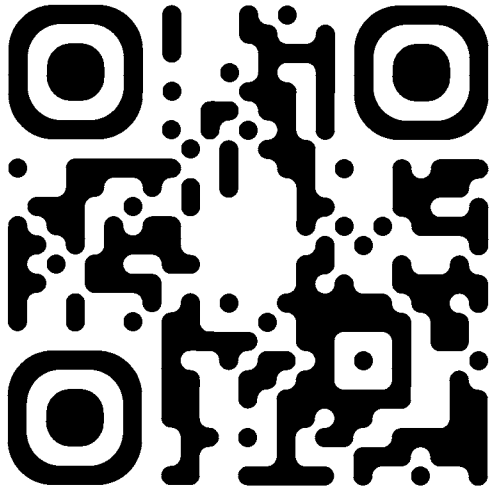

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

ذاكرة النقصان

روايات أهل غزَّة عن الإبادة

ذاكرة النقصان / روايات أهل غزّة عن الإبادة
سمر يزبك / روائيّة سوريّة
الطبعة الأولى عام 2025
ISBN 978-9953-89-782-0

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

سمر يزبك

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذاكرة النقصان

روايات أهل غزَّة عن الإبادة

دار الآداب

مقدِّمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنَّه القيظ؛ أقف، أقاوم تشوُّش الرؤية الذي حوَّل المباني الحجريَّة إلى أذرعٍ بيضاء تهتزُّ في الهواء. أتحرَّك وسط الشارع العريض، مُحاولةً الاحتماء من شمسٍ الظهيرة الحارقة. ثوانٍ معدودة، وأفتح عينيَّ على اتِّساعهما؛ أُحدِّق نحو نهاية الشارع، حيث خيالاتٌ سوداء تأتي من بعيد، خيالاتٌ تتحرَّك على نحوٍ غريب، أشكالٌ غير واضحة المعالم تتلاشى في السراب، كأنَّها تطير. شعرت بأنَّ عليَّ التركيز أكثر، محاولةً إدراك ما يحدث في نهاية هذا الشارع الغريب.

حينها، لم أكن أعرف الكثير عن المكان. خريطة الموقع كانت غامضة، وإحساسي بما يدور حولي مضطرب، وجدت نفسي عن سابق تصميم وقصد في مجمع الثمامة، هناك حيث تجمَّع الناجون من الإبادة في غزَّة؛ أناسٌ مبتورو الأطراف وأصحاب حالاتٍ صحِّيَّة معقَّدة وخطيرة، يتجاوز عددهم مع

مُرافقيهم من أفراد عائلاتهم ألفين وخمسمئة، هذا المشهد الغريب يحدث في مدينةٍ هادئة تُدعى الدوحة. كانت مشاهد دمار المدن السوريَّة في تلك اللحظات تتماثل أمامي، خيالات الضحايا وأنينهم ذاتها، إنَّها الكارثة مرَّةً أخرى!

لم يكن هناك كائنٌ حيٌّ حولي تلك اللحظة؛ الظهيرة القاسية والشمس اللزجة تحرق جبيني، هواجسُ غريبةٌ أخذت تُصارعني تحت قيظ الصحراء. أشحت ببصري محاولةً التخلُّص من أفكار بدأت تحتلنُّي؛ عُدت أدراجي لأُميِّز تلك الظلال السوداء؛ كانت كراسيَّ متحرِّكةً سوداءَ يتقدَّمها أشخاصٌ يدفعونها. التفتُّ للخلف لأرى امرأةً بملابس سوداء تدفع كُرسيًّا عليه شابَّةٌ في مقتبل العمر. في تلك اللحظة، تراءى لي أنَّ العالم كلَّه بات كذلك: بشرٌ مبتورو الأطراف، فاقدو الأعضاء، أنصاف أجسادٍ بشريَّةٍ تعيش على هامش الحياة كأنَّهم من بقايا عصرٍ مُندثر. شعرت وكأنَّنا على متن سفينةٍ مُعلَّقةٍ في السماء، عالقين في قدرٍ من العجز والضياع، وسط أوهامٍ وأشباح لا أستطيع تمييزها. الشمس حادَّة، وكان عليَّ التوجُّه إلى المكاتب الإداريَّة للقاء المسؤولين عن المكان، حبلٌ من الأفكار يحوِّل كلَّ ما أراه إلى مشاهد روائيَّةٍ متخيَّلة، في محاولةٍ للحفاظ على توازني في هذا الواقع. ولأهشَّ عن رأسي اختلاط مشاهد الخراب بين سوريا وفلسطين!

حزنٌ غريبٌ يكاد يبتلع المشهد وكأنَّ المكان ليس حقيقيًّا لفرط مأساويَّته، من يحتمل هذا الألم!

لم تكن صدفةً إذن أن أرى تلك المشاهد التي تنقلها الكراسي المتحرِّكةٍ للفلسطينيِّين التي بدت أسرابًا من الطيور

السوداء، تحمل المعاناة المدوِّية لواقع الشعب الفلسطينيّ، شعبٌ اقتُلع من جذوره، وعُلِّق في فضاءٍ لا حدَّ له. تلك الخيالات تجسَّدت كرمزٍ مُتكرِّرٍ لانكسار الإنسانيَّة؛ وكأنَّ الفلسطينيِّين أصبحوا سوريِّين والسوريِّين فلسطينيِّين، على مسافةٍ مشتركة من الوحشيَّة التي شهدتها وكتبت عنها ودفنتُها في قلبي.

لقد وجدت نفسي أمام تلك الكراسي وأمام من نجا من عذابات الإبادة، مدفوعةً بمحاولةٍ لفهم الألم الذي يسكن الآخرين، متَّصلةً بوجودي ككاتبةٍ تتعامل مع الكلمات والسرد كوسيلتَيْن للتعاطف ومحاولة التغيير والأهمِّ من هذا محاولة فهم العالم الخطِر من حولنا والتفكير بمستقبلٍ إنسانيٍّ أفضل. كنت ولا أزال ألهث وراء هذه الأفكار، وما زال حضورها في أعماقي يدفعني للتقدُّم نحوهم. إنَّهم يعنون لي الكثير، بشكلٍ أو بآخر كانت سوريا حاضرةً أمامي في تلك اللحظة، وأنا ما زلت متمسِّكةً بضرورة عدم ترك الضحايا وحيدين، التحرُّك والفعل والانفعال، من شروط وجودنا، ومن صفاتنا البشريَّة بالضرورة!

فكرةٌ جاءتني كصاعقة، ودفعتني نحوهم: ماذا حصل لأهل غزَّة الناجين من الإبادة؟ هل يحقُّ لنا أن نعتبرهم «ناجين»؟ أين يذهب الألم البشريُّ حين تغيب العدالة؟ كيف فقدوا أجزاء من أجسادهم وتحوَّلوا إلى أشكالٍ جديدة من الوجود؟ كيف يمكن لنا أن نتعامل مع مصائبهم؟ كيف يمكن لحياة أفرادٍ عاديِّين، يعيشون لسنواتٍ في سجنٍ مفتوح، أن تختفي إلى الأبد منذ ذلك السابع من أكتوبر الشهير؟ هناك شيءٌ ما في سرعة هذا الاختفاء، دمارٌ وهمجيَّة مضاعفة من المستحيل فهمها حلَّت على هؤلاء البشر.

لماذا نُطيل الحديث عن قضاياهم بشعاراتٍ سياسيَّةٍ وأيديولوجيَّةٍ بعيدًا عن آلامهم الشخصيَّة كأفراد؟

كان السؤالُ عسيرًا، لكنَّني استجمعت قوَّتي في ظهيرة ذلك اليوم الصحراويِّ وتقدَّمت نحوهم. ألقيت التحيَّة، ليأتيني الردُّ بابتساماتٍ واهنةٍ ونظراتٍ خجولة. أدركت حينها أنَّني سأبقى هناك، أنَّني سأعيش معهم، أتلمَّس تفاصيل حياتهم وأعايش أحزانهم عن قرب. تلك الأحزان التي جعلتني أتعرَّف عليهم كأبطال وناسٍ كرماء يقاومون من أجل استمرار الحياة.

لماذا عُدت إلى الكتابة عن الحرب! ومن جديدٍ عادت الذاكرة الآن لتكون أكثر إلحاحًا من أيِّ وقت مضى؟

بين الشكِّ واليقين في سرد الحقيقة، علينا أن نقترب من ظلِّ اللغة وأشباحها، وأن نستمع إلى أصوات الضحايا. الآن تحديدًا، تحتاج اللغة أن تنحني أمام هذا الحبل المشدود على أرواحنا، والذي يفوق قدرة عقولنا على استيعاب اللعنات التي حلَّت ببلادنا. ماذا نفعل بهذه القصص المخيفة؟ هل يمكن لصمت اللغة أن يمنحنا مخرجًا في هذه الظروف الإنسانيَّة البائسة؟ إنَّ تحويل اللغة إلى صمتٍ بين الوقائع الدمويَّة ربَّما يكشف عن عجزها أحيانًا في مقاربة الفظائع البشريَّة. نعم، البشر قادرون على التوحُّش بطرقٍ تتحدَّى قدرة اللغة ذاتها على التعبير.

منذ سنوات، أحاول وأفكِّر بشكلٍ جديدٍ في إعادة كتابة قصص الناس والأماكن التي جئنا منها وتعميقها. إنَّها محاولةٌ لإعادة البناء بطريقةٍ لا تقتصر على الأدب ولا التوثيق، بل تكشف

عن سردٍ مختلف، يتحرَّى الألم والفاجعة في عالمنا. الآن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، الفاجعة تكتب عالمنا بطريقتها، تكتبها صُوَريًّا ورقميًّا، وتمحوها من الوجدان الجمعيِّ للبشر، لتجعلها منتجًا استهلاكيًّا لحظيًّا، ولتتلاشى تلك المعاني الأصيلة في زخم اللحظة الآنيَّة.

لقد وجدنا أنفسنا تائهين أمام التحوُّلات التي فرضتها حروب الإبادة على المعاني وعلى اللغة، بعد تدمير البشر. نحن أبناء الحرب والمأساة، نتحدَّث عن الأهوال وعن قدرة الشرِّ البشريِّ على تدمير العالم. بالمقابل، نمتلك القدرة على رؤية لحظة التدمير، ومواجهتها والعمل على تجاوزها، حتى لو من داخل الفاجعة نفسها. هناك من لم يعد يرى أيَّ معنًى للحياة بالطبع. وهناك من يتركَّز معنى حياتهم الآن على بقاء من تركوهم؛ من ينقصونهم! إنَّ العنف لا يوصف، ولا يصدَّق، لدرجة أنَّنا عاجزون عن وصفه. لكنَّ هؤلاء الناجين موجودون هناك؛ إنَّهم أحياء، رغم كلِّ شيء، بكلِّ معنى الكلمة، بأسئلتهم، ورغبتهم في فهم ما حدث لهم، بعجزهم عن الفهم، إنَّهم بشرٌ مرُّوا بالجحيم ثم عادوا.

كيف سأبحث في فعل نقصان البشر ونقصان الحجر؟ إنَّ مرويَّة الإبادة تعتمد بشكلٍ أساسيٍّ على فعل النُقصان، وهذا النقصان هو في ذاته شكلٌ من أشكال ثباتها وقوَّتها واكتمالها، بمعنى إبرازها، بمعنى القدرة على التواصل معها؛ النقصان الذي يظهر في كلِّ زاويةٍ منها: نُقصان الأجساد المقطَّعة، نُقصان قدرتنا على الرؤية، نُقصان المشهديَّة العميقة لآلام الآخرين، نُقصان

اللغة. فالنقصان هنا متكامل، ولا يمكن التفكير بهذا النقصان إلَّا كمادَّةٍ أوَّليَّة لإعادة بناء ما تناثر من هذه الأجساد وتركيبه.

كلُّ شيءٍ ونقيضه يلوح واضحًا في كتابة الفاجعة التي تلتهم الجنس البشريّ، والتي كنَّا شهودًا عليها مصادفة، ضمن قصَّة الشرِّ في التاريخ. إنَّها سردٌ للحظاتٍ مفصليَّة من ذواكر الناجين من هدم العالم، لقد فعلت ذلك في كُتبي السابقة (تقاطع نيران، بوَّابات أرض العدم، تسع عشرة امرأة) وهنا لا أتحدَّث عن شغلي الروائيِّ بل عن مشروعي السرديِّ المغاير لبناء العالم المهدوم.

في هذه اللحظة الصعبة والراهنة في حرب غزَّة، فكَّرت بشهاداتٍ عن لحظة السابع من أكتوبر، تساؤلٌ عن ذلك الزمن الذي يسيل نحو الخراب، ابتداءً من تلك اللحظة التي انقلب فيها العالم وتغيَّر وجهه، سؤالٌ يتكرَّر بصدد الناجين والناجيات من فعلٍ قصديٍّ ومنهجيٍّ في الإبادة. يتجلَّى هذا السؤال بثباتٍ في تكراره، ولكن يتبدَّى أيضًا نفْيُه، بمعنى إعادة خلقه والتأمُّل فيه لدحضه. وإذا استطعت تخصيص هذا أكثر، فإنَّ الكتابة عن هذه الفواجع لم تعد تتطلَّب كتابةً تخيُّليَّةً إبداعيَّةً بقدر ما تبحث في الكتابة السرديَّة المباشرة، التي تحاول لملمة أشلاء الحقيقة المتناثرة هنا وهناك، وفي تعظيمٍ من الشخصيِّ والذاتيِّ في حكايات الناجين، بتحويل قصص النقصان إلى سرديَّة.

إنَّ الحياة عبارةٌ عن مجموعةٍ من التجارب، وينطبق الشيء نفسه، إن لم يكن أكثر، على تجربة العنف. عندما لا يتمُّ جمع تجارب العنف غير العاديَّة هذه معًا في قصَّةٍ متماسكةٍ، فإنَّها تهرب منَّا. وكما أشلاء الأجساد المتناثرة في غزَّة، التي تشهد

على إبادة الجسد؛ فإنَّ غياب رواية العنف كما يُعاش على المستوى الشخصيّ، يستكمل فعل إبادة الإنسان. وكما هو الحال مع الفلسطينيِّين الذين يسعون يائسين للعثور على أشلاء أجساد أحبَّائهم، لإعادة تشكيلها، هناك حاجةٌ مُلحَّةٌ لجمع التجارب في عددٍ كبير من القصص التي ستنجو من هذه المذابح، وستُظهر للأجيال القادمة حقيقة ما حدث من عنف. يسمح لنا السرد، إن لم يكن بفهم ما يحدث، ولكن على الأقلِّ بالاعتراف بآلام الضحايا، والاعتراف بالرعب البشريِّ بكلِّ أشكاله.

هذه السرديَّة تسعى إلى إعادة إكمال النقصان، بمعنى إعادة كتابة أحد أوجه الحقيقة، وهو ما أراه شخصيًّا غايةً مُلحَّة؛ فإنِّي أتطلَّع بشغفٍ للبحث عن الحقيقة والانشغال بمحاولة التعرُّف على وجوهها. وأحاول فهم هذا العالم العنيف الذي نعيش فيه، لذلك أجدني مهتمَّةً بهذا الشكل المختلف من السرد، رُغم أنَّ سؤال الحقيقة لا يزال مُنشغلًا بإعادة تركيب ذلك النقصان المُتفشِّي في حيوات أولئك الضحايا.

بالمعنى المباشر لكتابة الفاجعة التي تواجه سؤال النقصان، نفترض أنَّ السياق الذي حصل في سوريا وغزَّة هو جزءٌ من النظر في حياة بشرٍ ضمن اكتمال فجيعتهم، وهي ـ الحياة ـ في طريقها إلى المحو. وهذا سؤالٌ لا يتعلَّق فقط بالتاريخ أو بالتوثيق لمعرفة تداول أدوار الضحيَّة والجلَّاد واستجلاب العدالة، إنَّه سؤالٌ صعب آخر، لكنَّه جزءٌ ممَّا أحاول التفكير فيه.

كيف يُمكن التفكير في إحياء آلام الآخرين في محاولةٍ لمنع تكرارها؟ أو كيف يمكن التفكير بمستقبل الفاجعة حين لا تكتمل

حياة البشر الناقصة، فعلًا وقولًا، إلَّا بالتفكير في العدالة لهم وإعادة رسم آثارهم؟ نفعل ذلك ربَّما عبر إعادة إحياء ذاكراتهم، ما يجعلهم عصيِّين على التكدُّس في لعبة عدِّ الأرقام، وفي محاولةٍ لانتشال إنسانيَّتهم من عمليَّة التشييء التي تصنعها ماكينات الإعلام الاستهلاكيِّ السريع. نحاول ذلك عبر تحويل رواية كلِّ ذاتٍ منهم إلى بناءٍ شامخ، كحياةٍ إنسانيَّةٍ تستحقُّ أن تكون بلدًا كاملًا؛ فالذاكرة الجمعيَّة هي ـ باختصار ـ حكايتهم وحكايتها وحكايتي وحكايتك أنت. ذاتٌ واحدة، هي العالم بأسره!

تكرار طرح السؤال ذاته على مجموعةٍ من البشر يعيشون في محيطٍ مُغلق ويحظون بالرعاية الصحِّيَّة والغذائيَّة والتعليميَّة في مدينةٍ مثل الدوحة لم يكن سهلًا. في لحظةٍ ما، تراءى لي أنَّ هذا المكان الذي يجمعهم هو وجه العالم الحقيقيّ، وأنَّنا ـ الأحياء الذين نمشي على قدمَيْن ـ نحن الاستثناء. ومع مرور الأيَّام، أصبح الأمر أصعب، ففي كلِّ يوم وأنا أذهب إلى مجمع الثمامة قرب مطار حمد الدوليّ، كنت أقول لنفسي إنَّ الغد سيكون أسهل، لكن مع كلِّ يوم كان الوضع يزداد صعوبة. هؤلاء الناجون الذين أردت أن تكون حكايتهم وسيلةً لإعادة بناء العالم الذي تهدَّم، فقدوا كلَّ شيء؛ عائلاتهم، بيوتهم، أراضيهم، وأعضاءً من أجسادهم. كنت أتساءل: ألا يجب أن يرووا المعنى الذي خبروه في الحرب؟ وعلى عكس توقُّعاتي، كانوا هم من يرغب برواية حكايتهم، وكانوا مصمِّمين أن يسمع العالم قصَّتهم رُغم يأسهم من كلِّ ما يُحيط بهم. كانوا كُرماء بشوشين، مُشبعين بأفكارهم ومعتقداتهم عن معنى الحياة، وما زالوا يعتقدون بإمكانيَّة

فهم شيءٍ من هذا الواقع، وغالبهم يرغب بالعودة إلى غزَّة بعد انتهاء علاجهم. جميعهم دون استثناءٍ كانوا مدنيِّين عزَّلًا، أشخاصًا عاديِّين. أغلبهم من الجيل الجديد الذي لا يعرف شيئًا خارج حدود غزَّة.

في البداية، فكَّرت أن يكون كتاب الشهادات هذا خاصًّا بالنساء فقط، لكن مع مرور الوقت ومع رؤيتي لأعداد الأطفال والمراهقين، قرَّرت مقابلة أكبر عددٍ مُمكنٍ من الأشخاص واختيار عددٍ قليل من الشهادات. كانت أغلب الشهادات مليئةً بالصمت؛ ذلك الصمت الواضح، القاتل، والذي لا يمكن التعبير عنه سوى بصمتٍ آخر مقابل. في لحظةٍ ما، فكَّرت أنَّ كتابًا عن ذاكرة الفقد والنُقصان تعني باختصار كتابًا بصفحاتٍ بيضاء، لأنَّ صمت أغلبهم كان أبلغ من كلامهم. حاولوا أن يُعبِّروا وكانوا كُرماء في مشاركة مشاعرهم، وكنتُ ضيفتهم الدائمة.

نميل عادةً إلى تقديس آلام الضحايا، لكنَّهم لم يُشعروني بطريقةٍ أو بأخرى أنَّهم بحاجةٍ إلى العطف، إنَّ أهل غزَّة لا يحتاجون إلى شفقتنا، بل إلى اعترافنا بشجاعتهم وكرامتهم وحقوقهم، ورغبتهم المُلحَّة في كشف حقيقة مأساتهم.

كانت لديهم الكثير من الأسئلة، وتبدَّلت لديهم المعاني وظهرت مخاوف ما بعد الكارثة، وبالتأكيد هناك آلام ما بعد الصدمة. بعضهم كان يمرِّر الأيَّام بالحديث عمَّن فقدوه وعمَّا كانوه وعن جمال مدينتهم، غزَّة، تلك المدينة التي يدركون في أعماقهم أنَّها لم تعد موجودةً في مكانها. تراوحت أعمار الغزيِّين الذين قابلتهم بين 13 و65 سنة، رجالًا ونساءً وأطفالًا، ومن

خلفيَّاتٍ اجتماعيَّةٍ متعدِّدة. أغلبُهم متعلِّمون، والنساء بينهنَّ أغلبهنَّ تزوَّجن صغيرات، لكنَّهنَّ متعلِّمات، أمَّهاتٌ وجدَّاتٌ وعمَّات يرافقن أفراد عائلاتهنّ.

لم أخض معهم في أسئلةٍ سياسيَّة مباشرة، بل كان التركيز على حياتهم، وكيف نجوا من الإبادة، أو ما استطاعوا أن يروووه من وقائع فجائعهم، ولكنَّها كانت كافيةً بحاجتي للتوثيق وترميم الذاكرة المستقبليَّة، أغلبهم شهدوا مجازر كبرى مثل مجزرة المستشفى الإندونيسيِّ أو مجزرة مستشفى الشفاء. الطبيب الذي قابلته كان أحد أفراد الطاقم الطبِّيِّ في مستشفى الشفاء وشهد بعينَيْه ما فعله الجيش الإسرائيليُّ بالمرضى والمرافقين، هناك أيضًا مرضى آخرون عايشوا الفترة نفسها. تكرار الشهادات وتعدُّد الأسئلة شكَّل لي صورةً أوسع عن الوحشيَّة العصيَّة عن التخيُّل لفعل الإبادة وعن الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان التي ارتكبها الجيش الإسرائيليُّ بحقِّ النساء والأطفال وكبار السنّ، وقد تعمَّدت تكرار بعض المشاهد، فقد وجدتها تؤكِّد المنهجيَّة المتَّبعة في فعل الإبادة، رُغم أنِّي حذفت الكثير من التفاصيل المرعبة.

لم يتطرَّق هؤلاء البشر لتقييم سلوك حركة حماس أو المقاومة أو حتى إلى مصير القضيَّة الفلسطينيَّة. كانوا يتحدَّثون عن أنفسهم كأُناسٍ مدنيِّين ومسالمين، عن أجسادهم التي تمزَّقت. كانوا يبوحون بصدقٍ وعفويَّة، ويرغبون بأن يسمع العالم حكايتهم. أجمعوا برواياتهم على أنَّ ما فعله الإسرائيليُّون لم يكن متعلِّقًا قطّ بهجوم حماس؛ كانوا يردِّدون العبارة التي سمعتها كثيرًا في

الأشهر الماضية: «لقد كنَّا نعيش الحرب منذ عقود، والآن نحن نعيش فعل إبادة».

الأطفال والشباب كانوا أكثر صمتًا، وتبدو شهاداتهم قصيرةً مقارنةً بغيرهم، كانوا الأكثر رغبةً في الحديث والأشدَّ إصرارًا على رواية قصصهم، لكنَّ الصمت خذلهم. جُملهم مقتضبة، تمرُّ بصعوبة، وكأنَّهم يعجزون عن إيجاد الكلمات المناسبة. هناك طفلٌ مراهق اسمه عبد الله في الثالثة عشرة ترك في نفسي تأثيرًا لم أعهده منذ أن بدأت توثيق الفظائع سنة 2011. كان مختلفًا. كان يتحدَّث بلا توقُّف، ويطرح أسئلةً كثيرة. هذا الطفل الذي احترقت عائلته أمامه، وهو يركب حافلة الأونروا، قال لي إنَّه ليس طفلًا، وهو مصرٌّ على أنَّ غزَّة لا يوجد فيها أطفال، فشرط الطفولة، كما يقول، أن يعيش الأطفال بين كتبهم ومدارسهم وعائلاتهم، وكلُّ هذا كان دائمًا بعيد المنال في غزَّة. كان يتصرَّف كرجل، يتحدَّث ويتحرَّك وكأنَّني أمام شخصٍ تجاوز الثلاثين من عمره، إلَّا أنَّ وجهه المحروق ولمعة عينَيْه كانا يذكِّراني بأنَّه ما زال طفلًا. لا يضحك ويتحرَّك ببطء، ويعرض عليَّ صورًا له قبل إصابته مصرًّا على أن أرى صورة عائلته، تمامًا كما فعل العديد منهم؛ فقد أرادوا جميعًا أن أرى صورة عائلاتهم قبل أن تختفي عن الوجود. أغلبهم فقدوا أفرادًا من عائلاتهم، ويتحدَّثون عنهم ويخاطبونهم كما لو كانوا لا يزالون بينهم.

الأمرُ المفزع لي والذي كان تفصيلًا جديدًا! لم أعهده في توثيق الثورة والحرب في سوريا، ولم أسمع عنه في حروبٍ ثانية مهما كانت وحشيَّتها، هي طريقة القتل وأدوات القتل المتطوِّرة،

فرُغم أنَّ البراميل التي كانت تسقط على الغزَّاويِّين كانت قد استُخدمت في القصف في سوريا، ورُغم أنَّ الأحزمة الناريَّة وهي شلَّالاتٌ من الصواريخ تسقط بلا توقُّفٍ على منطقةٍ بعَيْنها وتُبيد مربَّعاتٍ سكَّانيَّةً كاملة، لم تُستخدم في أماكن أخرى، لكن يمكن تخيُّلها! أمَّا ما لا يُمكن تخيُّله هو إطلاق العنان لخوارزميَّات القتل، استخدام الذكاء الاصطناعيِّ لتحقيق فعل القتل. ذلك الرعبُ البشريُّ الأزليُّ من ترك الآلة تفعل فعلها بالبشر، تحقَّق في غزَّة. لقد أوصلت الحكومة الإسرائيليَّة البشريَّة برمَّتها إلى عتبة الرعب هذه؛ إنَّهم يقتلون باستخدام برامج الذكاء الاصطناعيِّ بحسب هيومان رايتس ووتش؛ لم يعد القتل بحاجةٍ إلى قراراتٍ إنسانيَّة، لم تعد هناك لحظةُ تردُّدٍ بشريٍّ قبل الضغط على الزناد. خوارزميَّات الذكاء الاصطناعيّ، المبنيَّة على ملايين من بيانات القتل والدمار، تعرف جيِّدًا متى وأين وكيف تقتل الغزِّيين. الإنسان، بكلِّ مشاعره المتضاربة ومخاوفه، أصبح ثغرةً يجب إغلاقها، مجرَّد متفرِّجٍ على مسرح جريمةٍ يُديرها ظلُّه الرقميّ.

أخطر ما في الأمر أنَّ هذا المستوى من الوحشيَّة لا يسعى فقط للقتل، بل لتطويع البشر. الذكاء الاصطناعيُّ لا يُحارب الأجساد فقط، بل العقول. للتحكُّم في المشاعر، لبثِّ الخوف والذعر في النفوس. القتل لم يعد الهدف الوحيد، بل الاستعباد الكامل.

الحرب لم تعد «حربًا» كما نعرفها؛ إنَّها ممارسةٌ تحكمها برمجيَّاتٌ ما بعد إنسانيَّة، حيث تنفصل الغايات عن الوسائل والقدرة الجسديَّة على القتال. تُقرِّر الخوارزميَّات من يجب أن

يعيش ومن يجب أن يموت، لا مكان هنا للمفهوم الإنسانيّ للعدو. لقد أصبح الفلسطينيُّون مجرَّد «بياناتٍ غير مرغوبٍ فيها».

الحروب التي تُدار بواسطة الذكاء الاصطناعيّ ليست سوى محاكاة؛ لكنَّها محاكاةٌ قاتلة. وفقًا لمنطق المحاكاة لدى جان بودريار، يصبح القتل هنا «قتلًا من الدرجة الثانية»، حيث يتمُّ فصل الفعل عن واقعه الحسِّيّ. الطائرات المسيَّرة تقصف مدنًا وبشرًا ونساءً وأطفالًا بأوامر من خوارزميَّات، بينما الجنود البشريُّون يجلسون في غرف تحكُّم معزولة، يشربون الشاي، يضحكون وهم يشاهدون دمارًا حقيقيًّا عبر شاشاتٍ بلا دماء أو صرخات ضحايا قد تصل إليهم، تتحوَّل الحياة إلى مجرَّد «كود»، والموت إلى حالةٍ إنسانيَّة تمَّت ترجمتها رقميًّا.

الطائرات المسيَّرة التي يحتار الغزِّيُّون في تسميتها، تظهر في رواياتهم باسم الزنانة وهو التعريب الفلسطينيُّ لمفردة «درون»، لكن في هذه الحرب كان هناك اسمٌ جديد، رعبٌ جديد، قاتلٌ آليٌّ طائرٌ كما أسماه الجميع؛ المسيِّرة من نوع كوادكابتر. تقاطعت روايات الشهود على الرعب من هذه الكائنات الخرافيَّة القاتلة، تدخل البيت، غرف النوم، تقف على رؤوس الأطفال، تصدر التعليمات، تُطلق النار على الرأس، تأخذ بصمة العَيْن، تُطلق النار في العَيْن، ترافق أرتال النازحين والهاربين من القصف والمُجبرين على الرحيل عن بيوتهم، وتبقى فوق رؤوسهم لإجبارهم على الهروب. مشاهد لا يمكن تصديقها إلَّا بوصفها جزءًا من الخيال العلميِّ الذي كنَّا نُشاهده في الأفلام السينمائيَّة وقد تحوَّل إلى حقيقة. كانت هناك امرأةٌ خلال حصار المستشفى

الإندونيسيّ، لم تكن تستطيع النظر إلى النافذة لأنَّ تلك الطائرات القاتلة كانت تحوم حول نوافذ المشفى المحاصر وكانت أيُّ حركةٍ من وراء النوافذ كفيلةً بإطلاق رصاصةٍ كردٍّ فعلٍ آليٍّ من تلك الطائرات القاتلة. دِقَّةُ فعل القتل وإتقانه عند هذه الآلات المتطوِّرة كان أمرًا أدمى قلوب الغزيِّين، وجعل حياتهم تحت القصف والحصار جحيمًا مُضاعفًا.

في الحديث عن الحياة الشخصيَّة للنساء وعمَّا حلَّ بهنَّ من انتهاكات، كان هناك تحفُّظٌ كامل، لم ترغب أيٌّ من النساء الخوض في معاناتهنَّ الشخصيَّة، كنساءٍ في مجتمع غزَّة المحافظ، كان هناك شعورٌ بالخجل الشديد ممَّا ألمَّ بهنَّ، وأظنُّ أنَّ الرقيب المجتمعيَّ لعب دورًا كبيرًا إضافةً إلى الخوف من وصمة العار التي تشعر بها النساء في الحديث عن أجسادهنَّ وعن خصوصيَّتهنَّ، إحداهنَّ روت كيف أُصيبت بنزفٍ مهبليٍّ نتيجة تعرُّضها لقصفٍ بصواريخ مسمومة. كنَّ يروين لي ما حصل مع أخرياتٍ من اغتصابٍ وتحرُّش ولم أُدرج تلك الحوادث في قلب الشهادات لأنِّي لم أسمعها من صاحباتها، وعندما كان الأمر يصل إلى السؤال عن تجربتهنَّ الخاصَّة كنَّ ينفين تعرُّضهنَّ بشكلٍ شخصيٍّ لأيِّ إساءة.

الشاهدة الوحيدة والتي أسمت نفسها (س) روت لي معاناتها الفظيعة كامرأةٍ تعيش في مجتمعٍ يتعامل مع النساء كبشرٍ من درجةٍ ثانية، طلبت أن أُلقِّبها بحرفِ السين وأن أمحو ما يُشير إلى هُويَّتها، رغم أنَّ ما روته لم يكن عن فعل انتهاكٍ جنسيّ، بل كان عن لحظةٍ عميقةٍ من الحزن والمكاشفة، عادت بها إلى حياتها

السابقة، لحظة عنفٍ مركَّبة وهي تحت الأنقاض وعلى وشك الموت، حيث تتمظهر أكثر أشكال العنف وحشيَّة، بين القتل المباشر والإبادة وبين القتل المعنويِّ الآخر للنساء، وتروي (س) كيف تتغيَّر وتُقرِّر أن تثور على مجتمعها. إسراء أيضًا تحكي جانبًا مختلفًا عن الحرب، فقد تغيَّرت حياتها وصارت تعتني بالآخرين، تتطوَّع كممرِّضة، ليس صحيحًا أنَّ النساء كنَّ ضحايا فقط، لقد عملن يدًا بيدٍ إلى جانب الرجال في إنقاذ المُصابين وفي الطبابة والتمريض، كما حصل مع هدى. إنَّها قصصٌ عن الروح الإنسانيَّة المتعاطفة وعن سُموِّ النفس البشريَّة وسط الحرب، وكأنَّنا أمام مشاهد ملحميَّةٍ من قصصٍ أسطوريَّة، رُغم بشاعة الحرب، لقد رأيت الجمال الإنسانيَّ في حياة تلك النساء. نور الصحافيَّة روت عن معاناةٍ من نوعٍ آخر، عن الافتقاد للفوط الصحِّيَّة وصعوبة مرور الدورة الشهريَّة على النساء، وعلى افتقادهنَّ لأدنى مُقوِّمات النظافة، وعلى فقدان فوط الأطفال الصحِّيَّة.

كان اختيار الشهادات التي يتضمَّنها الكتاب صعبًا للغاية، فالشهادات لا تتَّبع نمطًا واحدًا أو عددًا ثابتًا من الكلمات، خاصَّةً في وصف أوضاع المستشفيات، والنزوح، والحواجز، والطريقة المدروسة في القصف. كما أنَّ اللغة المستخدمة كانت غالبًا تنتمي لأصحاب الشهادات وتختلف في أسلوبها وطريقة التعبير، لذا آثرت أن أترك كلَّ شهادةٍ كما هي، دون محاولة توحيد السرد، خصوصًا وأنَّ النساء كنَّ يرغبن في الحديث بشكلٍ أكبر وبتفاصيل مُؤلمة. لقد اتَّبعت أسلوب كلِّ شخصٍ كما هو، وتركت تعابيرهم ومستوى لُغتهم على حاله. لم تكن الشهادات تعتمد على منهجيَّةٍ

واحدة؛ منها الطويل ومنها القصير. القصير منها كان صامتًا، والصمت بحدِّ ذاته لغة، لذا أبقيتها على صمتها. أمَّا الشهادات الطويلة فكان أصحابها يرغبون في الحديث، وبعضها اضطررت لاختصاره. أجد أنَّ هذا التنوُّع يُمثِّل محاولةً لإحاطة طرق التعبير والتفكير، ومحاولة التعبير عن الفجيعة والألم، والتأمُّل باللغة ورواية الكارثة أيضًا.

توجد شهادةٌ واحدة لعائلة بأكملها، وقد رويتها من وجهة نظر الأمِّ والأب، وهذه الشهادة فريدة في هذا السياق. أبقيت على طريقتهم في مخاطبتي، حذفت بعض العبارات التي كانت موجَّهةً لي شخصيًّا، لكنِّي تركت بعضها، إذ شعرت للحظةٍ بأنَّني أمثِّل العالم بأسره الذي يرغبون بمخاطبته. كما تركت كلماتٍ باللهجة الغزِّيَّة المحلِّيَّة مثل كلمة «سيدي» للإشارة إلى الجد و«دار» كبديلٍ لاسم العائلة. حاولت ألَّا أُكثر من الشهادات التي تُكرِّر الانفعالات نفسها والتجارب نفسها، لتتشكَّل صورةٌ أوسع للآلام التي عاشها هؤلاء الأشخاص الذين يمنحون الحياة قيمةً كبيرة، ويتشبَّثون بها حتى الرمق الأخير.

من بين كلِّ الشهادات التي سجَّلتها وتابعت حيوات أصحابها، أدخلت شهادتَيْن فقط لشابَّيْن يعيشان في غزَّة، ولا يزالان هناك داخل القطاع. كانت هناك عشرات الشهادات التي دوَّنتها عبر الإنترنت ولكنِّي آثرت عدم استخدامها رُغم قوَّتها وأهمِّيَّتها، لأنَّ وجودي المباشر مع الناجين والناجيات وعلاقتي الشخصيَّة معهم ومعايشة حيواتهم اليوميَّة عن قربٍ، كانت أمرًا مهمًّا بالنسبة إليَّ في مشروعيَّة هذا الكتاب. مع إيماني بضرورة

الكتابة عن المحاصرين الذين ما زالوا حتى هذه اللحظة يتعرَّضون للقصف والقتل والتهجير والتجويع، ربَّما أترك هذا الأمر للمستقبل!

نهايةً، فأنا أضع هذه الشهادات وغيرها من الشهادات التي دوَّنتها في كتبي، والتي سأدوِّنها في المستقبل في ذمَّة التاريخ، لتبقى شاهدًا على تطلُّع البشريَّة للخلاص من الظلم وعلى حُلم بيوم عادلٍ لهؤلاء الأشخاص الذين عاشوا تحت مطحنة هذا الزمن العنِيف وهو ما ينبغي علينا فعله ككُتَّاب وناشطين ومثقَّفين وهو أضعف الإيمان لمواجهة فعل الهدم: أن نُعمِّر العالم بالكلمات، لعلَّ وعسى يومًا ما أن تتحقَّق العدالة المنشودة.

نسمة الفرَّا وسامر الآغا، «أمُّ يحيى وأبوه»

نسمة

41 سنة

موظَّفةٌ إداريَّة في جامعة الأقصى

خان يونس، غزَّة

في ذلك السبتِ من شهر أكتوبر، كنتُ أجهِّزُ الفطورَ لأولادي عندما سمعنا صوتَ القصف. يحيى، ابني يبلغُ من العمر 11 سنة، كان يتهيَّأ للذهاب إلى المدرسة، لكن بعد سماعِ صوتِ القصفِ بقي في البيت، لم نتركهُ يذهب. فهمنا من أصواتِ الصواريخ ومن الأخبارِ الواردةِ من الشارعِ أنَّ المقاومة هاجمت إسرائيل بطريقةٍ لم تحصلْ من قبل. كنت خائفةً جدًّا وأدركت أنَّ هذه المرَّة لن تكونَ كما الحروبِ السابقة.

كنَّا نتوقَّعُ القصف، في الحقيقة كنَّا ننتظره. وهذا ما منعني من النوم حتى الفجرِ في الليالي التالية، كنتُ أخافُ أن يقصفونا ونحنُ نيام. أنظر الى السقف بالليل، ولا أعلم متى سيسقط علينا. سألني زوجي صباحَ العاشرِ من أكتوبر عمَّا نحتاجه من طعام. طلبَ يحيى الذهاب مع أبيه، لكنَّه ـ زوجي ـ لم يقبل. كنَّا نخافُ على أبنائنا الخروجَ للشارعِ لأنَّنا نتوقَّع القصف.

لديَّ خمسةُ أولاد: يحيى وسارة وسما ولمى ولين. يحيى هو الصبيُّ الوحيد. لينُ الصغيرة، ابنة الثماني سنوات، قالت: ماما أنا جوعانة، وطلبتْ منِّي سندَّويشة، نهضتُ معها إلى المطبخ، لحقني يحيى وطلبَ منِّي هاتفي، ثم اتَّجهَ إلى الصالون. في تلك الثواني، تغيَّرتْ حياتنا إلى الأبد.

في البداية، لم يستطع عقلي تفسيرَ ما يحدث، فجأةً وجدتُ نفسيَ غارقةً بالغبارِ الأسود والدخَّان، لم أسمع القصفَ حتى، أصرخُ وأصيحُ بأسماءِ أولادي، أسمعُ صوتي وكأنَّني لست أنا التي تصرخ، كأنَّ أحدًا غيري يبحثُ عن أبنائِهِ أمامي. لمْ أكنْ أرى شيئًا بسبب الدخان، يا لين... أصرخُ باسم لين، وجدتُها قربي، حملتُها وحاولتُ الخروج، لكنَّ النار هبَّت في وجهي. رجعتُ للمطبخ، كان الصاروخ هناك لا يزالُ يحترق، نارٌ رهيبةٌ، انطفأت النار؛ ركضتُ وركضتُ وكان الرَّدمُ يُحيطُ بي. البيتُ تهدَّم بالكاملِ ولا أستطيعُ الرؤية. أردتُ أن أُخرجَ لين من الردم وأبحثَ عن إخوتها، وجدتُ الدرجَ قد تهدَّم، ولا أستطيعُ النزولَ والخروجَ بابنتي. كنَّا نسكنُ في الطابقِ الثاني، الدمارُ يحيطُ بنا. حارتُنا كلُّها سُوِّيت بالأرض. أنادي على أبنائي، وأنا مُعلَّقةٌ

بالطابقِ الثاني مع ابنتي، وأرى أشلاءَ الناسِ متناثرةً حولي.

جاءَ شابٌّ وأخذَ لين منِّي ونزلَ بها، كانَ قد تجمَّعَ بضعةُ شبابٍ حولَ الرُّكام. رفضتُ النزول دونَ أولادي الآخرين؛ سارة ولمى وسما ويحيى، عثرتُ على سارة، وجهها محروقٌ بالكاملِ ويداها أيضًا، تمشي أمامي بحروقها، تمشي وتتقدَّم، صرخت. أصرخُ ولا أعرفُ إن كانَ صوتي يخرجُ من حلقي: يا سارة! يا سارة! تعالي، أين أختك؟ أين سما؟ تعالي! كانَ جسدُها محروقًا، لكنَّها تمشي. تمشي وتتألَّم، تمشي وترفضُ المساعدة. تنظرُ حولها مشدوهةً وتتقدَّم. نزلَت سحلًا على الدرج، كانت أمامَ عينيَّ تتألَّم بصمت، نزلَت سحلًا فوق الركامِ وهي ترفضُ المساعدة. أصرخُ وأصرخ يا سما، يا يحيى! سمعت صوت لما، كانت تحتَ الردم، تحتَ الجدران. ركعت، حاولتُ أن أرفعَ الجدارَ بيدي، لم أستطعْ. أخمشهُ بأصابعي لعلَّه يتفتَّت.

ظهرَ زوجي، وهو يصرخ مثلي بأسماء الأولاد، كان يحملُ سما بين يديه، لم أستوعب. ابنتاي التوأمتان ابنتا 15 سنةً أمامي، واحدةٌ تمشي محروقةً بصمت، والثانية جثَّةٌ هامدةٌ بين يدي أبيها. نزل زوجي بسما وطلبوا منِّي أن أنزل، رفضت، الشباب الذين أتوا للمساعدة يحفرون الردم، وينتشلون أطفال الطابق الأوَّل من تحت الأنقاض. عاد زوجي مع أبيه وبدأا يحفران الردم، وجدا يحيى، أخرجا لمى، يحيى مات بنزيفٍ داخليٍّ بعد بضع ساعاتٍ في مستشفى ناصر بخان يونس. وبُترت ساق لمى في اليومِ التالي.

أخذوا ابنتي لمى إلى العنايةِ المشدَّدة، كانَ رأسُها مفتوحًا

إلى منتصفِ الجبين، احتاجتْ ثلاثينَ غرزةً منْ أعلى العَيْنِ إلى منتصفِ الجبين، وهناكَ جرحٌ كبيرٌ في يدها. وبحاجةٍ لدمٍ كثير، حاولَ الطبيبُ إنقاذَ رجلها المصابة، بقيتْ في العمليَّةِ لساعات. أثناءَ ذلكَ كانوا يدفنونَ سما، دفنوها الساعةَ السادسة صباحًا، ثم دفنوا يحيى، جعلوني أرى الفيديو، لمْ أستطعْ التحرُّكَ من المستشفى، دُفن ابني يحيى بعدَ ابنتي سما. دُفن اثنانِ من أولادي، ولم أكن حاضرة، تسعة شهداءٍ من أهل زوجي، لم يستطيعوا انتشال جثثهم كاملة، تحوَّلوا إلى أشلاءٍ مقطَّعة، دفنوهم في أكياسٍ بلاستيكيَّة. أخي الطبيب قال: إنْ لم نبتر رجلَ لمى فسوف تموت، هل تريدينَ أن تموتَ ابنتك؟ في اليوم التالي بُترت رجل لمى، كانت ستتسمَّمُ لو لم يفعلوا ذلك. سألتهم أينَ رجلُ ابنتي؟ قالوا: دفنَّاها. دفنوها في أيِّ مكان! دفنوها معَ بقيَّةِ الأعضاءِ المبتورةِ الأخرى، جاءَ زوجُ أختي وانتشلَ رجلها من ذلك المكان، ودفنها بجانبِ قبرِ يحيى وسما، لتبقى مع إخوتها على الأقلّ. سارة ابنتي المحروقة صامتةٌ تمامًا، ترفض الحديث. ولا تريدُ أن تسمع عن أختها التوأمَ المدفونة قرب أخيها. بدا الأمرُ وكأنَّنا دخلنا الجحيم، كنت حينها في مستشفى ناصر مع زوجي، أنا كنت في قسمِ الحروقِ معَ سارة، وابنتي الأخرى لمى في العنايةِ المشدَّدة، وجهها مشقوقٌ ورجلها مبتورة. بقينا في المستشفى خمسةً وعشرينَ يومًا. سمحوا لنا بالبقاء لأنَّ بيتنا تهدَّم، كنَّا في المستشفى مع ابنتَيْنا الجريحتَيْن، كانَ القصفُ بجانبِ مستشفى ناصرَ مستمرًّا لليلتَيْنِ متواصلتَيْن. أحيانًا نضطرُّ إلى حملِ الجرحى وهم في الأسرَّةِ للخروجِ من المستشفى،

والصواريخُ تنهالُ حولنا من كلِّ صوب، والزجاجُ يتساقط. كانَ الممرُّ ممتلئًا بالنازحين. المستشفى يضمُّ النازحينَ والأطبَّاءَ والمرضى وعوائلهم، البشرُ ينحشرونَ في الممرِّ الضيِّق، وهناك عددٌ كبير من الأطفالِ المحروقينَ بالفوسفور، كانَ معنا طفلتان، ليال وعبلة زنُّون، كان وجهاهما محروقَيْن بالفوسفور، ما زلت أذكر كيف نزلت ابنتي على الدرجِ وسطَ الركام، كيفَ زحفت، كيف لم تستطع البكاء، كيفَ كانوا يغيِّرونَ جروحها وتصرخ، صراخها في أذني. كانت لا تقبلُ أنْ يغيِّروا جراحها إلَّا وأنا موجودة، أنا غير قادرةٍ على رؤيةِ جراحها، لم أحتمل، وهيَ لا تريدُ أن يكونَ معها سوى أمِّها، ابنتي مرميَّةً على الأرضِ تصرخ، لا تزالُ صورتها في رأسي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سامر (أبو يحيى)

موظَّف

54 سنة

ابني يحيى كان عمره 11 سنةً عندما راح منِّي، قتلهُ الإسرائيليُّون، كان لاعبَ كرة قدم في نادٍ رياضيّ، حصلَ على بطولةٍ رياضيَّةٍ قبل الحرب بيوم واحد، نحنُ في غزَّةَ محاصرون منذ عام 2000، منذُ الانتفاضةِ الثانية، عندما كنَّا نذهبُ إلى الجامعةَ كانت الحواجزُ موجودة، كانوا يغلقون الطرقات بلا سبب، لم نكن نستطيع الذهاب يوميًّا إلى الجامعة، هذا كان يحصلُ في غزَّةَ قبلَ حكمِ حماس، من أيَّامِ أبو عمَّار. نحنُ نعيشُ تحت الحصار منذُ رُبعِ قرن، وازدادَ الحصارُ في عهدِ حماس، تحوَّلت غزَّةُ إلى سجنٍ كبيرٍ منذ ذلك الوقت.

الحربُ الأولى على غزَّةَ زمنَ حماس كانت في عام 2008، بدأتْ أثناءَ ذهابِ الأطفال للمدارس في التاسعةِ صباحًا. استهدفَ الإسرائيليُّون في البداية مواقعَ عسكريَّة، لقد قتلُوا الكثيرَ من مقاتلي حماسَ وقتها، ثم شرعُوا بقتلِ المدنيِّين. في حربِ عام 2012، بدأَ الإسرائيليُّون يبعثون برسائلَ تطلبُ منَّا إخلاءَ البيوتِ تمهيدًا لقصفها، كانُوا يقصفونَها بعدَ دقائقَ أو بعد ساعاتٍ وأيَّام، وأحيانًا لا يقصفون، وأحيانًا أخرى كانُوا يهدمونَ البيوتَ فوق رؤوسِ سكَّانها دون أيِّ تحذير، حربٌ نفسيَّة. صار الناسُ لا يغادرون بيوتهم؛ فليقتلونا هنا! أين نذهب! جارُنا من دارِ الأسطل بقيَ في بيته ولم يغادر وكأنَّه يقولُ لهم اقتلونا وخلص.

وُلد يحيى عامَ 2013، كان الإسرائيليُّونَ قد اغتالُوا أحدَ قادة حماس ـ محمود الجعبري ـ في الشيخ رضوانَ ثم كانت حربًا. استمرَّت تلك الحربُ 51 يومًا، كانت في رمضان. قصفٌ مدفعيٌّ عنيفٌ استهدفنا، لقد عشْنا أعمارَنا نازحين، قلقينَ دائمًا على أهلِنا وعلى أولادِنا، نشتري الأغراضَ من السوقِ خائفين، نخافُ الصعود في السيَّارة، نخافُ النزولَ منها، نخافُ المشي، نخافُ الوقوف، كانت حياتُنا خوفًا مستمرًّا، نخرج قليلًا في زمنِ الهدَنِ القصير بين الحروب، هكذا كبرنا، هكذا تزوَّجنا، هكذا أنجبنا أطفالنا، وهكذا يموت أطفالنا، لم يبدأ الموتُ الآن، إنَّنا نموتُ منذُ زمنٍ طويل.

استمرَّت الحروبُ بعد ذلك لكنَّها لا تُقاسُ بما يحصلُ الآن، هذه إبادةٌ وليست حربًا.

أريدُ لابني أنْ يكبُر، أنْ يصيرَ طبيبًا أو مهندسًا، أن ينجب

أطفالًا بدوره. نحنُ نريدُ لأبنائنا أنْ يكبُروا، وهم يموتون أمام أعيننا، لقد تركَنا الجميعُ منذ أكثرَ من 70 سنة.

في الساعةِ السادسةِ وعشرينَ دقيقةً صباحَ يومِ السابعِ من أكتوبر، كان يَحيى ذاهبًا إلى امتحانِه، لكنَّهُ رجعَ البيتَ وكانَ قد نسي مَطَرةَ الماء، ولم تلبث أن انفجرَت الدنيا حولَنا، كانت الصواريخُ تخرجُ من غزَّة، خفنا وبقينا في البيت، لم نعرفْ ما يحصل، ثم عرفنا من الأخبارِ أنَّ حماسَ تهاجم، رأينا المقاومة في الشوارع، رأيناهُم يجلبون الأسرى. أدركتُ أنَّ عواقب كبيرةً بانتظارنا، لذلك بدأنا بتوضيبِ حقائبنا، اعتقدنا أنَّ حربًا بين طرفَيْن ستندلع، لم نظنَّ أبدًا أنَّ الأمرَ سيكون مجرَّدَ هجماتٍ ثم نتركُ للموت!

جهَّزنا الحقائبَ قربَ البابِ استعدادًا للنزوحِ إلى وسطِ البلد، أخذنا كلَّ أوراقِنا الثبوتيَّة، انقطعت الكهرباء، سألتُ زوجتِي: «ما الذي تريدينَ إعدادَه من طعام!» كنَّا نعيشُ وكأنَّنا نحيا للأبد، ونحنُ نعلمُ أنَّنا قد نموتُ في اللحظةِ ذاتِها. كانت ستعدُّ «الكوسا المحشيّ» للأولاد، ولكنَّهم لم يأكُلوا.

أرادَ يَحيى وأختهُ أن يذهبَا معي إلى السوق، لكنِّي خفتُ أن يقصفُونا ونحنُ في الطريق، وما إن ابتعدتُ قليلًا عن البيت حتى سمعتُ ذلك الصوت، التفْتُّ وكانت هناك سحابةٌ رماديَّةُ اللونِ تُغطِّي بناءنا، لقد غطَّت تلك السحابةُ معظمَ الشارع، كان الردمُ يتطايرُ حولي، كانَ برميلًا متفجِّرًا رماهُ الجيشُ الإسرائيليّ. في منطقتنا ليس هناك أيُّ تواجدٍ للمقاتلين، تسمَّرتُ في مكاني غيرَ قادرٍ على تحريكِ جسدي، أَنظرُ حولي، أحاولُ التحرُّك، لم

أفلح، ورأيتهم، أخي وعائلته وأولاده يُخرجون من تحتِ الأنقاض.

أخيرًا ركضتُ ودخلتُ البناء. كان الرّدمُ يُحيطُ بي. أحاولُ الزحفَ وأنظرُ حولي، لا شيءَ سوى الغبار والركام. أقعُ وأصطدمُ بالحيطان، ثم أتهاوى مع ركامِ الانفجار واستطعت أخيرًا أن أصلَ بيتنا، وجدتُ أمَّ يحيى أمامي تمسكُ بابنتي لين، كانت بلونٍ أبيض، يغطّيها غبار الأنقاض، أمَّا غبار الصاروخ فكان أسود، لقد بقيَ الدخانُ شهرَيْنِ تحتَ أظافر أمِّ يحيى بلونٍ أسود، رغمَ كلِّ محاولاتِ تنظيفه، أيضًا جروح ابنتي التي شقَّتِ القذيفةُ وجهها، بقيتْ بلونٍ أسود. غبارُ القصف والصاروخَ كان يأخذُ لونَ الجروح.

حين رأيتُ أمِّ يحيى، سألتُها: «أينَ الأولاد؟». كنتُ أنظرُ حولي وأرى أنَّ البيتَ اختفى والجدرانَ غير موجودةٍ ونحن على تلَّةِ ركامٍ فقط، لم أكن أرى أولادي، لم أرَ يحيى.

نظرتُ حولِي، ولم أعرف البيت، أنا أقفَ في فراغٍ قربَ بيتي ولا أجدُه، شيءٌ ما اختفى في داخلي، لم أجد نفسي. رأيتُ زوجتي ثم رأيتُ سارة، ابنتي المحروقة ظهرت أمامي، تمشي وتزحف بصمت، جاء أحدُهم وأخذَ سارة. تابعت البحث عن الأولادِ في كلِّ مكان، مثل المجنون، أبحث تحتَ الركام والردم، ولم أجدهم. رأيْتُ كيف أنَّ حجرًا سقط من الشبَّاك! رأيتُ تحتَ الردم، ومن فتحةٍ ما وسطَ الرّكام، رأيتُ ابنتي سما. كانت هناك على سريرها مستلقية، انتشلتُها، نظرتُ في وجهها، عرفتُ أنَّها فارقَت الحياة. صرتُ أصرخُ وأصرخ على من حولي

ليساعدوني، كنتُ ضعيفًا جدًّا ولا أقوى على الكلام. كنت أنظر إلى وجهها. حدَّقتُ طويلًا في إصابتها. كان رأسُها مفتوحًا، ووجهها غير واضح المعالم، كانت فتاةً جميلةً جدًّا، ناعمة، طلبتُ أن يغطُّوها، أنظرُ إليها وأصرخ: «يا الله... يا الله!» أصرخُ أيضًا أينَ بقيَّةُ أولادي. عرفتها من تقويم أسنانها، كنتُ أفرِّقُها عن أختها التوأم بهذا التقويم، لاحقًا عرفتُ أنَّ تقويمَ أسنانها كانَ العلامةَ الفارقة لتسجيل اسمها في المشرحة.

بعدَ أن أخذُوا سما، صرتُ أبحثُ عن لمى ويحيى، سمعتُ أصواتًا وأصواتًا، وأخيرًا رأيتُ لمى، كانت تحتَ الرّدم تصرخ، شعرتُ بالرضا أنَّها كانت على قيدِ الحياة، وكانتَ رجلُها مُدلَّاةً بطريقةٍ غريبة. رأسها مشقوق، أعطيتُها للشبابِ الذين كانوا بقربي، وتابعتُ البحثَ حتى سمعتُ أنين يحيى. وجدتُه وأخرجتهُ من تحتِ الركام، لم ينتبه الأطبَّاءُ إلى نزيفٍ في الكبد، وضعوه في العنايةِ المركَّزةِ مع لمى، في مستشفى ناصر في خان يونس. لم أعرفُ مصير أولادي في تلك اللحظة حينَ انتشلناهم، عرفتُ فقط أنَّ سما ماتَت.

دارُ عمِّي بناءٌ من ثلاثة طوابق صار كومًا وردمًا خلال دقائق. مات تسعةُ أشخاصٍ في البناء من أولاد عمومتي، كلُّهم. اختفت عائلةٌ بأكملها من الجدِّ إلى الأحفاد، في ثوانٍ عشتُ بين حياتَيْن، كنتُ في حياةٍ وفجأةً أصبحت في حياةٍ أخرى. نحن بشرٌ ونريد أن نعيشَ ولدينا أطفالٌ نريد لهم أن يعيشوا، كان لدى أهل غزَّة هوسٌ بتعليم أولادهم، نتعب ونشقى من أجل أن يتعلَّمَ أبناؤنا. سما ابنتي فتاةٌ مثلُ النسمة، رقيقةٌ وهادئةٌ ومجتهدةٌ ومختلفةٌ عن

بقيَّة بناتِ جيلها. عندما بدأت تكبُر كنتُ أرى مدى وعيِها وذكائِها، كانت من الطلبةِ المتفوِّقين، كانت تملكُ أجمل أصابعٍ في العالم.

العالمُ انهارَ من حولنا، تهدَّمَت الأبنية، واختفى البشر، وانعجنَ اللحمُ بالنارِ والحجرِ والحديد، ونحن احترقنا هنا، من الداخل.

سما كانَت في 16 من عمرها، ولمى في 15، حياتُنا تدورُ حولَهم! كلُّ حياتي لأولادي، هؤلاء أولادُنا وأردنا لهم الحياة، لقد متنا معهم.

بعد قصفِ البيتِ وذهابنا إلى المشفى، رأيتُ الجميعَ من حولي ينادونَ باسم لمى، اعتقدوا أنِّي لا أعرفُ بموت سما، وكنتُ أسألُ عن لمى، خشيتُ أنَّ لمى ماتت أيضًا، كانت هناكَ فوضى وخوف، وذهبتُ للمشرحة، جثثٌ وجثث، والناسُ من حولي، الناسُ تحاولُ التعرُّفَ على أبنائها، الجثثُ مشوَّهة، الكلُّ يبحثُ عمَّا بقيَ من أولاده، الناسُ تعزِّي بعضها البعض، الكلُّ لديهم أموات.

دفنَّا سما، كان يحيى ولمى لا يزالان في العنايةِ المشدَّدة، وابنتي الثالثة سارَة لديها حروقٌ عميقةٌ في وجهها. خرجنا من الجنازة، وتركتُ سما تحتَ التراب. في اليوم التالي مات ابني يحيى، لم أصدِّق! لم أتوقَّع أن يذهبَ هكذا! لم أجد جروحًا في جسمه، كان يبدو بخير! لقد اكتشفُوا النزيف متأخِّرًا، في منتصفِ الليلِ أخذُوا يحيى إلى المشرحة، كنتُ أفكِّر بأمِّه وكيف ستعرفُ

وكيف ستتلقَّى الخبر، عندما أخبرتها، صمتت، لم تصرخ حتى! قالت: الحمدُ لله وحسبي الله ونعم الوكيل، ثم بكَت بصمت. بكت كثيرًا بصمت، وخرجنا في جنازةٍ ثانية، كنتُ أبكي.

أخذ أقرباؤُنا ساقَ ابنتي ودفنوها في المقبرةِ حرصًا عليّ، كانوا يُحاولون أن يُجنِّبوني هذا الموقف، لكنَّ الساقَ دُفنت عشوائيًّا بين قبرَيْن لأُناسٍ لا نعرفهم، كانت بالنسبة إلى أقربائِي مجرَّدَ ساقٍ لفتاة. لكنَّها كانت جزءًا من ابنتي، من جسدِ ابنتي الحبيبة التي ما زالت على قيد الحياة، غريبٌ أنَّ هناك أجزاءً مدفونة من الإنسان وهو لا يزالُ على قيدِ الحياة. أتينا بساقِ ابنتي ودفنَّاها بجانبِ أخوَيْها، هكذا هي العائلة، يجب أن تبقى معًا.

خالد أبو سمرة، طبيبٌ مُقيم في مستشفى الشفاء

العمر 30 سنة

مستشفى الشفاء

يوم السبت؛ السابع من أكتوبر، كانَ من المفروضِ انتهاءُ مناوبتي الليليَّةَ في المستشفى الساعةَ السابعة فجرَ ذلك السبت الخريفيّ؛ ـ تحديدًا ـ قبلَ عشرينَ دقيقةً من ذلك، عند الساعة 6:40 تمامًا، عواءُ صواريخَ متوحِّشةٍ أخذَ يشاركُ أمواجَ البحر بتمزيق صمتِ غزَّةَ الصباحيّ. وقفنا مذهولين ولم نعرف بدايةً من أين أتت هذه الأصوات، ولماذا! مَنْ الذي بدأ القصف! لم تطُل حيرتنا حتى اكتشفنا أنَّ الصواريخَ تُطلقُ من جهتنا، من الأرضِ التي نقفُ فوقها من قطاع غزَّة. اعتقدنا بدايةً باغتيالِ شخصيَّاتٍ قياديَّةٍ مثل صالح العاروري أو زياد نخَّالة وأنَّ هذه الصواريخَ هي

ردُّ الفعلِ الذي اعتادتُهُ غزَّةَ في سنَّيها الفائتة. فعَّلنا آليَّةَ الطوارئِ في المستشفى بأعصابٍ باردةٍ كما لو كنَّا نمارسُ عملًا اعتياديًّا تدرَّبنا عليه لسنينَ طويلة، الدكتور جمال الحرازين والدكتور معتز حرارة وأنا، كنَّا نعرفُ أنَّ الانتقامَ سيكون كبيرًا جدًّا، لكنَّ عقلنا كان عاجزًا أو لعلَّنا كنَّا نرفض تصوُّرَ حجم الدم الذي سيسفكهُ الإسرائيليُّون هذه المرَّة. لم أغادرِ المستشفى منذ ذلكَ الحين.

بدأتِ الإصاباتُ تتوافد. السيَّارات؛ سواءٌ المخصَّصةُ للإسعافِ أم تلك الخاصَّةُ تأتي، تتركُ حمولتها البشريَّةَ ثم تمضي لإنقاذِ المزيد. لحظاتُ التأخير تحسبُ بالدم والشهداء، جرحى محمولين على الأكتاف يصلونَ أيضًا. يُدركُ الأطبَّاءُ في غزَّة أنَّهم منذورون طوال حياتهم المهنيَّة لمواجهةٍ ملموسةٍ مع لحظةِ المجزرة، لكنَّ الإصاباتِ المميتةَ هذه المرَّة كانت تأتي من كلِّ أنحاءِ القطاع، كان هناك على ما يبدو مجازرَ في أكثر من مكان؛ جرحى وشهداء في قصفٍ على سوقٍ شعبيٍّ شمالَ القطاع، جرحى وشهداءَ في قصفٍ على مدرسةٍ في وسط مدينة غزَّة، وما إن بلغنا عصر ذلك اليوم، حتى أصبحنا عاجزين عن إحصاءِ عددِ المجازر، أمَّا الشهداء، فكنَّا نُحصيهم بالعشرات، عشرة هنا، عشرون هناك، بضعة وعشرونَ بين هُنا وهُناك، لقد فُتحت على غزَّة أبواب الجحيم! ما رأيته يشبه أهوال يوم القيامة.

بدأت أصواتُ القصفِ الإسرائيليِّ تغطِّي كاملَ مساحة قطاعِ غزَّة، هل قلَّت مساحة! أرض غزَّة أقلُّ من أن تُحصى كمساحة. كنتُ في حيرةٍ من أمري؛ أهلي في تلِّ الزعتر في مخيَّم جباليا شمالًا، سمعتُ أنَّ القصفَ حولهم غزيرٌ فحاولتُ الاطمئنان

عليهم. خطيبتي أيضًا فكَّرت فيها. بقيت مشتَّتًا بينَ الجرحى والأشلاء الذين في يديَّ وبينَ أهلي وخطيبتي، القصفُ يحملُ الموتَ في كلِّ مكان، الجحيمُ في كلِّ مكان.

كانوا يقصفون بلا توقُّف، أدركنا بوضوحٍ منذُ البدايةِ أنَّهم يريدون إبادةً كاملةً لسكَّان القطاع. أيُّ مخلوقٍ حيٍّ موجودٍ على أرضِ غزَّةَ يُعتبرُ بنكَ أهدافٍ للقصفِ والتدمير. منذُ اليوم الأوَّل انتهكوا كلَّ الحدودِ وكلَّ قوانينِ حقوق الإنسان! ودَّعنا زميلنا المسعفَ طارق في الساعات الأولى، طارق عاشور من أحسنِ الناسِ ومن أشجعِ الناس ومن أطيبِ الناس. سقطَ في اليومِ الأوَّل من القصفِ وهو يسعف الجرحى، لقد قتلوه وهو يؤدِّي عمله.

لَا يَبعُد مستشفى المعْمدانيِّ عن مُجمَّع الشِّفَاء بِأكْثر مِن خَمسَة كِيلومتْرات، كُنْت هُنَاك عِنْدمَا وَصلَت أَشلَاء النازحين الذين كَانُوا فيه لَحظَة القصْف، كان الواصلون فِي مُعظمهِم جُثثًا مُتَفحِّمَة.

في ذلك اليوم طلب مُدير المستشفى الدكتور مُحمَّد أَبُو سَلمِية من جميع الطواقم الطبِّيَّة النزول لقسم الطوارئ فوْرًا، كان القسم مليئًا بالأشلاءِ البشريَّة والجثث المتفحِّمة والأهالي الذين يبحثون عن أقاربِهم، وكَأنَّنا كُنَّا فِي حُجرَةٍ من حُجرات الجحِيم، الأسرَّة مُمتلئَة، جُثثٌ على الأرض، جَرحَى ودماءٌ في الممرَّات بين الأقسام، أُمَّهاتٌ تبكي، أَحيَاءٌ يُمْسكون أَياديَ أَمواتٍ بِلا ملامِح ويرفضون أن يتركوها، صبيٌّ يَنفخ في جُثَّة امرأَةٍ مُقَطَّعةِ الأوصال ـ كانت أمَّهُ ـ مُحاولًا إِعادتها للحيَاة، رَجُلٌ آخر يَجمع أَشلَاء جُثَّةٍ

لطفل، خَيْطٌ رفيعٌ من دِمَاءٍ سَوْداء وحمْرَاء يتجمَّع ليشكِّل سَيلًا صغيرًا ما يَلبَث أَحدُهم أن يَقُوم بِمسحه عن البلاط.

أتوا بطفلةٍ في الخامسة عَشرة من عُمْرها مُصَابَةٍ بحروقٍ كَبِيرَة تَصرُخ بالقرب من جُثَّةٍ مُتَفحِّمَةٍ لطفلةٍ أُخرَى، كانَتا أُختيْنِ من عائِلة الكحْلوت، بدأتُ أُعالج الأولى مُحاوِلًا طمأنتهَا، كانَت تَصرُخ «أنا ما فيني شي، أنا ما فيني شي، وينها أُخْتِي؟ أختي اِسمها أَمانِي الكحْلوت»، كانَت تَبكِي وتصرخ اسم أُختِها باحِثةً عنها، البنْتُ الميِّتة بقربِها كانَت هي أختُها المتفحِّمة التي لم تَتعرَّف على ملامحها.

أخرجنا الفتاة من قِسم الطوارئ وَوضعنا أختَها مع الشهداء. انهرتُ في تلك اللحظة تمامًا وفكَّرتُ بالخروج. كُنت عاجزًا عن النطق وحاولت التماسك من جَديد بدافع الواجب فقط، واجبي نحو هؤلاء الضحايا. تَماسكت وأكملت. أصعَب الأوقات كانت عندما أقوم بتبديل ثيابي الجراحيَّة ليلًا، كنت أنهار وأنا أنظر إلى ثيابي التي تَقطُر منها الدماء، في هذه اللحظة كُنت أبكي وحدي في غرفتي، كنت أعيش الموتُ يوميًّا مع الأجساد الممزَّقة والمحروقة والأطفال الميِّتة وثيابي في آخر النهار تَقطُر بالدماء. ما هو الأكثر إيلامًا من كلِّ هذا! الأمَّهات؛ كُنَّ أكثَر ما آلمني، أمَّهاتٌ يَدرن حولي طوال الوقت ويسألن عن مصير أبنائهنّ، يَعتقِدن أنِّي قَادِرٌ على مَنح الحيَاة لأبْنائهنّ، كم مرَّةً سأجيب وبأيِّ طريقَةٍ بأنَّ أبناءهنَّ قد ماتُوا!؟

يحتوي مجمَّعُ الشفاء على ثلاثة مبانٍ أساسيَّة: مبنى الطوارئ، ومبنى التخصُّصات، ومبنى الولادة، إضافةً لمبانٍ فرعيَّةٍ

للإدارة والتخزين. يقوم المجمَّع وهو الأكبر في كلِّ قطاع غزَّة بتقديم الخدمات الطبِّيَّة لأكثرَ من مليون غزِّيّ، لذلك عندما بدأت إسرائيلُ هجومها البرِّيَّ في بدايةِ شهر نوفمبر ووزَّعوا منشوراتٍ تأمرُ الناسَ بالتوجُّهِ جنوب وادي غزَّة، عرفنا أنَّ لديهم نيَّةً لاقتحام المجمَّع، كانت خطَّةُ التهجير واضحةً وتحتاج لتنفيذها حرمانَ الأهالي بدايةً من خدمات الإسعاف وبقيَّة الخدمات الطبِّيَّة.

في البداية بدأوا يقصفون محيطَ المستشفى، كانت حربًا نفسيَّة لإرغام أكثر من سبعين ألف نازحٍ ومريضٍ على مغادرة المجمَّع، ومع اشتدادِ القصف على مدينة غزَّة، تحوَّلت معظمُ مباني المستشفى لخدمة الإسعاف، أنا متخصِّصٌ في أمراض القلب وبقيت أعمل في قسم الأمراض القلبيَّة إضافةً لعملي الإضافيِّ في قسم الإسعاف والطوارئ. آلةُ القتل الإسرائيليَّة تعمل على مدار الساعة، المجازرُ على مدار الساعة والجرحى يصلون المستشفى على مدار الساعة، كان مجمَّعُ الشفاء حاجزَ الدفاع الوحيد تقريبًا عمَّن يسعفه الحظُّ وينجو من المجازر اليوميَّة المتوالية بفعل القصف الإسرائيليِّ على شمال غزَّة بكامله. امتدَّ القصفُ من محيط المجمَّع ليشمل قسم الولادة ومبنى غسيل الكلى والأقسام الإداريَّة ومن ثم استهدفوا مبنى العناية المركَّزة، اتَّصلنا بكلِّ وسائل الإعلام التي وصلنا إليها، كنَّا نصرخ أمام العالم كلِّه أنَّ الجيش الإسرائيليَّ يقتحم مستشفى الشفاء بمرضاه ونازحيه السبعين ألفًا، لكن تُركنا وحدنا، لم يكن من أيِّ جدوى لاستغاثاتنا.

حاصرتنا الدبَّابات الإسرائيليَّة، منعوا الجرحى الجدد من

الوصول إلى المستشفى، المرضى والنازحونَ داخلَ المجمَّع ونحن معهم أصبحنا سجناءَ بلا كهرباء ولا ماء ولا غذاء، يحيطُ بنا القنَّاصون والدبَّابات والزنَّانات[1]. هناك العديد من الحالات الحرجة التي لا تقوى على الخروج، إخراجها بهذه الحالة يعني قتلها، لذلك لم يكن من خيارٍ غيرَ الصمود. جمعنا المياهَ والمعلَّبات الغذائيَّة في قسم الطوارئ وتجهَّزنا لحصارٍ لا نعرف كم سيطول، المهندسُ المسؤول عن إمداداتِ الكهرباء استطاعَ أن يبقيَ التيَّارَ الكهربائيَّ حصرًا على قسم الطوارئ لأهمِّيَّته بالنسبة إلى حياة البشر الذين يعيشون على آلاتِ التنفُّس الاصطناعيِّ أو حاضنات الخدَّج، لدينا الوقودُ المخزَّن قبل الحصار وجاءنا أيضًا بعض الوقودِ الإضافيِّ الذي تبرَّعت به بعضُ محطَّات الوقود الخاصَّة في غزَّة، لن يكفي كثيرًا هذا الاحتياطيُّ القليل، لكنَّ قَصر استخدامنا للطاقةِ الكهربائيَّة على تلك الآلات، سيعطي تلك الأجسادَ المنهكةَ وقتًا أطولًا للبقاء متشبِّثةً بأرواحها.

الموت رحمة، كنتُ أقولُ لنفسي في كلِّ مرَّةٍ نرفعُ أجهزة التنفُّس الاصصناعيِّ عن أحدٍ أسلمَ الروح، لقد قرأتُ كثيرًا عن أطبَّاء في حروبٍ سابقة في هذا العالم أعطوا مرضاهم حقنةَ الموتِ الرحيم، في كلِّ مرَّةٍ أنظرُ في عيونِ الأطبَّاء الذين كانوا في

(1) الزنّانة: سترِد هذه المفردة كثيرا في ما سيأتي من الشهادات، وهي التعريب الفلسطينيُّ لمفردة الدرون أي الطائرة المُسيّرة، ويعرف الغزِّيُّون نوعًا قاتلًا من هذه الطائرات يُسمّى كوادكابتر: بمعنى الطائرة ذات المراوح الأربع؛ هذه المسيَّرة تحديدًا شكَّلت الرعب لأهالي غزَّة لأنّها تقوم بمهامَّ إطلاق النار، والتصوير، وإعطاء الأوامر ولديها أيضًا ميزة التعرُّف على الوجوه. في الشهادات سيستخدم الشهود هذه المفردات كلّها للتعبير عن الطائرات المسيَّرة.

المستشفى أشعرُ كما لو أنَّنا أقسمنا جميعًا أن نتشبَّثَ بأرواحِ مرضانا حتى آخر نفس.

كلُّ شيءٍ داخلَ بناء المستشفى يعتمدُ علينا، في البداية كان الأمر يبدو غريبًا، الأطبَّاء والممرِّضون والمرافقون والفنِّيُّون، كنَّا نقوم بأعمال النظافة، نجهِّز الطعام، نعمل كمعالجين نفسيِّين ومن ثم نصبح إعلاميِّين؛ قطعوا الاتِّصالات عن كلِّ مناطق الشفاء لتنقطع أخبارنا عن العالم لثلاثة أيَّام، كان يجبُ أن نفعل شيئًا، أنا أعرفُ أنَّ هناك تغطيةً ضعيفة في منطقة الجسرِ الذي يربطُ بين مبنيين في المجمَّع، أذهبُ هناك كي اطمأنَّ على أهلي، لكنَّ المشكلة أنَّ المنطقةَ مكشوفةٌ والذي يذهب هناك يصبحُ هدفًا سهلًا للقنص، كنَّا نزحفُ تجنُّبًا لعدسات القنَّاصين وطائراتهم المسيَّرة، فعلنا هذا أكثر من خمسين مرَّة، يجب أن تصلَ المعلومات للعالم الخارجيّ، في الليل كانت القنَّاصاتُ تُرسلُ أشعَّة ليزر تمسح المنطقة بكاملها وكنَّا نزحف خلال كلِّ ذلك، أنا الآن لا أصدِّقُ كيف كنَّا نفعل ذلك، لقد كان الجميعُ جاهزًا للموت، فقط كي يبلغوا أخبارَ المرضى للعالم الخارجيّ. بدأ الماءُ والغذاء بالنفاد، أصبحت شفاهُنا بيضاء متشقِّقةً من العطش، حتى أصبح من العسير على أيِّ شخصٍ يرانا أوَّل مرَّةٍ أن يميِّز من هو المريض ومن هو الطبيب.

بدأ الأطفال يسقُطون تحت وطأة الجُوع، الهزالُ مَنح وُجوههمْ مَلامِح من سيصبِح قريبًا تحت مِنجَل الموت. إِحْدى زَوجات المسعفين التي عَلمَت من زوْجهَا باحتمال وُجُود بعض المعلَّبات في غُرفَةٍ تقع على بوَّابة المستشفى، قَرَّرَت وحدها

مُوَاجهَة الجيش الإسْرائيليّ، خَرجَت تلك المرأة لِتلحق بها ثَلَاث نساءٍ أُخريات نحو تلك الغُرفة المحاطة بالدبَّابات. كانت لَحظَةً عَصيَّةً على التصديق، أَربَع نِسَاءٍ وحدهنَّ في مُوَاجهَة كَتِيبَة جُنُودٍ مُدجَّجين بالقنَّاصة ومحاطين بالمدرَّعات، كُنَّا وَرَاء البوَّابة نُنَادي عَليهنَّ كي يرجعن ولكنَّهنَّ استمرَّين يتقدَّمن. خُطُوط الليزر الحمراء الصادرة عن فُوَّهات بَنادِق القنَّاصة الإسرائيليِّين بدأت تَجد طريقها نحو أجْسادهنَّ ورؤوسهنّ، بقينا نَصرُخ عَليهِنَّ كي يرجعن ولكنَّهنَّ لم يخفن ولم يَستجبن لندائنَا، كدت أفقد توازني، عرفت قبلًا أنَّها ثَانِيةٌ وَاحِدةٌ تَفصِل الرصاصة عن شُعَاع الليزر الأحمر الذي تُطلقه البندقيَّة. لا أعرف ما حصل بعد ذلك وكيف حصل، لكنَّني وَجدَت قَدميَّ تركضان بجسدي نحوهنّ، رميت بنفسي أمامَهنَّ وبدأت أَصرُخ بجملٍ قَصِيرَة أَعرِفها بالعبْريَّة: أنا طبيب، لا تُطلقوا النار، أنا طبيب. أَشعَّةٌ حمراءُ بَدأت تسيرُ ببطْءٍ على وَجهِي، لقد مَرَّت حَياتي خطْفًا أَمام عيني في تلك اللحظة، كنت جاهزًا للموت، بل لعلَّني كنت أبحَث عنه، كنت أَطلبه.

تعال أنت وحدك، جاء صوت جنديٍّ إسرائيليٍّ يتكلَّم العربيَّة من خلال مكبِّر الصوت! اخلع ثيابك وارفع يديك. نفَّذتُ الأوامر بانضباط أسير، بقيت عاريًا ويداي للأعلى وأنا أصرخ وأقسم بأنَّه لا يوجد في الداخل سوى المرضى. تابعت الصراخ: لقد فقدنا كلَّ مقوِّمات الحياة؛ الماء والطعام، سوف يموت الجميع من الجوع والعطش قريبًا. أنا أقسم أنَّه لا توجد سوى حالاتٍ حرجةٍ وإصاباتٍ خطيرة بين الأطفال والنساء والجرحى المدنيِّين. نظرت إلى نفسي، كنت لا أزال عاريًا. ثم عدت وكرَّرت الكلام نفسه

بلا توقُّف، أنا فقط أطلب الماء والطعام. توجَّهت بحديثي لرفاقه من الجنود: أغلبهم أطفال، تعالوا وشاهدوا بأعينكم، ادخلوا، إنَّهم مجرَّد أطفال يبكون من الجوع.

كانت أوَّل مرَّةٍ ألتقي الجيش الإسرائيليَّ وجهًا لوجه. أنا أعيش في غزَّة التي جعلوها سجنًا كبيرًا، يحاصروننا ويمنعوننا من الخروج والدخول منذ سنين طويلة، يقتلوننا بصواريخهم منذ سنين طويلةٍ وهذه هي المرَّة الأولى التي أواجههم بها. في الليل بعد ذلك قالوا لنا: تعالوا جئناكم بالماء! نحن صدَّقناهم. سمحوا لنا بالتحرُّك من مبنى لآخر فقط لنأتي بالماء الذي قالوا إنَّهم جلبوه! لكن كان هذا كذبًا، لم يأتوا لنا بالماء، سمحوا لنا بالتحرُّك إلى مبنى آخر، وفي هذا المبنى كنَّا خزَّنَّا ماءً قبل الحصار. لقد نزعوا اللواصق بالعربيَّة عن عبوات الماء، ووضعوا فوقها لواصق بالعبريَّة، كان مكتوبًا عليها: مقدَّمةٌ من جيش الدفاع الإسرائيليّ! فهمت أنَّهم التقطوا صورًا ووزَّعوها على الإعلام، ليدَّعوا أنَّهم أعطونا الماء. شعرت أنَّني سأنفجر، يقتلوننا ثم يكذبون.

لم يبقَ لدينا سوى بعض التمر لنطعمه للجرحى، نشرب ماء المعلَّبات المالح، أعطيت أخي المصاب بعض التمر، كانوا يستهدفون المسعفين الذين ينقذون الناس، أخي كان واحدًا منهم ولم يكن مسلَّحًا. في غياب الماء كانت الحمَّامات عبئًا إضافيًا علينا عند قضاء الحاجة، تكون الحياة واهيةً جدًّا عندما يعجز البشر عن القيام بحاجاتهم الأوَّليَّة! أصبحنا في حالةٍ يُرثى لها، بدأنا نضعف، وتراكمت الأوساخ! صارت أجسادنا سجونًا! صارت ثقيلة. ازداد الوضع سوءًا مع نفاد الوقود، بدأنا نفصل

الكهرباء عن بعض الأقسام المهمَّة لنوفِّرها لقسمي العناية المركَّزة وحاضنة الأطفال الخدَّج، وفي النهاية شارف الوقود على النفاد نهائيًّا ويجب علينا المفاضلة بين قسم العناية المركَّزة وحاضنة الأطفال. كان قرارًا صعبًا جدًّا، كانت هذه من أصعب اللحظات حين يتوجَّب عليك حرفيًّا أن تقطع شيئًا من جسدك كي تستطيع عبور ممرٍّ ضيِّق، حين يتوجَّب عليك أن تقرِّر من يجب أن يموت كي يعيش غيره. في النهاية اتُّخِذ القرار وتقرَّر توفير الكهرباء لحاضنة الأطفال على غيرها من المعدَّات المجهَّزة للعناية المركَّزة بالجرحى.

في منتصف شهر نوفمبر، رفض وزير الصحَّة الدكتور يوسف أبو ريش طلب الجيش الإسرائيليِّ بالخروج من المستشفى ولقاء الجيش الإسرائيليِّ ليذهب بدلًا عنه الأطبَّاء مروان أبو سعدة ومحمَّد أبو سلميَّة، وفي هذا اللقاء أمر الجيش الإسرائيليُّ بإخلاء المستشفى تمامًا؛ قالوا بالحرف: عليكم إخلاء المستشفى وإلَّا سنقصفه فوق رؤوسكم. كان المجمَّع مليئًا بالآلاف ما بين مرضى ومرافقين ونازحين وطواقم طبِّيَّة، طلبنا سيَّارات إسعافٍ كي تنقل الجرحى الذين لا يستطيعون الحركة، وطلبنا سيَّاراتٍ خاصَّةً لنقل الرضَّع في الحاضنات، رفض الجيش الإسرائيليُّ طلبَنا، الضابط الإسرائيليّ قال لي: لن نعطيكم سيَّارات إسعاف، احملوهم على أكتافكم واخرجوا من هنا. الخروج بهذه الطريقة سوف يؤدِّي إلى قتل الأطفال والجرحى. في اليوم التالي سمح جيش الاحتلال بنقل الأطفال الخدَّج في حاضنات، كانوا أربعة وثلاثين خديجًا مات منهم ثلاثةٌ ووصل الباقون إلى مصر، ومن ثم كرَّر الجيش

تهديداته بقصف المستشفى على رؤوسنا، كان الأمر مؤلمًا ولم نكن نريد المخاطرة بالأهالي والعائلات، خرج كلُّ من يستطيع المشي ليبقى في المستشفى ما يزيد عن مئتي مصابٍ لا يستطيعون المشي، أخي كان منهم وبقينا معهم. نزلنا إلى الطوابق السفليَّة خوفًا من القصف المتوقَّع، كنَّا نتوقَّع أن يفعل الإسرائيليُّون أيَّ شيء، لذلك أخذنا تهديدهم على محمل الجدّ، بقينا أسبوعًا نطالب بسيَّارات إسعافٍ لإخراج المرضى مبتوري الأطراف والمقعدين، واستمرَّ الضابط الإسرائيليُّ برفضه. كان الصراع بداخلي يمزِّقني بين أخي الذي أراه أمامي بحاجةٍ لمن يُخرجه من المستشفى وبين بقيَّة الجرحى الذين ليس لديهم من يتولَّى أمرهم. كنت أهمُّ بأخي لأحضِّره للخروج ثم أتراجع. طفلةٌ مصابة لا تستطيع الحركة صرخت قربي مذعورةً: لا تتركونا وحدنا. في تلك اللحظة انهرت تمامًا، حسمتُ خياري بالبقاء، طلبتُ من أخي الخروج مع جارنا على كرسيٍّ متحرِّكٍ لكنَّه رفض الخروج، قلت له أنا لن أستطيع الخروج، يجب أن أبقى، لن أترك الجرحى. وأنا لن أخرج بدونك، نعيش معًا أو نموت معًا، ردَّ أخي.

في يوم السابع عشر من نوفمبر، أعطانا جيش الاحتلال إنذاره الأخير بواجب الخروج في اليوم التالي من الساعة التاسعة صباحًا حتى الواحدة بعد الظهر وإلَّا سيقصفوننا دون هوادة، خرجنا لهم، خرج الطاقم الطبِّيُّ بكامله أمام الجيش الإسرائيليّ، كنَّا سبعة أطبَّاء؛ مدير المستشفى محمَّد أبو سلميَّة، مروان أبو سعدة، معتزّ حرارة، محمَّد عيد، جمال الحرازين، أحمد

الوحيدي وأنا، ومعنا ثلاث ممرِّضات، كان هذا كلُّ الطاقم الطبِّيِّ الباقي، قلنا لهم: لن نخرج ولن نترك جرحانا، ونريد سيَّارات إسعافٍ لنخرج معهم. عدا عن ذلك، افعلوا ما شئتم، اقتلونا، اقصفونا، سنموت معهم. هيَّا اقتلونا، سوف نبقى لآخر لحظة، لسنا أفضل من غيرنا، سوف نموت مع جرحانا. قلنا أشياء كثيرة. أذكر أنَّنا قلنا أيضًا، لقد قصفتم المشافي والمقابر، ولن نكون أفضل من الآخرين، افعلوا ما شئتم، لن نترك جرحانا!

ماذا حصل بعد ذلك! لقد اقتحموا المستشفى. لم يقصفوه، لكنَّهم فعلوا الأسوأ داخله، مارسوا همجيَّةً لا تُوصف، حفروا هنا وهناك، دمَّروا الجدران والأجهزة، حطَّموا جهاز الرنين المغناطيسيِّ الوحيد في غزَّة. في البداية وضعوا أسلحةً جلبوها معهم قربه، وقاموا بتصويرها. ما يفعلونه غبيٌّ جدًّا، فليس من عاقلٍ بوسعه أن يتخيَّل سلاحًا معدنيًّا في غرفة رنينٍ مغناطيسيّ، كانوا يريدون أن يقولوا للعالم انظروا لقد وجدنا أسلحةً داخل المستشفى، كنت أشاهدهم يزوِّرون كلَّ شيء.

اقتحموا المباني الفارغة وحفروا في الغرف والمخابر وفي الأقبية، حوَّلوا المستشفى إلى ركام. كنَّا نقول لهم لا يوجد أحدٌ هنا! قالوا: إنَّ معلوماتهم تقول بأنَّ هنا يوجد مقاتلون! كانت هذه حجَّةً فقط، وكانوا يصرخون ويتَّهموننا بأنَّنا نخفي الرهائن. رغم كلِّ ادِّعاءاتهم ورغم كلِّ حفريَّاتهم لكنَّهم لم يجدوا أيَّ شيءٍ ممَّا يدَّعونه، وجدوا فقط سلاح الأمن المدنيِّ الذي يحمي المستشفى، لا توجد في العالم مستشفياتٌ بلا شرطةٍ وهؤلاء لا دخل لهم بالمقاتلين. أتحدَّث هنا عن شرطةٍ مدنيَّة لحماية مرفق. لم

يستطيعوا إثبات أيِّ نظريَّةٍ ممَّا زعموه. كنت معهم حينها.

بعد أن انتهوا من تمشيط المباني الفارغة وحفرها وتدميرها، دخلوا المباني التي يوجد فيها نازحون ومرضى. فجأة، فجَّروا الباب ودخلوا! لقد فعلوا ذلك كما يفعلون في الأفلام السينمائيَّة، كان بإمكانهم فتح الباب ببساطةٍ والدخول، أظنُّ أنَّ التفجير كان بقنبلة! لست متأكِّدًا، لكنَّ الصوت كان قويًّا جدًّا، وذُعر الجميع. جيشٌ يقتحم قسم العناية المشدَّدة لمستشفى بالقنابل! بعد ذلك انتشروا وقاموا ببطحنا أرضًا. نحن الطاقم الطبِّيُّ والنازحون والمرضى الذين بقَوا بأسرَّتهم، ولم يستطيعوا التحرُّك. كانوا يبحثون عن أسماءٍ معيَّنة. كان معهم أسماء كلِّ شخصٍ لديه علاقةٌ بوزارة الداخليَّة، يعني أيُّ موظَّفٍ حكوميٍّ بالنسبة إليهم هو مطلوب. أغلب الناس موظَّفون! كان أمرًا يدعو للجنون، إذ إنَّهم لا يبحثون عن مقاتلين، هؤلاء يريدون أخذ كلِّ الناس! لقد اعتقلوا الموظَّفين لأنَّهم فقط موظَّفون! أحد المرضى كان مقطوع الرجلَيْن واليد اليسرى مقطوعة. رفض أن يُعطي الضابط الإسرائيليَّ هويَّته. فطلب الضابط من جنديٍّ أن يدخل. دخل الجنديُّ مدجَّجًا بالسلاح وأجرى مسحًا إلكترونيًّا لبصمة عين المريض[1]. بعد دقيقتَيْن، اعتقلوه، وجدنا أنفسنا في حفلة تعذيبٍ ساديَّة لرجلٍ مقطَّع الأوصال. كانوا يضربونه على أطرافه المبتورة وعلى جروحه. لقد صرخ الجميع لأنَّ المنظر كان رهيبًا! لقد

(1) كان المسح الإلكترونيُّ يجري لبصمة العين للتعرُّف على الشخصيَّة بتقنيَّات الذكاء الاصطناعيّ، وهذا المسح كان يجري بواسطة الجنود مباشرة، إضافةً للطائرات المسيَّرة المزوَّدة بالخاصِّيَّة هذه.

كانوا يعذِّبوننا معه عندما عذَّبوه أمامنا، كنَّا نشعر بالذلِّ والإهانة وهم يضربونه وفي النهاية أخذوه.

اعتقلوا ناسًا كُثر. لم يفرِّقوا! تفاصيل تعذيبٍ رأيناها لا يمكن التفكير أنَّ كائنًا بشريًّا يمكن أن يفعلها. بعد أن أنهوا اعتقالاتهم، جاء إليَّ الضابط وقال: تعال، أنت ممرِّض؟ قلت له: أنا الدكتور خالد أبو سمرة. أخذني إلى الطابق الثاني. كنَّا جميعًا، نحن الأطبَّاء والمرضى في الطابق الأوَّل. أخذني معه، لدينا ثلاثة طوابق أخرى. كان هناك طابقٌ كاملٌ للعمليَّات. أدخلني إحدى الغرف وقال: نحن نريدك، لن نعتقلك، نريد منك خدمة حتى تستطيع العودة لأهلك. إذا أردت رؤيتهم، عليك أن تنفِّذ ما أقوله. سكتّ. قال: سندخل غرفةً غرفة، نحن سنفجِّر الغرف المغلقة، قبل دخولنا، وأنت تدخل قبلنا. عرفت أنَّ الأمر وما فيه هو أن أكون فديةً لهم! أن يستخدموني كدرعٍ بشريٍّ بحيث لو كانت هناك غرفةٌ فيها قنبلة أو أيُّ شيءٍ آخر، أموت أنا وليس هم! كنت متأكِّدًا أنَّه لا يوجد لدينا سلاح. وضعوا السلاح على رأسي، وخبطوني وضربوني على صدري وشتموني! قلت: سأفعل ما تريدون. دخلت الغرف، غرفةً غرفة، وسط تنكيلهم وكانوا يقولون لي: ستموت معهم لو وجدنا واحدًا، ستموتون كلّكم.

في الطابق الرابع، كانت الريح تصفر، كنَّا في بدايات الشتاء وعندما يُفتح الباب يتكوَّن تيَّار هواء، فتحت الباب ودخلت، قلت: لا يوجد أحد، فلحقوا بي وبدؤوا التفتيش. لكنَّ تيَّار الهواء فجأةً أغلق الباب بعنف، وأصدر صوتًا قويًّا. انبطحوا أرضًا خائفين يصرخون! لقد تجمَّدت في تلك اللحظة، توقَّعت أنَّ

خوفهم هذا أمامي سيجعلهم يطلقون النار كما لو أنَّهم فقدوا أعصابهم. حتى الآن لا تفارقني هذه اللحظة من الإهانة، لحظة استُخدمت كدرعٍ بشريّ، كنت أُدرك وقتها كم هي حياتنا بلا قيمةٍ عندهم. بعد أن انتهينا، بقينا أربع ساعاتٍ متواصلة نجوب المستشفى، أنا في المقدِّمة، بنادقهم في خاصرتي ويجب عليَّ التقدُّم وتلقِّي الرصاصة الأولى أو الدوس على اللغم الأوَّل في حال وجوده، في النهاية لم يجدوا شيئًا، كنت معهم وهم يفتِّشون ولم يعثروا على أيِّ أدنى إثباتٍ لأيٍّ من التهم التي أطلقوها وأقنعوا العالم بها. بعد أربع ساعاتٍ من الترهيب والتعنيف والشتائم والضرب، وبعد أن مررنا على كلِّ الغرف، تركوني!

بقينا محاصرين في غُرفنا شبه معتقلين حتى يوم الثالث والعشرين من نوڤمبر. كانوا يعذِّبون الجرحى أمامي، وعندما يتألَّمون بشدَّةٍ يعطونهم المورفين كي لا يغيبوا عن الوعي. يعذِّبونهم وينكِّلون بجراحهم ويعطونهم المورفين ليستطيعوا تعذيبهم أكثر.

الجيش الإسرائيليُّ لم يتوقَّف عن الحفريَّات، استمرَّت نداءاتنا لوسائل الإعلام بإخلاء المصابين، وبقي موقفنا ثابتًا بأنَّنا كأطبَّاء لن نخرج دون مرضانا. وفي النهاية وافق الإسرائيليُّون على الإخلاء بالتنسيق مع الهلال الأحمر والأمم المتَّحدة وعندما سُئلنا كيف سيكون الإخلاء وكم سيَّارة إسعافٍ نحتاج! أجبنا بأنَّ لدينا مئةً وسبعين مصابًا يحتاجون لسبعين سيَّارة إسعافٍ على الأقلّ، لكنَّهم لم يجلبوا لنا سوى أربع عشرة سيَّارة إسعافٍ وباصَيْن صغيرَيْن وقالوا هذا الموجود ولا شيء آخر. لم نعرف

ماذا نتصرَّف، كيف سننقل الجرحى، حشرناهم جنبًا إلى جنب، نزيح المبتور على جنبه ونلصقه بالمبتور الثاني. وضعنا بقايا أجسادٍ بشريَّة هكذا مثل حقائب.

في يوم الثالث والعشرين من نوڤمبر، خرجنا من مستشفى الشفاء. كان المستشفى لا يزال محاصرًا من الخارج. منطقة شارع الوحدة والمناطق المحيطة بنا مزروعةٌ بالدبَّابات. أنا خرجت مع أخي في الباص الصغير الذي من المفروض أنَّه يتَّسع لعشرين شخصًا، لكنَّنا معًا، بعضًا فوق بعض، كنَّا أكثر من خمسين. أغلب الركَّاب جرحى ومصابون. مجرَّد حركة الباصات فوق الشوارع المحفورة كانت إعلانًا لبداية حفلة تعذيبٍ مع الجروح المفتوحة التي تنزف الدماء! كانت سيَّارات الأمم المتَّحدة أمامنا وسيَّارة جيب عسكريَّة وراءنا، ويجب علينا أن نتَّجه إلى الجنوب. هذه كانت أوامر الجيش الإسرائيليّ. طلبنا الخروج للشمال، رفضوا طلبنا، أجبرونا أن نتَّجه للجنوب، وكان هذا مخطَّطًا.

في الطريق، كانت السيَّارات تسير وسط الجثث! هذه ليست مبالغة، الجثث في كلِّ مكان، مرميَّةً ومكدَّسة! لقد أصبحت غزَّة مدينة قتلى، مدينة أشباح. عند مفترق الشجاعيَّة، الجثث مرميَّةٌ وكأنَّها تفرش الأرض، لا يوجد فراغ! نساءٌ ورجال، أطفالٌ وجثث. الجيش يراهم، الجنود يتحرَّكون في الشوارع بينهم، وكأنَّ هذه الأجساد البشريَّة غير موجودة.

عندما وصلنا الحاجز الذي يفصل بين الشمال والجنوب توقَّفنا. لقد أقاموا حاجزًا مكان مستوطنة نتساريم التي أخلوها قبل

20 عامًا، كنت أشعر أنَّ رأسي ليس في مكانه فوق جسدي، أشعر بدوار! مشتَّتٌ ولا أستطيع التركيز. كنَّا نبكي، ـ نحن الرجال ـ المحشورين في الباص جميعنا نبكي.

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف تمامًا عندما وصلنا الحاجز المُخيف! لتبدأ رحلة الانتظار! تسعةٌ من كلِّ عشرةٍ من الخارجين من المستشفى كانوا في حالة صحِّيَّةٍ خطيرةٍ تشارف الموت، ومع ذلك، تركونا ننتظر من الساعة الثانية عشرة والنصف حتى الثامنة ليلًا! ثماني ساعاتٍ وكلُّ تلك الأجساد محشورةٌ في الباصات، ممنوعٌ عليها الحركة والنزول من السيَّارات والباصات. بعض كبار السنِّ تبوَّلوا في مقاعدهم.

في الساعة الثامنة، أدخلونا ساحةً مساحتها كيلومترٍ واحد. كانوا قد جرفوها وكنت أتساءل إن كانت الأجساد البشريَّة قد جُرفت معها! ثم جعلونا مع سيَّارات الإسعاف ندور بشكلٍ دائريٍّ في الساحة مثل استعراضٍ عسكريّ! الكشَّافات المضيئة موجَّهةٌ علينا، وندور وندور، وسيَّارات الإسعاف الأربع عشرة تدور معنا والباصَيْن أيضًا. ثم يقومون بتفتيش كلِّ سيَّارة إسعاف، وكلَّ عمليَّة تفتيشٍ تستغرق نصف ساعة. كانوا يقولون إنَّ هناك مصابين هربوا من مستشفى المعمدانيِّ وهم يريدونهم، إنَّهم يلاحقون مصابين هربوا من مجزرة! يلاحقون ناجين من مجزرةٍ ليقتلوهم، لن أنسى أبدًا ذلك الحاجز، حاجز نتساريم.

محمَّد فادي صالح

شمال غزَّة

25 سنة

كنت واقفًا أمام بيتي حين سقط الصاروخ في آخر الشارع. خرجت لأرى ما يجري، لكنَّني لم أتمكَّن من الوصول إلى هناك. ثم قصفوا مرَّةً ثانية، كنت بعيدًا نحو مئة مترٍ عن المكان المستهدف، الانفجار كان شديدًا. طرت من مكاني وارتطمت بالأرض بقوَّة، شعرت بالشظايا تخترق جسمي في كلِّ مكان. حاولت التحرُّك، لكنَّني لم أتمكَّن. كنت محاطًا بالجثث والمصابين، وحاول من حولي مساعدتي، لكنَّ الجرحى كانوا كُثُرًا، والشهداء أكثر. جاءت سيَّارة إسعافٍ واحدة، وحملونا جميعًا فيها. نظرًا لكثرة الجرحى، وضعوني في صندوق السيَّارة مع آخرين.

وصلنا إلى مستشفى كمال عدوان، كان يفتقر إلى كلِّ شيء: الدواء، البنج، وحتى الأجهزة الطبِّيَّة الضروريَّة. لم يستطيعوا حتى تشخيص حالتي، كنت أعاني من شللٍ كاملٍ في ساقيّ. بعد فترة، تمَّ تحويلي إلى المستشفى الإندونيسيّ، ولكن هناك كانت الأمور أسوأ. لا كهرباء، لا مولِّدات، ولا إمكانيَّات لإجراء التصوير اللازم لحالتي. بعد ساعاتٍ طويلةٍ من الانتظار، تمكَّنت أنا وغيري من المصابين من إجراء صورةٍ مقطعيَّة، وتبيَّن أنَّ هناك ضغطًا على العمود الفقريّ، لكنَّ الأطبَّاء لم يتمكَّنوا من تفسير الشلل.

نقلوني إلى مستشفى الشفاء. كنت مرهقًا للغاية وأنزف بشدَّة. لم أكن أستطيع الكلام، المكان مزدحمٌ بالجرحى والدماء في كلِّ مكان. ليس هناك من سريرٍ لي في العناية المركَّزة، فوضعوني على فرشةٍ في الأرض بين المصابين. بجواري كانت الجثثُ والأشلاء متناثرة. أجروا لي عمليَّةً طارئة لنزيفٍ داخليٍّ في الصدر على تلك الفرشة، ثم وضعوا أنبوبًا في صدري لتفريغ الدم. بعدها تمَّ قبولي في المستشفى، قبلوني في المستشفى شرط أن أبقى على ذات الفرشة، لم أفهم ماذا يحدث، ولماذا لا يستجيب جسدي لي.

في اليوم التالي، طلب الأطبَّاء إجراء صورة رنينٍ مغناطيسيّ، لكنَّها لم تكن متوفِّرة. استمرُّوا في محاولة معرفة سبب الشلل، لكن دون جدوى. فقدت التحكُّم في البول والبراز، وركَّبوا لي قسطرة. في اليوم الرابع، رمى الإسرائيليُّون مناشير تُطالب بإخلاء المستشفى، وقصفوا قسم الولادة، حيث كان الأطفال الرضَّع

والخدَّج. كنت هناك في تلك اللحظة، لا أستطيع الحركة، الخوف سيطر عليّ، وكان القصف مستمرًّا. خشيت أن يدخل الجنود الإسرائيليُّون ويقتلوننا كما سمعنا عن حالات تصفيةٍ جماعيَّة.

بعد ساعاتٍ من الرعب، جاء عمِّي. كنت أصرخ وأُخبره أن يتركني، لا أريد أن أكون عبئًا عليه. لكنَّ عمِّي أصرَّ على إخراجي. كنَّا نعلم أنَّ المستشفى يستعدُّ للإخلاء، والإسرائيليُّون يقتربون. حملني عمِّي في كرسيٍّ متحرِّك تحت المطر والقصف. بعد نصف ساعةٍ من المشي، وجدنا سيَّارةً وأخذني إلى البيت. كان أهلي خائفين، كلٌّ من حولي كان مرتعبًا. كنت مريضًا، حرارتي ترتفع، وجسمي يحترق، ولم يعرف أحدٌ ما أصابني. حاولنا التواصل مع الأطبَّاء، لكن دون جدوى. بقيت في هذه الحالة لأيَّام، متنقِّلًا من بيتٍ إلى بيت، كنَّا ننزح باستمرارٍ بسبب القصف.

بعد 15 يومًا من المعاناة، جاء الصليب الأحمر إلى مستشفى كمال عدوان لإجلاء المرضى. كانت هناك هدنة[1]، وفي اليوم الرابع من الهدنة، تمَّ إجلاؤنا مع الصليب الأحمر.

وصلت إلى مستشفى ناصر في 26 نوفمبر، لم تكن هناك

---

(1) في 24 نوفمبر / تشرين الثاني 2023، بدأت هدنةٌ مؤقَّتة بين إسرائيل وحركة حماس في قطاع غزَّة، استمرَّت لمدَّة أربعة أيَّام. تمَّ التوصُّل إلى هذا الاتِّفاق بوساطةٍ قطريَّة، ونصَّ على وقف إطلاق النار وتبادل الأسرى؛ حيث أطلقت حماس سراح 50 رهينةً مقابل إفراج إسرائيل عن 150 أسيرًا فلسطينيًّا. كما سمح الاتِّفاق بدخول المساعدات الإنسانيَّة إلى القطاع خلال فترة الهدنة.

أسِرَّةٌ كافية، ولا مكانٌ لي. بعد ستٍّ أو سبع ساعاتٍ من البحث، وضعوني أخيرًا على سرير. في تلك اللحظات، كنت منهكًا تمامًا، والألم ينهشني، وبحاجةٍ ماسَّةٍ إلى مُسكِّنٍ للألم، لكنَّه لم يكن متوفِّرًا. الألم كان رهيبًا. ومع مرور الأيَّام، أصابتني جلطةٌ في القدم نتيجة عدم الحركة، أو بالأحرى بسبب عجزي عن التحرُّك. تلك الجلطة كانت كفيلةً بأن تسوء حالتي أكثر، وبدأت أشعر أنَّني أعيش انتكاسة، تراجعت صحَّتي بشكلٍ ملحوظ.

حاول أهلي إخراجي من غزَّة لتلقِّي العلاج في الخارج، كانوا يرون وضعي يتدهور يومًا بعد يوم، لكنَّهم لم يستطيعوا. بقيت في مستشفى ناصر دون أيِّ علاجٍ يُذكر. أقصى ما قدَّموه لي هو مُضادٌّ حيويّ. لم يكن هناك أيُّ تدخُّلٍ طبِّيٍّ فعَّال، لا إعادة تأهيلٍ ولا علاج طبيعيّ. وبمرور الأيَّام، كنت أشعر أنَّ حياتي تنحدر نحو النهاية، وخاصَّةً مع استمرار القصف، اعتقدتُ أنَّني سأموت في سريري، مشلولًا وعاجزًا.

الأطبَّاء أخبروني أنَّ إصابتي عبارةٌ عن جرحٍ في الحبل الشوكيّ، لكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا في ظلِّ هذا الوضع؟ القصف مستمرّ، الجثث تنتشر من حولنا، والمستشفى يفتقر لكلِّ شيء. كنَّا نعيش وسط جرحى ومرضى وجثثٍ متناثرة. كلُّ شيءٍ يشير إلى أنَّني لن أتمكَّن من النجاة.

ثم جاء الجيش الإسرائيليُّ وأمر بإخلاء هذه المستشفى أيضًا، لكنَّهم طلبوا ترك المرضى الذين لا يستطيعون الحركة، وأنا منهم دون أيِّ مرافقين. أمِّي رفضَت أن تتركني وحيدًا تحت رحمتهم. بقيت معي تُقلِّبني وتعتني بجروحي. رفضت المغادرة،

بالنسبة إليها تركي يعني موتي. بدأت تقرُّحاتٌ تظهر في ظهري نتيجة عدم الحركة. ولكن في النهاية، أمروا المرافقين بالخروج وإلَّا سيقتلوهم، وأُجبرت أمِّي على مغادرة المستشفى، وكانت آخر من يخرج. حاولت الهروب منهم، لكنَّهم حاصروها بخمسة جنودٍ وأسلحةٍ متعدِّدة، وانقطعت عنِّي لأيَّام.

لم أتحرَّك في تلك الأيَّام، بقيتُ عاجزًا تمامًا. كان الجنود يحتلُّون المستشفى، ضربوا الجرحى بشكلٍ عنيفٍ وأهانونا جميعًا. كنت واحدًا من الذين تعرَّضوا للضرب والإذلال. جاء جنديٌّ إسرائيليٌّ نحوي، وقلت له بهدوءٍ إنَّني مجرَّد جريحٍ مشلول، لا أستطيع الحركة. لكنَّه لم يكتفِ بضربي، بل هدَّدني بالاغتصاب. ابتسم بخبثٍ وبدأ يحرِّك سريري بعنف، وكأنَّه يمثِّل مشهدًا جنسيًّا، يجرُّ السرير للأمام والخلف بعنف، ويصدر أصواتًا كأنَّه يستمتع بذلك. كان ينظر إليَّ ويطلب منِّي أن أفتح عينيّ، استمرَّ في إهانتي وإذلالي. كان الضحك والتهكُّم يملآن وجهه، وأنا عاجزٌ عن فعل أيِّ شيء، فقط أغمضتُ عينيَّ محاولًا أن أهرب بعقلي من هذا الكابوس.

كنت هناك، في قلب الجحيم، عندما اقتحم الإسرائيليُّون المستشفى برفقة كلابهم المدرَّبة، وأفلتوها علينا، الزنَّانة تحوم فوقنا، تُهدِّدنا بالمزيد من القصف. بينما الاعتداء الجسديُّ واللفظيّ؛ كان مزيجًا من التحرُّش الجنسيّ، الإذلال، والتهديد المستمرِّ بالاغتصاب. حملونا بأسرَّتنا وأخذونا إلى الساحة الخارجيَّة، حيث واصلوا الضرب والتعذيب. كانوا يضربونني مرَّاتٍ عديدةً على رأسي ووجهي وصدري، بعنفٍ لا يوصف.

كنت أشعر كأنّني خرقةٌ بالية بين أيديهم.

أنزلونا إلى مكانٍ يعجُّ بالجرحى والأشخاص مقطّعي الأطراف، أولئك الذين كانوا على وشك الموت. قيّدوا يديّ ووضعوا عصبةً على عينيّ، وبدأوا في استجوابي بينما كانوا يواصلون الضرب العنيف. ضربوني على رأسي بالبارودة مرارًا وتكرارًا، إلى أن شعرت أنّني أفقد وعيي. ثم تركونا هناك. كنّا جميعًا نئنُّ من الألم. ثم دخل أطبّاء من طرفهم، ليقيِّموا الحالات. لكنّهم تركونا هناك. كانت جراحنا مفتوحة، والدماء والبول والبراز تنتشر في المكان. نعيش في حالةٍ لا يُمكن وصفها إلّا بالموت البطيء. عاجزين عن الحركة أو التعبير بغير الأنين الذي بدأ يخفت تدريجيًا. مكتبة سُر مَن قرأ

جاء جنديٌّ إسرائيليٌّ مرَّةً أخرى، وطلب منّي الوقوف. قلت له إنّني مشلول، كان يرفعني ثم يرميني على الأرض مرارًا وتكرارًا، حتى بدأت أفقد الوعي، وبدأت جروحي تنفتح وسالت الدماء منها بغزارة. في تلك اللحظة، كنت أتساءل فقط كيف سأموت، كنت أرغب في الموت بسرعة، أبحث عن طريقةٍ للموت، ومن ثم أدخلوا علينا الكلاب، اعتقدت أنّها ستأكلنا. في ذلك اليوم، دخلت قطّةٌ وجلست فوق رجلٍ بجواري، وبدأت تأكل في قدمه المقطوعة، كانوا يشاهدون ذلك، يتلذّذون بالنظر إلينا ونحن نموت.

تركونا هناك، في هذا الكابوس الحيّ، حتى انسحبوا أخيرًا، كنت لا أزال في حالة صدمة. جاء مسعفون ونقلوني إلى خيمةٍ دون أيِّ رعايةٍ طبّيّة أو علاج. لا أدوية، لا مسكّنات، ولا حتى

أدنى اهتمام. كنت أعيش في انتظار الموت البطيء، حيث لم تكن هناك أيُّ وسيلةٍ للعلاج أو التخفيف من الألم. الأطبَّاء أخبروني أنَّني بحاجةٍ للخروج من غزَّة لتلقِّي العلاج، لكنَّني محتجزٌ بسبب السيطرة الإسرائيليَّة على المعابر التي تمنع الشباب من السفر. عالقٌ بين الحياة والموت، أتنقَّل من خيمةٍ إلى خيمة، بينما أهلي باقون في الشمال، يعيشون في كابوسٍ آخر.

أنا لا أطلب المستحيل، لا أطلب أن أعود للمشي على قدميّ. كلُّ ما أريده هو نهايةٌ سريعةٌ لهذا العذاب. لكنَّني عالقٌ هنا في مخيَّم رفح، حيث الأدوية نادرةٌ وأسعارها خياليَّة. كلُّ ما أستطيع فعله الآن هو انتظار الموت ببطء، بين الحياة والموت، أمواتٌ أحياء، دون أن يكون هناك أيُّ سبيلٍ للهروب.

ندى عِيسى عَيَّاش

40 سنة

مخيَّم جباليا

وُلدت في المنفى، وعدت إلى غزَّة، وتزوَّجت، وكوَّنت أسرةً صَغِيرَةً تعيش في رحاب العائلة الكبيرة في مُخيَّم جَبَاليا، في بِنَاءٍ كبيرٍ يَجمَع الإخوة والأخوات والأجداد والأحفاد والآباء والأبناء، وعملت مُعَلِّمَةً في وِكالة الغوث / الأونروَا. بقيتُ لِأخدم اللاجئين الفلسطينيِّين من خلَال عَملِي في الوكالة. هذا عدا نَشاطِي في مُنظَّمَات مُجتَمَعٍ دولِيٍّ إنسانيَّةٍ وتنمويَّةٍ وإغاثيَّة. لست مُنتميَةً لِأيِّ فصيلٍ أو حزب، لا عَلاقَة لي بحماس، ولا أَهتَمُّ بالسلطة الفلسطينيَّة، كلُّ الذي أردَته، مثل غَيرِي من الفلسطينيِّين، أن أعيشَ بسلام.

حقَّقت حُلمِي، وكنت راضيةً لأنّي أقُوم بمساعدة أبناء بلدي، لكن هذا لا يعني أنَّنا كُنَّا نعيش في فردوس. الحرب أساسِيَّةٌ في حياتِنا، وقد عشتُ أَربَع حُرُوبٍ رُبَّمَا. لكن تلك كانت حُروبًا القصف فيها بالتقسيط، الموتُ والدمار فيها يجيئان على مَهل، لم تكن إبادة، وكانت لدينا دومًا حقيبة طوارئَ تحوِي مزيجًا فريدًا من الذكريات والضروريَّات لنحملها فور أيِّ قصفٍ ونخرج. الإسرائيليُّون قصفوا في الحرب الماضية دار جيراني التي لا تُؤوي رجال حماس، وأنا أعرف أنَّهم يعرفون كلَّ شيءٍ عنَّا وكلَّ كبيرةٍ وصغيرة. كاميرات، استخبارات، درونات. لذا؛ حين بدأت الحرب الحاليَّةُ قلت: لن نخرج، سنبقى في بيتنَا. كذا قرَّرت عائلتاي الصغيرة والكبيرة، لن يكون الأمر مختلفًا عن المرَّات السابقة. لكن تلك كانت حروبًا، أمَّا ما يحدث معنا الآن فنحتاج الجنون كي نتخيَّلَه، ثم كي نُصدِّقه.

فِي صباح يوم، 10/ 10/ 2023 الساعة العاشرة والنصف، قصف الإسرائيليُّون دار العائلة. لم يشفع لنا أنَّ بيتنا الواقع في بركة أبو راشد في مخيَّم جباليا يجاور مدرسةً مِن مَدارِس الأونروا باتت مكتظَّةً بالنازحين. إنَّهم يعرفون كُلَّ شيء، لذلك سقوط صاروخَيْن في قلب بنايتنا كان مفاجأةً كبيرةً لي. لم أكن في ذلك الصباح في أحسن أحوالي. كانت درجة حرارتي مرتفعةً وأشعر بإنهاكٍ شديد، والحمَّى تمارس هوايتها في إسلامي للهذيانات وغياب الوعي. لسببٍ ما، قلت لزوجي، حُسَام أحمد 42 سنة، أن يَأخذ الولدين، علا 8 سنوات ومحمَّد 5 سنوات، ليسلِّما على جدِّهم وجدَّتِهم وأعمامهم وعمَّاتهم. لا! لا أظنُّ أنِّي كنت أتنبَّأ

بما سيحدث، لا أظنُّ أنَّ للحمَّى خاصِّيَّة شَحْذ الحدس وَكشْف الغيب. كلُّ ما في الأمر أنَّ هذا من الأشياء التي أحبُّ أن يفعلها ولداي، أن يظلَّا على ارتباطٍ مع بقيَّة أفراد العائلة.

قصفونا في زمن غياب ولديّ، خمس دقائق فقط! صاروخان من صواريخ الشفط[1]. في أوَّل الأمر لم أسمع الصوت، لا تسمعين حين تكونين هدفًا للموت. لم أفهم شيئًا، كنت أطير مصحوبةً بالحمَّى وبكابوسٍ بشعٍ لن يُوقظَني منه إلَّا ارتطامٌ عنيفٌ بالأرض وركامٌ هائلٌ نزل عليَّ ودفنَني تحت الردم، لحظتها لم أشعر بشيء، هما ثانيتان طرت فيهما وسقطت بينما كان الصاروخان يشفطان أرواح خمسةٍ وعشرين شخصًا من عائلة زوجي. الجدَّة، الأعمام والعمَّات، أولادهم، كُلُّهم رحلوا. في هذا الجنون لا يستغرق شفط خمسةٍ وعشرين روحًا أكثر من ثانيتَيْن. وبمعجزةٍ لا أفهمها إلى الآن نجا زوجي، ونجا ولداي، ونجوت.

اختفت العائلة في لمح البصر، قضى الجميع تحت الأنقاض، وانتشلت الجثث تباعًا. وأنا تحت الأنقاض سمعت صراخ ابنتي علا، كانت تنادي على أبيها. ليس صراخها وحسب، سمعت صراخًا يأتي من كلِّ مكان، سمعت صوت والد زوجي ينادي على ابنتي باحثًا عنها، وكانت الأرض من حولنا تشتعل بالنار كأنَّنا في موقدٍ حجريّ. علمت لاحقًا أنَّ الجَدَّ تتبَّع

(1) الاسم الشائع فلسطينيًّا للقنابل الفراغيَّة وهي: «القنبلة الفراغيَّة» إحدى القنابل غير النوويَّة التي تتمتَّع بقوَّةٍ تدميريَّةٍ عالية. وتمتصُّ «تشفط» القنابل الفراغيَّة الأوكسجين من الهواء المحيط لتوليد انفجارٍ شديد، وعادةً ما تنتج عنها موجة انفجارٍ بمدَّةٍ أطول بكثيرٍ مقارنةً بالمتفجِّرات التقليديَّة.

صوت حفيدته حتى عثر عليها، ثم نبش بأظافره ليمنحهَا بعض الهواء. كادت ابنتي الصغيرة تموت اختناقًا! كادت تُدفن حيَّة! علمت لاحقًا أنَّهم اجتمعوا وحفروا بأيديهم وأصابعهم وأظفارهم وجلودهم حتى انتشلوها. لم تكن لديهم آلاتٌ أو أدوات، فعلوا ذلك بغريزتهم التي نمت وصارت معجزة، ونجحوا، وانتشلوا علا مع سيخ حديدٍ يخترق رجلها.

في ذلك الوقت كلِّه كنت لا أزال تحت الأنقاض، أسمعهم يصرخون باحثين عن أحياء. لم أكن أظنُّ أنِّي حيَّة، فلم أُتعب نفسي بالردِّ عليهم. كنت على يقينٍ من أنِّي مُتّ، أنِّي أُغادر هذا العالم، وأنَّ كلَّ ما يحدث حولي ليس سوى ما يحفُّ الطريق إلى العالم الآخر. بل ما كان ليتغيَّر شيءٌ حتى لو لم أبلغ ذلك اليقين، فقد شعرت بأنِّي فقدت القدرة على الكلام، بل نسيته كأنِّي لم أتعلَّمه يومًا. لم أصرخ من الرعب ولا من الألم، لم أتفوَّه بكلمة، وحدها يدي امتدَّت من بين الركام مثلما يخرج أوَّل النبات فعرفوا مكاني. الجدُّ هو الذي رأى يدي، فأسرع إليَّ وبدأ يحفر حولي وينتشلني. حينها استعاد فمي ذاكرته وبدأت بالصراخ. ألمٌ رهيب، ألمٌ لا أستطيع أن أصفه، بل إنِّي لم أعرف مصدره بالضبط، كان جسدي كأنَّه لحمةٌ مهترئةٌ تتقطَّع، كأنَّ أحدهم كان يسلخ جلدي من رأسي إلى قدمي. هذا أفضل ما أقدر أن أصف به حالي ساعتها، كنت كلِّي ألمًا. هذا لا يعني أنِّي عرفت حينها أنِّي حيَّة، فقد يكون ذاك النوع من الألم جزءًا من وقائع الموت.

في المستشفى الإندونيسيّ، اكتشفت أنِّي لم أمت بعد. إليه أخذوني بعد انتشالي، وهناك، من بين كلِّ أصوات الألم والأنين

والرعب، ميَّزت صوت علا تصرخ، وكان صوتها علامة حياة. وفي المستشفى، الذي أخرجوني منه سريعًا على الرَّغم من جروحي وحروقي ومِزَق اللحم التي تتكوَّم على عظامي، عرفت ما الذي حلَّ بالعائلة. كنَّا الناجين الوحيدين، وعلى زوجي الآن أن يدفن خمسةً وعشرين فردًا من أفراد عائلته. والقصف لا يهدأ.

يُلقي الإسرائيليُّون منشوراتهم التحذيريَّة ويقصفون فورًا. يلقون منشوراتهم ولا يتركون للناس وقتًا يحزمون فيه أغراضهم ويحصون أجسادهم ويخرجون بشيءٍ غير الثياب التي تسترهم. يلقونها كأنَّهم يُقيمون علينا الحجَّة بها: أنذرناكم! وهي مجرَّد كذبةٍ كبيرة، مثل كلِّ أكاذيبهم التي يصدِّقها العالم والتي أريد أن أُصدِّقها كي أستطيع الحياة. كذبةٌ كبيرة، نعم، لأنَّهم يقصفون فور إلقاء المنشورات، يقصفون دون تمييز، يقصفون المدارس والمشافي والخيم وأماكن إيواء النازحين. كلُّ هذا والاقتحام البرِّيُّ لم يبدأ بعد.

عاش أجدادنا الحرب، عاشها آباؤنا، عشناها نحن وأولادنا، في عائلتنا شهداء منذ زمن، أخت زوجي أرملة، فزوجها شهيد، قتل في حرب 2008، لا جديد في هذا، لكن لم يكن الوضع بالصورة هذه، ليس هكذا. نحن سجناء في غزَّة منذ سنواتٍ طويلة! منذ 20 سنةً أعيش في القطاع، أعيش الموت، موتٌ يجيء وموتٌ يذهب، أربع حروبٍ ربَّما، أو خمس، لا أُجيد العدّ، لكن لم يكن يصل الأمر إلى حدِّ الإبادة. تحمَّلت الحياة هنا لأنَّه وطني، ولأنِّي أعيش مع عائلتي الكبيرة. هذا وأنا أنتمي إلى أعلى الطبقة المتوسِّطة وأعاني على الرَّغم من ذلك، فكيف بالآخرين؟ الحياة صعبةٌ في السجن، ولا يخفِّف من صعوبتها أن تكون مساحة السجن

أكبر من المألوف. عشت عدَّة حروب، نخرج من حربٍ لندخل في أخرى، هذَا عدا الغارات الجوِّيَّة المتفرِّقة التي تشنُّها إسرائيل بين الفينة والفينة، لكن كلُّ ما سبق يبدو لي الآن ألعابًا تافهة. في كلِّ سنةٍ يحدث عدوانٌ إسرائيليّ، يحدث قصفٌ عنيف، يحدث قتلٌ دون تمييز، لكن هذه المرَّة الوضع مختلف.

مع الأيَّام التهبت رجلي من إنتان جروحها. فيها جروحٌ كثيرة، ذهبت أجزاءٌ من لحمي. صرت أشعر بأنَّ جسمي ناقص. أصابني نزفٌ مهبليّ، وبقي مدَّةً طويلة. تواصلت مع أطبَّاءٍ لأعرف سبب هذا النزف. جميعهم قالوا إنَّهم لا يعرفون ما يحدث، قالوا إنَّ الإسرائيليِّين يستخدمون أسلحةً جديدةً ومحظورة. سمومٌ وموادُّ كيميائيَّةٌ أُلقيت علينا تسبِّب أعراضًا غريبة. ليس دمًا وحسب، كنت أرى كتلًا لحميَّة ودمويَّة تخرج منِّي. كنت أشعُر بشيء يتقطَّع داخل بطني ثم يخرج، بعد ذلك انقطعت دورتي الشهريَّة. ربَّما نفذت السموم من خلال جلدي أو امتصَّتها جروحي. عانيت من الالتهابات في كلِّ جزءٍ من جسدي، وجروحي لا تلتئم. هذَا حال الجسد، أمَّا ما يعتمل في نفسي فلا أستطيع وصفه. لن تسعفني لغتي. أبكي طوال الوقت، نبكي أربعًا وعشرين ساعةً في اليوم، كلُّ الذين أحبَّهم رحلوا. أطفالٌ أبرياءُ بديعون كالزهور تبخَّروا فجأة، رضَّعٌ لا يزال أثر الحليب على شفاههم ماتوا مختنقين بالموادِّ الكيميائيَّة، الجدَّة اللطيفة مثل نسمةٍ ربيعِيَّة، الجدَّة التي كنت إنْ سألني أحدهم: لم لا تتركين غزَّة؟ أجبته من فوري: لا أترك الجدَّة الطيِّبة، تلك الجدَّة رحلت.

انتقلنا شمالًا، إلى دار أهلي في الصفطاوي، وأنا على كرسيٍّ

متحرِّك. نزحنا تحت القصف، لكنَّ القصف على شدَّته لم يكن كافيًا لإسكات أوجاعي. لم أكن أتداوى بغير مضادَّاتٍ حيويَّةٍ فمويَّة، وكنت عاجزةً عن الحركة، وابنتي بحاجةٍ للأوكسجين من أثر اختناقها تحت الردم، وزوجي لا يزال يحاول دفن موتاه. أبي المقعد الذي يشكو من ضعف في البصر وأمراضٍ كثيرة، أمِّي المُسنَّة، أخي ذو الأطفال السبعة، أختي وزوجها، وأنا مع ابنتي، لم يمهلنا الجنون أكثر من يومَيْن. يومان فقط، يومان بعد المجزرة، في الثاني عشر من أكتُوبر ألقى علينا الإسرائيليُّون منشوراتهم تلك. هو الرعب، هو يوم الحشر الذي يأتي مثل لصٍّ وأهل البيت نيام، هي اللحظات التي يجمع فيها الأهل من يجدونه حولهم من أولادهم ثم يعودون بعد ذلك لالتقاط من نسوه! حمل زوج أختي ابنتي علا، وألقى بي مع كرسيِّ المتحرِّك في سيَّارته.

البنزين القليل الذي بقي فيها، ثم قرار زوج أختي بالخروج فورًا مهما حدث قبل أن يُغلقوا شارع صلاح الدين، كانا سبب نجاتنا. تركنا أهلي، وكانت كلُّ حركةٍ من حركات السيَّارة، بل كلُّ سكنةٍ من سُكناتها، تولِّد في جسدي آلامًا لا توصف. جسدي كُلُّه سكاكين، وفي كُلِّ لحظةٍ تنغرز السكاكين أكثر في لحمي وأعصابي وعظامي. توجَّهنا جنوب وادي غزَّة، هذه أوامر الإسرائيليِّين. يطردوننا، يأتون من الهواء ليجهزوا على الجرحى ومن نجا من المجازر التي ارتكبوها من قبل، ثم يلحقون بنا إلى مكان نزوحنا الجديد. قرارٌ واعٍ بالإبادة، كأنَّهم تعمَّدوا ألَّا يبقوا منَّا أحدًا. وصلنا أخيرًا إلى النُّصيرات، وبعد عشر دقائق من وصولنا أغلقوا شارع صلاح الدين. من بقي في الجهة الأخرى،

هناك شمال الوادي، صار الآن حبيسًا.

في مخيَّم النُّصيرات دارٌ مهجورة كان يسكنها جدِّي. بيتٌ خرب، ليس فيه حمَّامٌ ولا ماء، جروحي مفتوحة، علا تبكي من الوجع، ومحمَّد يقول: هذا بيت شياطين، أنا مش مبسوط. عمره خمس سنواتٍ وصار قادرًا على القول وهو يحدِّق بعينَيْن جامدتَيْن: أنا مش مبسُوط. اتَّصلت بزوجي ليأتي إلينا، قال لي إنَّه لم يُخرج جثث أهله بعد. سيتطلَّب الأمر منه ـ كما تبيَّن ـ سبعة أيَّام حتى استطاع إخراج الجثث ودفنها، ما عدا أخته التي تمزَّقت أشلاء. ولأنَّنا أردنا رؤيته بشدَّة، ولأنَّه يريد أن يطمئنَّ علينا، كان يأتي ثم يعود إلى مكان المجزرة، لن يهدأ له بالٌ ما لم يدفن أفراد عائلته. بعدها اقترح علينا أن ننتقل إلى بيت عمَّته. لن يكُون الحال أفضل، لكن ما من خيار. هناك سننحشر في بيتٍ واحدٍ مع العشرات، ومجدَّدًا لن يكون لدينا ماء. دون ماءٍ لا يمكننا الاستحمام وقضاء حاجتنا، دون ماء، لا يمكنني العناية بجراحي، ولم أكن وحدي، الجميع في مثل حالي، ولكُلِّ واحدٍ مصائبه ومشكلاته. في هذَا الوقت، كانت العمليَّة البرِّيَّة بدأت في جباليا.

كان ذلك اليوم هو الثالث من ديسمبر. نظر الطبيب في مستشفى شهداء الأقصى إلى ساقي الحمراء المتورِّمة وقال مباشرةً: تحتاجين عمليَّة. ثم أردف: لا يمكننا فعل ذلك، سأكتفي بتعقيم جروحك. ـ أيمكنني الحصول على مضادَّاتٍ حيويَّة؟ ـ ليس لدينا. المستشفى ممتلئٌ عن آخره، مُكتظٌّ بالنازحين والجرحى والإنتانات والروائح. نعمة، أخت زوجي، قُتلت في قصفٍ مع أولادها السبعة وتركت رضيعة. صار عدد

موتانا ثلاثةً وثلاثين؟ الماء الملوَّث فعل فِعله بي، أُصبتُ بِالتسمُّم، ولا أكفُّ عن التقيُّؤ. والقصف يطال كلَّ شيء: الشرطة المدنيَّة، المستشفيات، المستوصفات، الصليب الأحمر وأطبَّاء بلا حدود، لم تعد لدينا إعاناتٌ إغاثيَّةٌ أو خدماتٌ طبِّيَّة، لا يوجد الآن أيُّ شكلٍ من أشكال العناية بالجرحى والمرضى، بل لا يوجد دواءٌ يوقف قيائي. قال طبيبٌ لزوجي: أرأيت الماء الذي في المعلَّبات؟ علبة الفول مثلًا؟ اعصروا عليه ليمونةً ولتشربه. كذا كانت وصفته! قال زوجي إنَّه مستعدٌّ لدفع ثمن الدواء، أكَّد الطبيب أنَّ الدواء غير متوفِّر: لا تعذِّبوا أنفُسكم.

ذهبنا هذه المرَّة إلى بيت خالتي فِي الزَّوايدة، سبقني أهلي إليها، وفي غرفةٍ وَاحدةٍ أقمنا معًا، أربعة عشر شخصًا من بينهم أبي المقعد. لا فرش، لا أغطية، لا كهرباء، لا اتِّصالات، ولا إنترنت، أنام على الأرض وأوجاعي معًا، وزوجي يقطع كلَّ يوم مشيًا ساعةً في الذهاب وساعةً فِي الإياب ليأتي ويطمئنَّ علينا. ثم نزحنا إلى رفح.

في رفح لم يكن الوضع أفضل، في الشقَّةِ خمسون نازحًا، أو ربَّما ثمانون. وضعُوني في شقَّةٍ لأنِّي كنت مصابة. حمَّامٌ واحدٌ لخمسين شخصًا، أو ثمانين. يزوِّدوننا ببعض المعلَّبات وماء الشرب الملوَّث، وفي ظروف شحِّ الماء يصبح الأكل والشرب مثيرين للقلق: كيف سأقضي حاجتي؟ كيف سأنظِّف نفسي؟ جعت حتى الإغماء، عطشت حتى الجفاف، وكثيرون، من بينهم ابني محمَّد، أُصيبوا بالتهاب الكبد الوبائيّ. الماء ملوَّث، المكان ملوَّث، الهواء ملوَّث، ومن حولي ترقد أشكال هياكل عظميَّةٍ من بينهم ابني وابنتي. ساعدنا أهل رفح كثيرًا، لكن أيُّ شيءٍ بوسعه

أن يزيل معاناتنا أو يخفِّفهَا؟ الألم شديد، المأساة كبيرة، أشعر أنَّ حديثي عنها، أنَّ تكرار مفرداتٍ بعينها، سيبتذل المسألة كلَّها، لكن ما العمل؟ من أين آتي بلغةٍ جديدة؟ أكثر ما كان يخجلني هو الصراخ، صراخي، أن تسمع نساءٌ ورجال لا أعرفهم صراخي، هذا آذاني إلى أبعد حدّ، ولم أستطع التحكُّم بالأمر، آلامي لا تهدأ، وجروحي لا تندمل. شعرت بأنَّني عاريةٌ وسطهم، أصواتي التي تخرج منِّي رغْمًا عنِّي جعلتني عاريةً وسط خمسين شخصًا، أو ثمانين. عار، عارٌ كبيرٌ تفاقمه رائحتي.

نزحنا خمس مرَّاتٍ في أربعة أشهر، أنظر إلى ابنتي المريضة، إلى حروقي، إلى جروحي المنتنة، إلى ساقي الملتهبة، إلينَا ونحن نتكدَّس مثل أكوام لحم، وأظلُّ أبكِي وأدعو الله أن يرحمني ولا يتركني أعيش لليوم التالي، وأفكِّر في بلاغة ابني: أنا مش مبسوط. لا يزال في الخامسة، لكن شعره ابيضّ. طفلٌ برأسٍ شايب! طار مِن قوَّة الانفجار مثل واحدٍ من أبطاله الخارقين الذين يشاهدهم في قناة الكرتون، ثم حطَّ على سطح بنايةٍ مجاورة. وجدوه واقفًا بثباتٍ يردِّد: الدنيا حمرا، الدنيا حمرا! إلى اليوم ما زال يقول: الدنيا حمرا.

بقينا عشرة أيَّام في رفح. كان الغلاء فظيعًا، ليس معنا مالٌ أو بطاقاتٌ بنكيَّة، والكلُّ جائع. اجتمع في رفح ثلاثة أرباع أهل غزَّة. تمشين في الشوارع فلا ترين غير الجيَّاع، والمرضى، ومبتوري الأطراف، وأنصاف أجسادٍ تجول في كراسيِّها المتحرِّكة على غير هدًى. كابوس، مرضٌ خرافيّ، اختناقٌ عظيم بروائحنا، روائح إنتانات جروحنا التي انضافت إليهَا روائح الجثث المتحلِّلة

تحت الأنقاض. رائحة الموت والتفسُّخ في كلِّ مكان. يعيش أنصاف الموتى وأنصاف الأحياء معًا. نرى أجسادنا بأعيننا وهي تتحلَّل، نرى الديدان وهي تخرج من جروحنا. تلك الرائحة! الجثث، الإنتانات، النفايات المتراكمة المختلطة بِاللحم البشريّ.

من مجزرة العائلة نجا طفلان، رضيعةٌ عمرها سنةٌ ونصف السنة، وولدٌ عمره 14 سنة، يتيمان تركتهما أختا زوجي، صارا الآن ولدَيْن لنا.

لا أعرف أيَّهما أشدّ، الألمَ النفسيَّ أم الجسديّ، لكنِّي لاحظت أمرًا غريبًا: في كثيرٍ من الأحيان طغت آلام جسدي على آلام النفْس، كأنَّ جروحي المفتوحة ساعدتني على نسيان الحزن. الحزن، في مثل هذا الجحيم، ترفٌ لا يليق بنا. ثم أجدني لا أنام لأربعة أيَّام، صور المجزرة لا تفارقني، أرى أفراد العائلة مخنوقين تحت الركَام، أراهم بأجسادٍ سليمة. كذا يفعل صاروخ الشفط، شيء له علاقةٌ بضغط الهواء، تتمزَّق الأحشاء في الداخل، تتفتَّت، لكن من الخارج، يظلُّ الجسد سليمًا. أراهم جميعًا، هنا فِي رأسي، الأطفال والشباب والمسنِّين، كانوا طيِّبين جميلينِ محبِّين للحياة على الرَّغم من قسوتها، أراهم وتلك الرائحة لا تفارق أنفي. لم أقل شيئًا، كُلُّ الذي قلته ولم أقل شيئًا بعد، توجد تفاصيل كثيرة، تفاصيل بشعة، تفاصيل قاتلة، لكنِّي لا أقوى على سردها. حياتِي الماضية سأسمِّيها حياتي الأولى، استغرقت منِّي 40 عامًا لأؤسِّسها، والآن عليَّ أن أبدأ من الصفر، من تحت الصفر، لأؤسِّس حياتي الثانية التي أجهل كُلَّ شيءٍ عنها. أعرف فقط أنَّه عليَّ أن أستمرَّ من أجل أولادي.

شيماء ناجي

21 سنة

جباليا، الصفطاوي

منذ أن فتحتُ عينيَّ على الدنيا وأنا أشعر بكلِّ تلك الحروب التي تدور حولي في هذه المدينة، توقَّعت حدوث كلِّ هذه المآسي منذ طفولتي! ولكن هذه المرَّةُ ليست حربًا، عندما أسمعُ من يقول «الحربُ في غزَّة»، أشعرُ بالغضب والقهر.

كنَّا نعيش مثل الناس العاديِّين، كأيِّ عائلةٍ عاديَّة. أخي وأنا درسنا الهندسة البرمجيَّة، تخرَّجتُ بدرجةِ دبلوم وكنت من أوائلِ دفعتي. عملت ودرست في الوقت ذاته، تخصَّصت في تصميم المواقع الإلكترونيَّة. مكتبي كان بجانب مستشفى الشفاء! لقد كنت أصوِّر الطريق يوميًّا، لسببٍ ما كنت أتخيَّلُ أنَّ هذه الصورَ ستصبحُ

ذكرى. امتلكت إحساسًا بأنَّ كلَّ شيءٍ سيذهب، كنت أصوِّر بلا توقُّفٍ ـ ربَّما ـ كي أطرد تلك الخيالات السيِّئة من رأسي.

في السابعِ من أكتوبر، كنت أخطِّط للذهاب إلى الجامعة. أعيش في بناء العائلة حيث يسكن أعمامي مع أبنائهم وأحفادهم. كنتُ أصلِّي الفجر حين سمعتُ أصواتَ الصواريخ. في البداية، اعتقدت أنَّها مجرَّدُ أصواتِ رعدٍ يسبق المطر، فتحت النافذة فرأيت الصواريخ ملء السماء. بقينا في منزلنا ورفضنا الخروج، حتى بعد أن قصفوا منطقتنا، أعمامي خرجوا بعائلاتهم وعائلتي بقيت في الدار. كلُّ الأماكن في غزَّة خطرة، لا يوجد مكانٌ آمن، لذلك قرَّرنا أن نبقى في بيتنا ولا نخرج. لم نخف، اتَّكلنا على اللهِ وقلنا ليحدث ما يحدث. كان الأقرباء يتَّصلون بنا ويطلبون منَّا الخروج، وعلى الرَّغم من القصف الذي كان حولنا يوميًّا، أذكر أنِّي قلت لعمِّي: «أنا لن أخرج، سأموتُ في داري!».

في الثاني والعشرين من أكتوبر، جاءت جدَّتي لرؤية أبي، هي تسكن بعيدًا وكان أعمامي نازحين عندها. تحت القصف الشديد جاءت لرؤية ابنها! بكت جدَّتي وهي ترجوه أن يخرج، لكنَّه كان يضحك محاولًا تبسيط ما يجري. وجاءت عمَّتي أيضًا لتقنعه بالخروجِ إلى بيتها، كانت مقرَّبةً منه ولها دون غيرها كلمةٌ عليه. نحن عائلةٌ تحبُّ بعضها البعض. تناولنا الغداء تحت القصف المستمرّ. وفي النهاية اقتنع أبي بالخروج ـ خصوصًا ـ بعد سماعه بأنَّ عددًا كبيرًا من أصدقائه قد ماتوا، لكنَّه قال: «أنا سأخرج لوحدي وأنتو روحوا لدار سيدكم». لم نقبل، خرجنا على دفعاتٍ وذهبنا جميعًا معه.

بيت عمَّتي يطلُّ على شارعٍ عريض. في تلك الليلة وبينما كنَّا في الغرفة ساهرين، كنت أحاول إضحاكهم، ومن ثم خرجت إلى الشرفة أستنشق الهواء، لأتفاجأ بالزنَّانة أمامي، كانت تراقبنا. في البداية اعتقدت أنَّها صاروخٌ ينطلق من بعيدٍ وخطر لي أن أُصوِّره، لكنَّي انتبهت فجأةً أنَّها طائرةُ استطلاعٍ وكانت هي التي تصوِّرنا. عدت بسرعةٍ إلى الداخل منقبضةَ الصدر. وما لبث أن صدر عن الزنَّانة صوت طلقٍ ناريّ. عرفنا لاحقًا أنَّه لتحديد المكان، أبي كان مستهدفًا. هذه المسيَّرات، «الكوادكابتر» يمكنها أن تطلق النار أو أن تُفجِّرَ نفسها. وكأنَّه لم يكفنا قتَلَتهم الآدميُّون، فأحضروا لنا قتلةً آليِّين على شكل طائرات! رأينا الضوء الصادر عن المقذوف؛ صاح أحدهم أنَّ هذا فوسفور، لكنَّ الفوسفور لا يضيء، أنا أعرفه جيِّدًا، اعتدتُ عليه. في الماضي ضربونا كثيرًا بالفوسفور وبقنابل أُخرى لم أعد أذكر أسماءَها. حتى إنَّني أصبحت أخاف الموت بالسرطان لكثرة ما تنشَّقتُ الفوسفور في طفولتي، أذكر نوبات الاختناق جيِّدًا.

دخلنا إلى الصالون مرعوبين، أخذ أبي يصطنع المزاح معنا. أرى عينَيْه، أراقبُ هدوءَه المصطنع، لمحت قلقًا عميقًا في وجهه. أصوات القصف تعلو حولنا، كنَّا نتصرَّف وكأنَّ شيئًا لم يحدث. أنا حقًّا لا أعرف لماذا تجاهلنا حادثة الزنَّانة وقرَّرنا أن نبقى. كانت الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقةً بعد منتصف الليل، عندما طلب أبي منَّا أن ننام، وذهب بدوره إلى غرفةٍ أخرى. رأيته يُغلق الباب، كانت آخر مرَّة، لم أرَ أبي بعد ذلك.

كنَّا خائفين في أعماقنا وكان الكلُّ صامتًا. نمت فورًا،

اعتقدت أنَّنا نمنا جميعًا ـ ستقول لي أُختي لاحقًا إنَّها لم تستطع النوم ولذلك فقد رأت بعينَيْها كلَّ شيء ـ.

أفقتُ على بحرٍ من النار وأصوات انفجارات، لقد كنَّا في الطابق الثالث من بناءٍ مؤلَّفٍ من خمسة طوابق. كنَّا هناك وكانت الطوابق الخمسة تنهار، أحد عشر شخصًا ماتُوا على الفور، أبي كان بينهم.

كان البيت يحترق، أمواج اللهب تعلو وتنخفض، لم يستطع عقلي تفسير المشهد، وكأنَّني في حلم، شعرت برأسي ينفجر، لم أُدرك لوهلةٍ ما حلَّ بي، كلُّ هذا حصل في لحظات، لمحت يدًا تحاولُ أن تمسكني؛ وما إن لمستها حتى تدحرج الردم بي، تدحرجت مع الأحجار بينما الطابق العلويُّ ينزلُ ويتحوَّل إلى ردم وحُطام، كانت يدَ عمَّتي التي استشهدت لحظتها، أُفكِّرُ أنَّها لمستني قبل رحيلها، كانت تحاول إنقاذي أو ربَّما كانت تحاول التشبُّث بي، وبينما كنت أتدحرج مع الردم ارتطمت بالحجارة، ثم طرت في الهواء، قالوا إنَّني طرت مع الركام قرابة ثلاثينَ مترًا! لقد فقدت الوعي تمامًا في تلك اللحظة.

حين فتحت عينيّ، اعتقدتُ أنِّي ميتة، فقدت الوعي من جديد، لأجد نفسي تحت الركام، رأسي في الهواء وجسدي تحت الأنقاض. الدنيا ظلامٌ من حولي، وكنت بعيدةً عن الجميع. الناس تجمَّعت للمساعدة، وكنت أصرخ: «يا جماعة، لْحقوني!» أصرخ وأصرخ ليسمعوني، والناس تصرخ، الكلُّ يصرخ! شعرت بآلام فظيعةٍ في جسمي. فجأةً رأيت يدي تخرجُ من تحتِ الردم مغطَّاةً بالدماءِ والغبار. كانت أعضاءُ جسدي تتحرَّكُ منفردةً دونَ

إرادتي، سمعت صوت سيَّارات الإسعاف، الغبار يُغطّي كلَّ شيء، وكلُّ ما حولي أسود، لا أستطيع التنفُّس، جسمي كان أسود، غطّى السواد حتى عيوني، رأيت نساءً يخرجن من تحت الأنقاض، كُنَّ يشبهنَ الأموات الذين يخرجون من القبور. صرخت: «يا جماعة، أنا هون... أنا عايشة!». كانوا بعيدين ولا أحد يسمعني. رأيت أختي تحاول أن ترفع جسدها من تحت الأنقاض، فصرختُ: «رغد... رغد أختي، طالْعُوها». كنت أصرخ بكلِّ قوَّتي، حتى سمعوني وجاؤوا وأخرجونا، أنا وأختي.

رأيت الأجساد المحروقة متناثرةً حولي. رموا عليَّ بغطاء، رفضت! قلت لهم إنِّي أختنق. لقد أرادوا ستر جسدي، ولكنِّي صرختُ: «تركوني». أخيرًا سحبوني، وكان جسمي، ممتلئًا بالجروح والشظايا. حتى الآن، توجد شظايا في جسدي. الصّواريخُ تحتوي على مادَّةٍ تتحوَّلُ إلى نقاطٍ صغيرةٍ سوداءَ تتركُ آثارها على الجسد، مادَّةٌ غريبة لا أعرف ما هي، يقولون إنَّها مادَّةٌ سامَّة. كانت الأجساد منقَّطةً ومبقَّعة، وما زالت آثار هذه المادَّة في جسدي! بينما كانوا يخرجونني، رأيتهم يخرجونَ قطَّةً محترقةً بالكامل، كان لونها أسود مثل الفحم.

حملني ابن عمَّتي ووضعني في سيَّارة الإسعاف. الطرق كُلُّها مُحفَّرةٌ بسبب القصف، سيَّارة الإسعاف تترجرجُ في مشيها فوق الحفر، وكنتُ أرتجُّ معها وأصرخ من الألم، أصرخ من الخوف: «أريد أبي، أريد أمِّي وإخوتي»، كان الألم فظيعًا، أسناني تصطكُّ بسرعةٍ رهيبة، وركبتاي ترتجفان. المستشفى مليءٌ بالجرحى والمرافقين، النازحون ينامون في الممرَّات. أصرخ من الألم،

الجميع من حولي يصرخ من الألم، الأطبَّاء يتجوَّلون حولنا عاجزين، جميع المرضى يترجُّون الحصول على المسكِّنات، نقصٌ في الموادِّ الطبِّيَّة، لا يتوفَّر المزيد من البنج. المكان يفيض بالموتى أيضًا، أسمع الأطبَّاء يُشيرون قربي: «هذه ميِّتة، وتلك، احملوا هذه من هنا». لم أكن أستطيع تحريك رأسي لأرى الموتى الذين كان يُشار إليهم؛ لكنَّ مريضًا مقابلًا لي تمامًا خارج الباب، طلبَ الماء، كان ينتظر دوره في غسيل الكِلى كما فهمت، دوره الذي تأخَّرَ عنه لخمسة أيَّام بسبب انقطاع الكهرباء، جلبوا له كأسًا من الماء، وما إن بلَّلَ شفتَيْه حتى سقطَت الكأس من يده ومات. عرفت أنَّ هناك أيضًا نقصًا في الأكفان. نقلوني لسريرٍ آخرَ بعيدًا عن امرأةٍ كانت ميِّتةً قربي، لم أستطع الحركة، كنت أصرخ، آلامي وصلت السماء، في اليوم التالي جاء زوج خالتي وأخرجني من المستشفى، لم يكن من علاجٍ يُقدِّمونه لي، حملني وأختي ومعنا ابنة عمَّتي إلى بيت جدِّي لأمِّي، كانت إصاباتنا غير قاتلة، ولم يكن من معنًى لبقائنا هناك. زوج خالتي الذي أودعني بيتَ جدِّي، ودَّعني ثم ذهب؛ لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى مات!

بيت جدِّي في مشروع بيت لاهيا، أصواتُ القصف هناك لا تهدأ، غزَّة كلُّها بدأت تعيشُ على إيقاع الدمار، معالمُ المكان تتغيَّر بين ساعةٍ وأخرى، توقَّف السؤال عن الأموات، وبدأنا نسأل عن أحوالِ الباقين على قيد الحياة. وضعتني خالتي على كرسيٍّ وبدأت تنظِّفني، كان التراب والحصى يخرجُ من جسدي، الدم الأسودُ يسيل مع الماء من جروحي، شعري طويلٌ جدًّا، كان ينبت أشياءً غريبة، أسلاكٌ معدنيَّةٌ بدأت تخرج من شعري. نظرت إلى جسدي

للمرَّة الأولى بعد الانفجار؛ كان يحمل جروحًا لم أتخيَّلها. شهقت! في تلك اللحظة فقط، انتبهت أنِّي ما زلت أتنفَّس.

تفرَّقت عائلتُنا بين المستشفيات، أُمِّي بقيت في المستشفى الإندونيسيّ، ساقها مبتورةٌ والخطر يحيط بالساق الثانية، أُختي معها في المستشفى نفسه مصابةٌ بكسرٍ في الحوض، أختي الثالثة لديها كسرٌ في رجلها وإصابةٌ في عينها، كان عددُ الجرحى هناك أيضًا كبيرًا جدًّا ولا يُوجد ما يكفي من الأطبَّاء والموادِّ الطبِّيَّة، لذلك خيَّرنا الأطبَّاء في المستشفى بين علاج الرجل أو العين! كان عليها أن تُقرِّر أيَّ جزءٍ من جسدها يجبُ عليها أن تتخلَّى عنه كي تنجو بالجزء الآخر، لم يكن في المستشفى جبسٌ ولا صفائح بلاتين لوصل العظم، وبقيت رجلُها هكذا دون علاج، هي الآن لا تستطيع المشي جيِّدًا.

جثَّةُ أبي كانت في مستشفى كمال عدوان، أخفوا عنِّي خبرَ وفاته في البداية. وحين اتَّصل أخي الذي كان يرافقُ أمِّي في المستشفى ليطمئنَّ عليّ، سألته: أبوك استشهد؟ لكنَّه كان قد سبق سؤالي بسؤالٍ عن ثياب أخي صُهيب؛ أجبتُه: «نعم، كان لابس بيجامة زيتي». قال: «إذن، أخوك استشهد مع ابن عمَّتك ودفنَّاه»، تخيَّلتُ وجه صُهيب على الفور، لم يستطيعوا التعرُّف عليه إلَّا من ثيابه! ألهذا الحدِّ كان وجهه مشوَّهًا! أخي الصغير، حبيبي صهيب، قد احترق بالكامل! تفحَّم! كنت أختنق بالدموع وكرَّرتُ السؤال بصيغة التوسُّل: أبوك استشهد؟ أجاب: نعم، حينها غبت عن الوعي.

كنت يوميًّا تحت القصف وبين الأنقاض والدمار أذهب لزيارة

أمِّي في المستشفى الإندونيسيّ، كنتُ لا أزالُ أعرج على قدميَّ حينها، المكان تغيَّر بشكلٍ مرعب، كلُّ شيءٍ صار مختلفًا. أمِّي في حالة صدمةٍ بعد أن استعادت وعيها لتجد نفسها بلا ساق، لم تعد تستطيع المشي بعد الآن. في بعض الأحيان أنام على الأرض بجوار سرير أمِّي. أختي كانت في المستشفى نفسه، ولكن في قسمٍ آخر لعلاج الكسور. جروحي التأمت ببطء، لكنَّ الشظايا بقيت مغروسةً في جسدي، جرحي، رغم ألمه، كان لا شيء موازنةً بمعاناة الآخرين. أمشي لدقيقتَيْن وأقف، أتحرَّكُ ببطءٍ شديد، حتى الذهاب إلى الحمَّام كان عمليَّةً شاقَّة. ومع ذلك، قرَّرتُ أخيرًا ألَّا أعود إلى بيت جدِّي الذي أصبح مليئًا بالنازحين وأن أبقى في المستشفى بجوار أمِّي وأختي، قلت لنفسي: «نموت كلّنا معًا أو نعيش معًا». أحضرت أخواتي، أصبحنا كلّنا هناك قرب أمِّي. أنا وأختاي ننام على الأرض، بينما أمِّي وأختي المكسورُ حوضها تنامان على السرير. جدَّتي القويَّة، التي تجاوزت الستِّين، كانت تُحضِّرُ لنا ما يتوفَّر لها من طعام، تغسلُ ثيابنا وأخيرًا تغمُرنا بالدعوات.

بدأ حصارُ المستشفى الإندونيسيِّ في شهرِ نوفمبر. سمعنا أصواتَ الدبَّاباتِ على الأبواب، وأصبحَ الدخول والخروج ممنوعًا. بقينا خمسةَ أيَّامٍ محاصرين. رأيتُ أكوام الجثث ترتفعُ حول المستشفى، من أينَ يأتون بكلِّ هؤلاء الناس المقتولين! شاهدت القطط والكلاب تنهش الجثث، الذباب يحوم حول الموتى، اختنقنا برائحة الدم. عشت هذا الرعب لخمسة أيَّام، بلا ماءٍ ولا كهرباء. ثم قالوا إنَّ بإمكانِ المحاصَرينَ الخروج. اندفعَ

الناسُ للهرب، كانوا يتدافعونَ مثل يوم القيامة، يخرجون دون أن يلتفتَ أحدٌ لأحد.

خرج المرضى والنازحين جميعًا، في حين بقي في المستشفى مئةٌ وثمانون شخصًا فقط، بقي من لا يستطيع الخروج لسوءِ حالته الصحِّيَّة وكنتُ مع أمِّي وأخواتي من الباقين. لم أستطع التحرُّكَ بأمِّي وأخواتي الثلاث، أمِّي وإحدى أخواتي لا تستطيعان الحركة أبدًا. بقينا في الطابق الثاني من المستشفى، زجاجُ النوافذ مكسورٌ بسبب القصف، وحدها الستائر تفصلُنا عن الخارج، أيُّ شخصٍ يحاول أن يفتح الستارة يُطلقون عليه النار فورًا. كنَّا مسجونين داخل مساحةِ جلوسنا، صوت الانفجارات وتناثر الشظايا لم يتوقَّفا، أكوامُ الجثث حول المستشفى مستمرَّةٌ بالارتفاع. من شدَّةِ خوفي على أهلي، كنت أُخرج أمِّي وأخواتي إلى الممرَّاتِ للنوم. نفدَ الطعام، لم تبقَ سوى علبة شوكولاتة واحدةٍ نُطعمُها للأطفال لقمةً لقمة، هناك الكثيرُ من الأطفال الجائعين، نفد الماء أيضًا. رأيت الدود يخرج من ساقِ أمِّي المبتورة، رأيت عظامها الناتئة، حالتها تسوء أكثر فأكثر وكنت أمسك رجلها المبتورة وأحاول أن أنظِّف الجرح، بقينا ننام في الممرَّات، القصف حولنا لم يتوقَّف.

في العشرينِ من نوفمبر، قصفُوا الطابق الثالث. شاهدنا الأبراج حولنا تتمايل أمام أعُينِنا كما لو كان العالم ينهار. هربنا من الطابقِ الثاني، نزلنا مع المرضى إلى الطابقِ السفليّ، أحسستُ بالشظايا تشتعل داخل جسدي. كنَّا مرعوبين.

في الطابقِ السفليِّ وجدنا غرفةً كبيرةً لنختبئَ فيها من القصف. اعتقدتُ أنَّني سأُدفَنُ تحت الأنقاض هذه المرَّة. كانت

الغرفةُ ممتلئةً بالقمامة، فقرَّرنا تنظيفها، رُغم الرعب، قضينا نهارًا كاملًا ونحن ننظِّف، نجمعُ الأوساخ، لكنَّنا لم نستطع إخراجها، خفنا، فوهات الدبَّابات موجَّهةٌ نحو الأبواب، كانت الرائحة كريهةً ذلك اليوم بشكلٍ لن أنساه أبدًا بقيَّةَ حياتي. في ذلك اليوم أيضًا عثرنا على رغيفِ خبزٍ يابس، قسَّمناه على ستَّةِ أشخاص، كان هذا طعامنا ليومٍ كامل. ومن ثم انقطعت الكهرباء بعد أن قصفوا مولِّد الطاقة، فغرقنا في ظلامٍ دامس، ورحنا ـ دون نتيجة ـ نحاول تهدئة الأطفال.

بدأ صوتُ الدبَّاباتِ يرتفعُ تدريجيًّا، لقد اقتربوا من أبوابِ المستشفى، كانوا يجرفون الأنقاض والجثث في طريقهم، يُطلقون الرصاص، يقصفون، تأكَّدنا أنَّهم قادمون، سيدخلون المستشفى، سوف يقتلوننا. كانت تلك اللحظات تحملُ رعبًا لا يوصف، كنَّا نعيش بين الموت والحياة، نتعلَّقُ بالأمل بينما الواقع حولنا يتهاوى. الدبَّاباتُ تتقدَّم، ونحن مستعدُّونَ للموت. كنت متعبةً جدًّا، منهكة، أجهدُ كي لا تغمض عيناي، أتوقَّع في أيِّ لحظةٍ أن أرى فوهةَ مدفع الدبَّابة تدخل وتقصف. صوت الدبَّابات يعلو، وصوت التجريف يتردَّدُ في أذني، تخيَّلت الجثث وهي تنعجن مع الركام تحت جنازير الدبَّابات. غفوت قليلًا. كانت الساعة تشيرُ إلى الواحدةِ أو ربَّما الثانيةِ صباحًا عندما انفجرَ فجأةً صوتُ الرصاص، الطلقات أصابت السقف، ونحن نصرخ مذعورين، أُصيبت امرأةٌ بجانبنا. تحرَّكنا بسرعة، تجمَّعنا حولَ بعضنا. كان الجنود الإسرائيليُّون يدخلون ساحةَ المستشفى وهم يطلقون النار في كلِّ الاتِّجاهات، كانوا يزعقون علينا بأن نخرج للساحة، رجلٌ

كان يقفُ بجانبنا أخذَ يكرِّرُ بصوتٍ مرعوب: «نحن مرضى ونساء وأطفال! نحن مرضى ونساء وأطفال!».

سحبت سرير أمِّي نحو الساحة كما أمرنا الجنود الإسرائيليُّون، وجدنا أنفسنا محاطينَ بجثثٍ مكوَّمةٍ فوق بعضها البعض، كلابهم الضخمة تدور حولنا وتعوي، والرصاص يتناثر بين أقدامنا وفوق رؤوسنا، فوهاتُ الدبَّاباتِ موجَّهةٌ تمامًا علينا، الزنَّانات ترتفعُ ثم تنخفض. أُغمي عليّ، كنتُ أموتُ من الخوف، أيقظتني أمل، الفتاةُ التي بقيت معي طوالَ الوقتِ في المستشفى.

أحاط بنا الجنودُ الإسرائيليُّون، وقالوا بصوتٍ عال: «قفوا مكانكم، الحركةُ ممنوعة!». هذه المرَّةُ الأولى التي أرى فيها إسرائيليًّا وجهًا لوجه. ولدتُ في الحصار وعشت فيه، وكانت هذه أوَّل مرَّةٍ أراهم، صرخوا مجدَّدًا: «اجلسوا وارفعوا أيديكم ورؤوسكم!». طلبوا منَّا رفع رؤوسنا، ثم أدخلوا آليَّاتهم الطائرةَ القاتلةَ للتعرُّفِ علينا من بصمةِ العين، خشيتُ حقًّا أنَّ الكواد كابتر ستفجِّرُ رأسي عندما جعلوها تحلِّقُ أمامي مباشرة. أمروا الشباب بالوقوفِ إلى اليمين، أخطأ أحد الشبابِ بالحركة، فأطلقوا عليه النار فورًا، صرختُ لحظتها، كان الشابُّ ينزفُ بغزارةٍ حتى مات، منعوا عجوزًا ـ ربَّما كان أباه ـ من الاقترابِ منه. بعد فحص بصماتِ العينِ للجميع، طلبوا من أحد الأطفالِ الموجودين معنا أن يذهب ويكسر كلَّ كاميرات المراقبة، فعل ما طلبوه تحت تهديد السلاح، كان مجرَّد طفلٍ صغير! ومن ثم اقتحموا البناء، دخلوا إلى كلِّ الأقسام. وبدأوا يبحثون عن أشخاصٍ لا نعرفهم، أخذوا بعض المرضى وراحوا يضربونهم، كانت جراح هؤلاء

الجرحى تتفتَّقُ أمامنا من الضرب. بعد ذلك، أخذوا الشباب المتبقِّين، أخرجوهم إلى الساحة، وهناك عرُّوهم، كنَّا نسمعُ أصوات التعذيب. أطلقوا النار على امرأتَيْن جريحتَيْن مستلقيتَيْن على الأسرَّة، رأيتهم بعينيَّ يُطلقون النار، امرأةٌ منهم ماتت فورًا.

بعد أن أخرجوا جميع الشباب إلى الساحة، جاء دور النساء. أخرجونا امرأةً تلو الأخرى، وأعادوا التحقُّق من هُويَّتِنا، كانت الطائرات الزنَّانةُ تفحصنا واحدةً واحدة. خِفتُ أن يؤذونا. طلبوا منَّا أن نقرفص ورؤوسنا للأسفل، تيبَّسنا في تلك الوضعيَّةِ لساعتَيْن. ثم كان صوت انفجارٍ كبيرٍ ولم نعرف ما يحدث. كنَّا ننظرُ إلى بعضنا ونتأكَّد أنَّنا ما زلنا على قيدِ الحياة. أدخلونا بناء المستشفى من جديدٍ وبدأوا يفتِّشون حقائبنا، أخذوا كلَّ الوثائقِ وأشياءَ كثيرة. بقينا في الغرفةِ المطلَّةِ على الشارع، كانت الساعة الرابعة فجرًا عندما خرج الجنود الإسرائيليُّون من مبنى المستشفى الإندونيسيِّ ولم نعرف أين ذهبوا. في اليوم التالي عندما استيقظنا، لم يكن من صوتٍ للقصفِ أو تواجدٍ لأيِّ جنديٍّ إسرائيليّ. كأنَّنا في عالمٍ آخر، لم نفهم هذا الصمت، ثم اكتشفنا أنَّ هناك هُدنة. وعندما فُتح باب المستشفى، رأيت الضوء، لصدفةٍ ما نجونا، قلتُ لنفسي.

خارج المستشفى رأيت بعينيَّ الذي لم أتخيَّل يومًا بحياتي أنَّني سأراه وما لن ينمحي من ذاكرتي حتى أموت؛ رأيت الجثثَ متراكمةً مكوَّمةً فوق بعضها البعض، أشلاء اللحم البشريِّ مبعثرةً في كلِّ مكان. السيَّاراتُ مقلوبةٌ ومحترقة، والعماراتُ والبيوتُ مهدَّمة، الدمار في كلِّ مكان، كانت الأرض مزروعةً بالجثث،

الأعضاء البشريَّة تنبت على أطراف الطريق وفي كلِّ زاويةٍ على مرمى البصر، رأيت الناس تقلِّب الجثث بحثًا عن أبنائها، وكان أهلي معهم يبحثون عنَّا بين الشهداء. كان خروجنا أحياءً معجزةً بالنسبة إليهم! هل أنا حزينة؟ لا أعرف! ماذا يعني الحزنُ أمامَ كلِّ ما قلته! ماذا يعني أمام كلِّ ما رأيته ولا أستطيع أن أقوله! كلُّ شيءٍ أصبحَ متشابهًا وبلا معنى.

أخذُونا إلى مستشفى كمال عدوان، بقينا فيه ثلاث ليال، لم نجد هناك أَسِرَّة، لذلك نمنا على الأرض، لم يكن هناك أطبَّاء، ولا ممرِّضين، ولا شيء، كنَّا جرحى ونازحينَ فوقَ بعضنا البعض، كان مستشفى بالاسم فقط. وخرجتُ لأعاينَ ما حصلَ في بيتِنا وبيتِ جدِّي، كنتُ لا أزالُ أعرج. لم أجد شيئًا، دار جدِّي اختفت! لم تكن موجودةً وبيتنا لم يكن موجودًا، لم يكن هناك من أبنية، لقد دمَّروا كلَّ شيء. اختفت حياتي وطفولتي، سُوِّيت المباني كلُّها بالأرض. لم أتعرَّف على المكان!

نجونا ثانيةً من المجزرةِ التي وقعت في مستشفى كمال عدوان حينَ أحرقَ الإسرائيليُّون خيام النازحين في المستشفى. صدفةً لم نكن هناك ساعتها. بأعجوبةٍ كُنَّا ننجو من المجازر في طريقنا نحو الجنوب، نهربُ من القصف إلى القصف، وفي النهاية تشتَّتنا، كلُّ واحدةٍ منَّا في مستشفى مُختلف، أمِّي وُضعت في مدرسةٍ للنازحين في مَواصي خان يونس، كانت رجلُها الثانية على وشك البتر أيضًا وبدأت تفقدُ سمعَها شيئًا فشيئًا، في النهاية استطعنا أن نجتمعَ من جديدٍ في رفح. التقينا في مُخيَّم رفح، لكنَّ ذلك كان جحيمًا آخرَ لن أرويه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

محمَّد حمدان

65 سنة

خان يونس

استيقظتُ صباح يوم السبت، السابع من أكتوبر، الساعة السادسة والنصف، لأفاجأ ببناتي يدخلن منزلي في خان يونس، نازحاتٍ من جميع أنحاء غزَّة. لم أكن أعرف حينها ما الذي يجري؛ عرفتُ بالأحداث عند استيقاظي. أنا أعيش في مبنى من أربعة طوابق، يجمعني مع إخوتي وأولادهم، حيث اجتمعت كلُّ العائلة. في ظلِّ الحرب، تجمَّع الأولاد جميعًا عندي، ولم نكن نصدِّق ما يحدث، بقيت في ذهول! من يتخيَّل هذا؟ حينها قلت لن أغادر منزلي، وهكذا بقي الجميع عندي لمدَّة شهرٍ ونصف الشهر، رغم شدَّة القصف.

مع اشتداد الوضع، قرَّر الأولاد أنَّه يجب أن نغادر إلى مدينة حمد، حيث الأبراج التي نعتقد أنَّها بعيدةٌ عن القصف. أنا كبير العائلة، وقد كنت سابقًا أعمل سبَّاكًا، لكنَّني كنت أضمن لعائلتي كلَّ شيء، أحاول تدبير أمور المنزل، وأرعاهم جميعًا. لديَّ شقَّتان خصَّصتهما لبناتي، وانتقلنا جميعًا هناك. أنا المسؤول عن حياة عائلتي، أجمع أولادي وأحفادي ليلًا وأسألهم عن احتياجاتهم، وأُدوِّن ما يريدونه لأضمن ألَّا ينقصهم شيء، لكنَّ الحرب تصاعدت، وقبل الاجتياح البرِّيّ، بدأوا يقصفون الأبراج في حمد في شهر تشرين الثاني، دمَّروا واجهات الأبنية وأصبحت الشوارع خرابًا. ظننَّا أنَّ المكان آمن، لكن مع القصف، نزحنا مع الناس، لم يتركوا مكانًا إلَّا وقصفوه! بيتي قُصف من قبل، وقبلها فقدنا زوج ابنتي من عائلة أبو جلالة، كما أُصيب ابني، ودفنَّاه في تلك الأيَّام الصعبة. عاشت ابنتي معي في شقَّةٍ في حمد، كنَّا ستَّ عائلاتٍ مع الأولاد وأنا وزوجتي، الجميع ملتفِّين حولي، وقلت لنفسي يجب أن أظلَّ قويًّا أمامهم، لكن مع اشتداد القصف على منطقة أبراج حمد وازدياد الوضع خطورة، وافقت أخيرًا على قرار العائلة بأن نغادر، والتحقت بنا أختي، فصرنا سبع عائلاتٍ مع الأطفال. لم يكن لدينا مكانٌ آخر نذهب إليه، وكلُّ الأماكن تتعرَّض للقصف، وأين يمكنني أن أنصب خيمة؟ قرَّرنا الانتقال إلى بيت أختي قرب الهلال الأحمر، حيث مبنى من أربعة طوابق يجمع أربع عائلات، وانتقلنا جميعًا إلى شقَّةٍ صغيرة، كنَّا قرابة 35 شخصًا. كان اتِّخاذ القرار صعبًا، لكنَّنا اتَّفقنا على البقاء معًا، نموت معًا أو نحيا معًا، فلم أستطع تركهم، وجودي في الحياة

هو لخدمتهم ورعايتهم. لم أكن أرغب في النزوح مرَّةً أخرى، لكنَّ القدر شاء أن أفقدهم جميعًا يوم 7 ديسمبر.

أتذكَّر أنَّه قبل وفاتهم، اشتريت لهم كمِّيَّاتٍ كبيرةً من الطعام لأنَّ هناك الكثير من الأطفال، كما كانت المياه مقطوعةً ولا توجد كهرباء. في يوم وفاتهم، حملتُ حفيدتي، تبلغ شهرَيْن من العمر، لاعبتُها، وسألت الجميع إن كانوا يحتاجون شيئًا للطهي، فأجابوا أنَّهم بحاجةٍ للماء. كان عليَّ أن أخرج تحت القصف لجلب الماء، فاخترت خمسةً من أحفادي، وحملنا الأوعية والقناني. انتظرت حتى لم أعدْ أسمع صوت الطائرات، وقلت للأطفال سنخرج بسرعةٍ ونعود، وخرجت بهم. كان مبنى الهلال الأحمر قريبًا منَّا، وقلت للأطفال لنذهب مشوارًا سريعًا، نُحضر الماء ونعود. أنهينا أوَّل نقلة ماءٍ وعدنا لنأتي بدفعةٍ ثانية، وكان المبنى مكتظًّا بالناس، تجمَّعوا هناك ظنًّا منهم أنَّ هذه المنطقة لن تُقصف. ونحن نملأ المياه للمرَّة الثانية، دوَّى صوت انفجارٍ هائل! شعرت حينها بشيء، قلبي أخبرني أنَّ مكروهًا قد وقع، وقلت: «اللَّهمَّ عوِّض عليّ!». كان معي خمسة أطفال، ولم أكن أستطيع تركهم في فوضى القصف، والناس يتراكضون كأنَّه يوم الحشر، والأطفال يصرخون! كان المبنى الذي قصفوه يفصله عن مبنى الهلال الأحمر شارعٌ واحد فقط! تركت الأطفال مع صديقٍ وركضت نحو المبنى، وبينما أركض، رأيت جثَّة ابني عمر محمَّد حمدان، ورأيت ابنته جميلة، التي لم تكمل شهرَيْن من عمرها، كما رأيت ثلاث جثث، بينهم كانت زوجته. وقفت مذهولًا، أنظر إليهم بينما يخرجونهم من تحت الأنقاض، وجوههم كانت

مضيئة، أراهم للمرَّة الأخيرة دون أن أصدِّق!

في النصف الساعة الأولى، انهرت تمامًا، لكن كان يجب أن أتماسك، وألحق بالمسعفين وهم يُخرجون الجثث واحدةً تلو الأخرى، لأتأكَّد من مات ومن جُرح ومن بقي حيًّا، فكان عليَّ أن أعرف أين كلُّ فردٍ من أفراد عائلتي. كان الدمار هائلًا وفقدت الأمل، وقلت في نفسي: «اثبت يا رجل! الحمد لله». بعد مرور تلك النصف ساعة، شعرت أنَّ رأسي بدأ يذوب مثل السائل؛ لقد مات ثلاثون فردًا من عائلتي وحدها، هناك ضحايا آخرون لم أعد أستطيع إحصاءهم.

بقيت مع المسعفين أدلُّهم على أماكن العالقين تحت الأنقاض وأقول لهم: «بقي فلان، وبقيت فلانة، اسحبوهم، ابحثوا عنهم تحت الأنقاض». لقد تركتهم يحضِّرون الطعام، بينما أحضر لهم الماء ليشربوا، ولكنَّهم اختفوا! بقينا ثلاثة أيَّام نُخرج الجثث، وبعد العصر ندفنهم. بقي ابن ابني على قيد الحياة، وجدته بعد 15 يومًا في العناية المركَّزة؛ اسمه محمَّد علي أحمد حمدان. كان مدرجًا تحت اسم «مجهول»، بسبب إصاباته الشديدة التي شوَّهت ملامحه، وكان لا يرى في البداية، ووجدناه بالصدفة! كنت أبحث عن جثَّة ابني الأكبر، وطلبوا منَّا تفقُّد العناية المركَّزة، إذ أحيانًا يجري نقل الجثث والمصابين دون التعرُّف عليهم. حينها ظننت أنَّني سأجد ابني، لكنِّي وجدت حفيدي، الناجي الوحيد من عائلتي، وابن ابني الذي تعرَّف عليه لاحقًا. والدته ماتت أيضًا، فبقيت إلى جانبه؛ كانت معجزة أنَّنا وجدناه! وحمدت ربِّي لأنَّني وجدته. قالوا لنا إنَّه ميؤوسٌ من حالته، وأنَّه

لا يعطي إشاراتٍ للحياة، لكنَّه عندما سمع صوتي بكى، وقلت حينها لن أتركه ما حييت. وقف أصدقاء أولادي إلى جانبي، لم يتركوني وحيدًا. ما زلت أذكر ذلك اليوم حين قصفوا المربَّع بأكمله؛ الحديد انصهر، والأحجار اختلطت بالتراب. شعرت بالراحة قليلًا عندما استطعت انتشال جثث عائلتي كاملة الأعضاء، ما عدا ابن أختي الصغير، الذي كان ممزَّقًا، ودفنتهم بيدي. الحمد لله، كانوا كاملين! في غزَّة، من المهمِّ لنا أن نعرف أين دُفن موتانا وأن نعثر على أجسادهم، فهناك عائلاتٌ كاملة اختفت من السجلَّات ولم يعد لها وجود! شعرت بالراحة لأنَّني استطعت دفنهم بكرامة، فقد خشيت على جثث أولادي وأحفادي؛ حيث كان الإسرائيليُّون يدخلون المقابر ويأخذون الجثث[1]، لذا كان يجب أن أتأكَّد من أنَّ موتاي في أمان، ولذا نقلت جميع جثثهم إلى مقبرة العائلة.

إنَّهم يعيشون هنا في رأسي، لا يغادرونني لحظةً واحدة! البعض ظنَّ أنَّني سأنتحر، لكنِّي مؤمنٌ بالله وصابر. لقد فقدت حياتي بأكملها في نهاية عمري، فأنا رجلٌ مُسنّ، وذهب أولادي الشباب جميعهم. الآن، أنا مع حفيدي الوحيد الناجي من تلك المجزرة، والذي يُعاني من كسرٍ في جمجمته، أرعاه، وأتمنَّى أن يعيش ليعرف ما جرى لعائلته. جسمه الصغير مليءٌ بالشظايا،

(1) أثار المرصد الأورومتوسّطي شبهات سرقة أعضاء من جثث قتلى، بينها ملاحظاتٌ أدلى بها أطبَّاء في غزَّة أجروا فحصًا سريعًا لبعض الجثث بعد الإفراج عنها ولاحظوا فقد أعضاء مثل قرنيَّة العين وقوقعة الأذن، وأعضاء حيويَّةٍ أخرى مثل الكبد والكلى والقلب. وقد تكرّرت في الشهادات الإشارة لهذه الظاهرة.

وأقدامه مكسورة، وكلُّ جسمه مليء بالبلاتين في الداخل، ما زال يحتاج للعمليَّات. أريد أن أهتمَّ به وأمنحه فرصة الحياة. أتذكَّر يوم الانفجار، وهم يُخرجون عائلتي جثّةٌ تلو الأخرى، لم أكن أرى أمامي! كان الجيران يرونني، لكنَّني لا أميِّزهم، قضيت تلك الليلة جالسًا إلى جانب الجثث قبل دفنها. ومنذ ذلك اليوم وفي كلِّ نهارٍ أخرج في الشارع أمشي دون هدف، ولا أرى شيئًا أمامي، ولا أستطيع النوم، حتى المنوِّمات لا تنجح معي.

أرجو أن تذكري أسماءهم، أرجوك اذكريها ولا تنسي، اذكري بعضهم على الأقلّ:

- زوجتي: جميلة محمود حمدان
- ابنتي: دعاء حمدان
- وفاء وأولادها: إسماعيل وعلا وغنى
- صفاء حمدان وابنتاها: مريم وليال أبو جلالة
- أختي فدوى محمَّد حمدان وابنتها أماني أبو جلالة وابنها أحمد أبو جلالة
- ابني محمود حمدان
- ابني عمر حمدان وزوجته آلاء زرقوط.

هاجرُ أبو سمعان

30 سنة

حيُّ الصبرة وسط غَزَّة

صباح السابع من أكتوبر كنت مستيقظةً أجهِّز أولادي للمدرسة: سلوى عمرها 11 سنة، سارة 10 سنين، وناصر في السادسة. فوجئنا حين سماع صوت الصواريخ ذلك الصباح.

نحن أساسًا نعيش في سجنٍ في غزَّة، ومعرَّضون دائمًا للقصف والحروب. استمرَّ القصف الأوَّليُّ علينا ثلاثة أسابيع، ولم نترك البيت. كنَّا نظنُّ أنَّهم لن يقصفونا، فنحن مدنيُّون، والإسرائيليُّون يعرفون ذلك، لكنَّهم قصفوا الجميع. المبنى الذي نسكن فيه مكوَّنٌ من ثلاثة طوابق، وهو ملكٌ لأهل زوجي، وكان فيه أيضًا أقرباء نزحوا إلينا. في ذلك الوقت كان فيه أربعون

شخصًا، أي حين بدأ الحزام الناريّ؛ عشرات الصواريخ نزلت دفعةً واحدة، وأصوات الانفجارات كانت رهيبةً كأنَّ الأرض تنشقّ. ربَّما دامت الموجة الواحدة ربع ساعةٍ تظلُّ فيها الصواريخ تنزل بالعشرات دون انقطاع. كنَّا خائفين حتى الموت، بل ننتظر الموت في كلِّ لحظةٍ ونظلُّ نردِّدُ الشهادتَيْن. النتيجة معروفة، فمجزرة الجلاء التي راح ضحيَّتها مئتا شخصٍ كانت قريبةً منَّا، كنَّا نسمع صوت الانفجارات فيها. مجزرة المعمدانيِّ الأمر نفسه. كنَّا محاطين بالمجازر، وفي انتظار دورنا كنت أجمع أولاد البناية محاولةً تخفيف الرعب عنهم، أقرأ لهم القرآن، ونرسم ونلوِّن معًا. كنَّا نرسم وسط المجازر والدمار. ابني ناصر بات لا يخرج من تحت الكنبة، يحشر نفسه أسفلها، واضعًا رأسه بين يدَيْه، جسمه المشدود دائم الارتعاش، وأحيانًا يثنيه كما لو أنَّه دائرةٌ تريد أن تختفي. منظره هكذا سبَّب لي مزيجًا من الخوف والشفقة. وكنت أقول له: تعال لحضني، أنت في حضني بأمان. فيسرع إليَّ ويتكوَّر في حضني دافنًا رأسه في صدري. كانت أيَّامًا صعبة، وزاد القصف ومعه زاد خوف الأولاد وصياحهم. صوت الزنَّانة بذاته مخيف، يخيفُنا فيه أنَّها قد تدخل علينا، فقد دخلت بعض البيوت! وصار من العادة أن أنام مع أولادي في غرفةٍ واحدة، في الصالون غالبًا، ظنًّا منَّا أنَّه أكثر أمنًا: ناصر في حضني، وسلوى وسارة متكوِّرتان عليّ، زوجي ينام في غرفةٍ أخرى. تلك كانت حالنا في الليلة التي قصف فيها مبنانا. ضربُوا صاروخَيْن. مبنانا من ثلاثة طوابق، أسكن في الطابق الأوَّل / فوق الأرضيّ. طارت الشبابيك، تخلَّعت الأبواب، والطابقان

اللذان فوقنا تهدَّما. سقف الصالون الذي ننام فيه تهدَّم أيضًا، نزل علينا حاملًا معه جُثَثَ ستَّة أفرادٍ من أقارب زوجي كانوا ينامون في الصالون فوقنا تمامًا، أخبروني ذلك لاحقًا.

حدث القصف ليلة الثاني من نوفمبر. استيقظت مثل مَنْ كانت في نومٍ عميقٍ لأجد نفسي في المستشفى برِجلٍ واحدة. أخبرني زوجي أنَّ رجلي قطعت فورًا بسبب القصف، وأنَّهم دفنوها مع جثث من قُتلوا بالغارة وأشلائهم. جثث أقربائنا كانت أشلاء، مفتَّتة. والأشلاء كانت مختلطةً ببعضها، معجونةً بالركام، ومبعثرةً في كلِّ مكان. لم يعرفوا كلَّ جزءٍ منها لمن يعود. وجدوا رأسَ طفلٍ على سطح دارٍ مجاورة. قتل مَنْ قُتِلَ، وأُصِيبَ البقيَّة.

زوجي قال إنَّ الضربة اخترقت الطابقَيْن العلويَّيْن صانعةً فتحةً في سقف الصالون تسبَّبت ببتر رجلي. اخترت الصالون ننام فيه ظانَّةً أنَّه آمن. قال زوجي إنَّه فور القصف رأى رأس ابننا ناصر بين الركام وظنَّ أنَّه ميِّت، ثم تبيَّن له أنَّه أصيب بجراحٍ عميقة في رأسه وبطنه ورجله. حمله وركض بحثًا عن سيَّارة. كان لدى جميع سكَّان الحيِّ مصابهُم الذي ينشغلون به، لكنَّ ذلك لم يمنعهم من مساعدة بعضهم بعضًا. أخذ جيرانٌ لنا ابني بسيَّارتهم وعاد زوجي للبحث عنِّي. كنت مدفونةً تحت الردم، الجروح في كلِّ مكانٍ في جسدي، والدماء تُغطِّيني، ورجلي مقطوعة. ظنَّني ميتة، لكنَّ ابنتي سلوى قالت له إنَّها سمعت أنيني. أصيبت سلوى بالحروق، لكنَّها بقيت واعيةً أثناء القصف وبعده ورأت كلَّ شيء، أمَّا سارة فقد أكل الصاروخ من لحمها وسبَّب لها جراحًا مشوّهةً في كلِّ جسمها.

في البداية ظنُّوا ناصرًا ميِّتًا، لذا وضعوه، فور أن أوصله جيراننا إلى المستشفى، بجانب جثث الأطفال الذين قضوا في المجازر. وضعهُ الممرِّضون مع الأطفال المجهولين إذ لم يعرفوا اسمه ولا ابن مَنْ يكون. الأعداد كبيرةٌ والحالةُ فوضى. ثم لمَّا أتى زوجي لم يجده. الزحام خانق، الناس تائهون، والجثث ملقاةٌ على الأرض، وكلُّ واحدٍ يبحثُ عن جثثِ أهلهِ وأقربائه، وزوجي لا يجد جثَّةَ ناصر. ضاع ابني! ظنُّوا أنَّه ميِّتٌ فوضعوه مع جثث بقيَّة الأطفال، وحينَ أتت ساعة الدفن اكتشفوا أنَّه حيٌّ فأسرعوا به إلى غرفة العمليَّات. أجروا له عمليَّةً في رأسهِ واستأصلوا طحالهُ وبتروا رجلَهُ من الكعب. بعد أنْ صحا من عمليَّتهِ سمع بأنَّهم يقولون عنه إنَّه طفلٌ ضائعٌ مجهول الاسم، قال لهم إنَّه ليس ضائعًا وإنَّ لديه اسمًا وعائلة. صار يصرخ: «أنا مشْ ضايع، عندي عيلة، اسمي ناصر أبو سمعان». لم يلتفت له أحدٌ. كان ذلك اليوم مثل يوم الحشر، قتلى، مصابون، الباحثون عن أقاربهم بين الجثث وقوائم الجرحى، فوضى، صراخٌ وعويلٌ في كلِّ مكان، كيف لأحدٍ أن يسمع أحدًا؟ لم يسمعهُ أحد، وناصر يظلُّ يصيح: «أنا مش ضايع، عندي أهل، أنا ناصر أبو سمعان»، ظلَّ زوجي يبحثُ عن ابننا بين الشهداء، وفي كلِّ قسمٍ من أقسام المستشفى، حتى عثر عليه أخيرًا بعد يومَيْن. في تلك الفترة كنت ممدَّدةً على سريري في المستشفى مثلَ جثَّة، لا أستطيع تحريكَ عضوٍ من جسمي، ولا حتى رأسي، لا أرى غير السقف، ولم أكن عرفت بعد أنَّ رجلي قطعت. في الحقيقة لا أذكر الآن اللحظة التي عرفت فيها أنَّني فقدتُ رجلي، مرَّ كلُّ شيءٍ بشكلٍ سريعٍ وغريبٍ في مستشفى ظلَّ أطبَّاؤُه يعملون

ليل نهار، وكلُّ الجرحى حولي ذوو إصاباتٍ خطرةٍ ويحتاجون لعمليَّاتٍ جراحيَّةٍ لا تنتهي.

حين جاء زوجي وأخبرني أنَّه عثر على ناصر حمدتُ الله، بعدها جاؤوني به. لاحظت أنَّه ارتاح حين رآني، ابتسم، ابتسمت، لم يستطع أن يركض نحوي، لم أستطع أن أركض نحوه، بل لم يستطع أحدُنا أنْ يضمَّ الآخر، اكتفينا بتبادل النظرات والتبسُّم.

بعد أسبوعٍ حوصر المستشفى. فكَّر زوجي أن ينقلنا إلى المستشفى المعمدانيّ، كان المعمدانيُّ عاد للعملِ بعد المجزرة. كيف سأنتقل؟ كنت عاجزةً عن الحركة، حتى تحريك أصابعي. جسمي كلُّهُ يؤلمني، التنفُّس يؤلمني، آلامٌ شَديدةٌ لا تُوصف، وبساقٍ واحدة. قلت له: إذا تحرَّكتُ سأموت! عبثًا حاول أن يُقنعني. كلُّ ما كنت أُفَكِّرُ فيه هو أطفالي، أردت أن ينجوا ويعيشوا. أقنعتُهُ أن يأخذ الأولاد إلى المعمدانيّ، أمَّا أنا فسأبقى هنا في الشِّفاءِ وسيعتني بي أخي. كنت في مستشفى الشفاءِ حين حوصر بعد أسبوعٍ من إدخالي إليه، ثم اقتحمه الإسرائيليُّون. قتلوا كثيرين. ظلَّ أخي يخرج ويدخل ويخبرني بما يراه. أطلقوا النار على الجميع، انتشرت الجثث في كلِّ مكان، وبقيت مرميَّةً على الأرضِ تنهشها الكلاب والقطط، ونحن على أسرَّتِنا داخل الأقسام نسمع ما يحدث في الخارج من قصصٍ مرعبةٍ معتقدين أنَّنا ننتظر المصير نفسه. لم يتخلَّ عنَّا الأطبَّاء والممرِّضون، كانوا مُتفانين إلى أبعد حدّ. قالوا لنا: نحن أقسمنا القسم الطبِّيّ، لا نترك جرحانا، سنظلُّ معكم، نعيش معًا أو نموت معًا. كانت

الجروح في كلِّ شبرٍ من جسمي، بعضها طويلٌ وعميق، ولا بدَّ من تغيير الضِّمادات كيلا تتفاقم إنتانات الجروح ويأكلني الدود وأنا حيَّة. المشكلة أنَّه لم تتوفَّر الأدوية المخدِّرة والمهدِّئة، وكان تغيير الضِّماداتِ مؤلمًا إلى أقصى درجة. كنت أصرخ طالبةً من الممرِّض أن يقتلني، لا أستطيع تحمُّل الوجع، لا أريد أن أعيش. وكان الممرِّض، وغيره من الممرِّضين والأطبَّاء، يعاملونني بهدوءٍ ورحمةٍ طالبين منِّي الصبر والتحمُّل. لم أتوقَّف عن البكاء، حقًّا، لم أكن أتوقَّف عن البكاء. أشعر أنَّ سكاكين تقطِّع لحمي، أموت ألف مرَّةٍ وأعود إلى الحياة، كُلُّ ثانيةٍ هي في الوقت نفسه موتٌ وعودةٌ إلى الحياة.

عانَينا كثيرًا من نقص الماء والطعام. شربنا «المياه المالحة» من المواسير، وبعد فترةٍ لم نكد نحظى حتى بتلك المياه، فأخذ بعض الشباب يغامرون بحياتهم ليخرجوا ثم يعودوا لنا بالقليل من الماء. جُعنا، جاعَ الجميع، سمعتُ بكاء الأطفال من الجوع، هذا كلُّه ونحن تحت القصف وجنود الاحتلال قد يقتحمون غرفنا في أيِّ لحظة. وأنا أعاني، وأسمع، وعاجزةٌ عن الحركة أو فعل أيِّ شيء. قصفوا مبنى الولادة في المستشفى، وسمعنا قصصًا رهيبةً عمَّا جرى هناك، لا أستطيع أن أروي كُلَّ الذي سمعت، لا أقدر. قصفوا قسم الخدَّج، كان به ما بين عشرين أو ثلاثين خديجًا، لا أذكر الرقم بدقَّة. مات بعضهم واحدًا تلو الآخر، ثم أخرجوا البقيَّة، هكذا سمعت. من أخرجهم؟ إلى أين أخذوهم؟ هل يعرفون أسماءهم وعائلاتهم؟ ما الذي حلَّ بهم؟ ما الذي حلَّ بأمَّهاتهم؟ كنت على سريري أسمع هذه القصص وأفكِّر بحال

الأُمَّهاتِ وأتألَّم. القصف مستمرّ، الاتِّصالات مقطوعة، المصابون والجثث في كُلِّ مكان، ولا أستطيع الاطمئنان على زوجي وأولادي ومعرفة أخبارهم. ظلَّ أخي معي. كان يعتني بي ويخاطر ليأتي ببعض الماء والمعلَّبات، جعلني هذا في خوفٍ دائم عليه. كان عندنا بعض التمر، ربَّما أكلت تمرةً في اليومِ أو تمرتَيْن.

قبل انتهاء الحصار بأربعةِ أيَّامٍ صدر أمرٌ بخروج الجميع من المستشفى من أطبَّاءَ وممرِّضينَ ومرضى. يبقى فقط من هم في حالاتٍ حرجةٍ أو ممدَّدون، أمَّا كُلُّ من يستطيع الحركة ولو على عُكَّازٍ أو كرسيٍّ متحرِّكٍ فعليه الخروج عبر الممرِّ الآمن. هكذا سمَّوه! ممرٌّ آمن! هو شارع، نسيت اسمَهُ والله، خرج إليه الجميع ومشوا فيه. بقيت بسبب وضعي مع من بقي من أصحاب الإصابات الخطرة، وبقي معنا خمسة أطبَّاءً وأربعة ممرِّضين، ونزلنا جميعًا إلى الطابق السفليّ. رأيت جرحى متروكين، تركهم أهلهم وخرجوا. أذكر رجلًا تركه ابنه وحيدًا، أصيبت جروحه بالتعفُّن حتى صار الدود يخرج منها، والرجل صامتٌ لا يتفوَّه بشيء. في تلك الأيَّام كان أخي هو من يُغيِّر لي الضمَّادات، تعلَّم من مراقبته الممرِّضين.

انتظرنا القصف، توقَّعنا ذلك، انتظرنا الموت في كلِّ لحظة، ولم نتخيَّل أن يقتحموا المبنى. لكنَّهم اقتحموه! حدث ذلك بعد أربعة أيَّامٍ من الإخلاء. دخلوا المستشفى، أخذوا الأطبَّاء وعرَّوهم من ملابسهم، ضربوا الممرِّضين، اعتقلوا الشباب أو قتلوهم، وقد أشعرني هذا بخوفٍ شديدٍ على أخي. ثم نادوا في المذياع أنَّهم يريدون تفتيش المرضى، فجمعونا، وجاء جنودٌ

مدجَّجون بالسلاح عرُّوا كلَّ الذكور وفتَّشونا.

عشيَّة الهدنة أخرجَنا الإسرائيليُّون من المستشفى. كلُّ الذي حدث معي حتى ذلك الحين في كفَّة، وما حدث بعده في كفَّة. كدَّسونا في سيَّارةٍ واحدة، أنا ومعي أربعة جرحى آخرون، طفلان وبالغان. ظلَّت السيَّارة تهتزُّ بنا على طول الطريق، وجسمي ملتصقٌ مباشرةً بحديد السيَّارة وجروحي مكشوفة. مع كلِّ هزَّةٍ كان الألم يذبحني. القافلة مؤلَّفةٌ من سبع عشرة سيَّارة إسعاف، وانتظرنا تسع ساعاتٍ عند حاجز نتساريم حتى جاء دور سيَّارتنا للتفتيش. كنت أسمع صوت أنيني يخفت شيئًا فشيئًا حتى ظننتُ أنِّي متّ. اعتقد الإسرائيليُّون خطأً أنَّ الجريحَ الذي بجانبي مطلوب، فوضعوا فوَّهةَ البندقيَّة على رأسه. حينها أغمضتُ عينيّ، فكَّرت في أنَّهم سيطلقون النار عليه. وفي الجانب الآخر منِّي كانت أمٌّ تحضن طفلتها المصابة. الطفلة مصابةٌ في رأسها، وقد أُجريت لها عمليَّةٌ فيه، ولم تكن قادرةً على تثبيته، يظلُّ يتحرَّك ويهتزّ. صرخ جنديٌّ في الأمِّ كي تثبِّت رأس ابنتها. أخبرته الأمُّ أنَّ هذا من مضاعفات إصابتها. كان الإسرائيليُّون يريدون إجراء مسحٍ ضوئيٍّ لعَيْن البنت. جاء عدَّةُ جنودٍ وثبَّتوا الطفلةَ وأجروا المسحَ الضوئيّ. لم أفهم ما يحدث، جنودٌ اجتمعوا لتثبيت رأس طفلةٍ في السابعة من عمرها لأخذ صورةٍ لعَيْنها. أهذه البنت تهدِّد العالم؟ يا الله! تسع ساعاتٍ انتظرنا عند حاجز نتساريم تحت أنظار الأمم المتَّحدة والهلال الأحمر. اعتقل الإسرائيليُّون المسعفين، والممرِّضين، والأطبَّاءَ الخمسة. اعتقلوا شابَّةً مسعِفةً من الهلال الأحمر. اعتقلوا الدكتور محمَّد أبو سلميَّة، وأخي نجا

من الاعتقال بأعجوبة. لم تفعل الأمم المتَّحدة شيئًا، جرى ذلك أمام أعين موظَّفيها.

مرَّت ساعاتُ التفتيشِ والانتظارِ عند حاجز نتساريم كأنَّها قرن. انتهى التفتيش، وتابعت السيَّارات طريقها. كنَّا نسير تحت القصف، وعلى مدِّ النظر في الطريقِ انطرحتِ الأشلاء البشريَّة والجثث المتعفِّنة. أخذوني إلى مدرسة، فالمستشفى كان ممتلئًا بالمرضى والنازحين. المستشفى الإندونيسيُّ محاصر، والمستشفيات الأخرى غير مؤهَّلةٍ لاستقبال المزيد. وضعوني على سريرٍ معدنيٍّ دون فراش، كان جسمي على الحديدِ مباشرة. بقيت أصرخ طيلة الوقت من الألم، وكانت الطفلة نفسها، ذات الرأس المفتوح الذي لا يكفُّ عن الاهتزاز، تصرخُ هي الأخرى صرخاتٍ مرعبة. في اليوم التالي قالوا إنَّهم جهَّزوا لنا مستشفياتٍ ميدانيَّة، هي خيامٌ مزوَّدةٌ ببعض الأمورِ الطبِّيَّة. سعى خالي لنقلي في سيَّارةِ إسعافٍ إلى إحدى تلك الخيام، وكانوا يغيِّرونَ لي الضمَّادات في المستشفى الأوروبيّ. في فترةِ الهدنةِ تلك عرفت ما حلَّ بأمِّي وأبي وأخوتي خلال الشهرَيْنِ الفائتَيْن، نزحوا مرَّاتٍ ومرَّات، من حيِّ الدرج إلى الجلاء، ثم إلى الزيتون، بعده إلى الشجاعيَّة. كنت ممدَّدةً على سريري بينما كانوا يعانون وهم ينزحون من مكانٍ إلى مكانٍ والقصف يلاحقهم في كلِّ مرَّة. ثم عرفت أنَّ أحد إخوتي استشهد، اسمه إبراهيم، كان ينقل مياه الشرب للناس حين استهدفته طائرةٌ مسيَّرة. زوجي وأولادي ظلُّوا في المستشفى المعمدانيّ. تشتَّتنا، افترقنا كلٌّ في مكان، لم أرَ أهلي وأولادي إلى الآن.

توجدُ صورٌ كثيرةٌ لا تغادرُ رأسي. صورة الذباب وهو يغطّينا ونحن في المستشفى. صورة الدماء على البلاط. صورة القطط التي كانت تلتهم الجثث ثم تدخل علينا بوجوهٍ حمراء، نراها ونعرف أنَّها دماءٌ بشريَّة.

صورة الجثث تفترش الطرقات في طريقنا إلى نتساريم ثم في طريقنا من نتساريم. صورة طفلةٍ ممدَّدةٍ قبالتي في المستشفى الميدانيِّ نزفت حتى الموت. كانت رجلها مبتورةً ولم يكن معنا أحد، ظلَّت تنزف وتنزف وتغيب عن الوعي شيئًا فشيئًا إلى أن ماتت. تذكَّرتُ طفلةً من آل الخولي، عمرها خمس سنوات. حين سقط الصاروخ على بنايتهم قُتلَ الجميع، أبوها، أمُّها، الأعمام، العمَّاتُ والخالات. هي نجت لأنَّها طارت هي وأختاها من أثرِ الانفجار. أختٌ منهما أُصيبت بحروقٍ شاملة، الثانية لا أدري ماتت أم نجت، أمَّا البنت التي أحدِّثكِ عنها فقدت رجلَيْها. كانت معي في مستشفى الشفاء، اسمها إيمان الخولي. أذكرُ طفلةً يتيمةً ثانية، اسمها حلا الدهشان، وطفلةً ثالثةً اسمها دارين البيَّاع، قُتل 70 فردًا من عائلتها، كلُّ الناسِ تعرفُ قصَّتها. أسماءٌ كثيرةٌ في رأسي، أسماءٌ لأطفالٍ اختفت عائلاتهم بأكملها، العائلة كلُّها من أعمامٍ وأخوالٍ وأقارب. أتذكَّر أيضًا صورًا من المجاعة. أهلي، في حيِّ الدرج، كانوا يخلطونَ العلف مع الطحين، نعم! أكلوا علف الحيوانات. اقتتلَ الناس من أجل الطحين، وصل سعر الكيس لألف دولار. تعاركوا وهم يذهبون لجلب المساعدات أو ينتظرون كيس الطحين. مات بعضهم من أجله، وتوجد أشياءٌ لا يمكنُ الحديثُ عنها.

محمَّد ياسر أبو سعيد

18 سنة

البريج، وسط غزَّة

في يوم 7 أكتوبر كنت أستعدُّ للذهاب إلى المدرسة، وبينما كنت أغسل وجهي رأيت الصواريخ تتساقط، لم نذهب للمدرسة منذ ذلك اليوم. أُصبت في أوَّل الحرب بتاريخ 26 أكتوبر. أعيش مع عائلتي: أبي ياسر محمَّد أبو سعيد، وأمِّي رنا أبو زايد، وأخي الذي وُلد خلال الحرب. نحن خمسةُ أولادٍ وبنتان. كنَّا نعيش مثل أيِّ عائلةٍ أخرى في ظلِّ الحرب، نحاول التأقلم مع يوميَّاتنا العاديَّة. نشأنا وسط الحروب، وأهلي يعملون في مزارع الدجاج. كنَّا نخرج من السادسة صباحًا للعمل ونعود الساعة الرابعة، رغم القصف المستمرّ. مع توقُّف الدراسة بسبب

الحرب، عملت مع أهلي في المزارع. نحن أُناسٌ مدنيُّون عاديُّون، ولم نتوقَّع أن تستمرَّ الحرب بهذه الشدَّة، ظنَنَّا أنَّها لن تؤذينا، وبقينا في حياتنا اليوميَّة حتى يوم 26 أكتوبر.

في ذلك اليوم استيقظنا كالمعتاد وذهبنا إلى الشرق للعمل في مزارع الدجاج. بينما كنَّا نعمل، بدأ القصف حولنا. عدت مع مجموعةٍ في سيَّارةٍ إلى البيت، كنَّا 12 شخصًا في الشاحنة، والقصف يلاحقنا. كنَّا نتَّجه من الشرق إلى غرب غزَّة، وكان القسم الخلفيُّ من الشاحنة مفتوحًا. أخذت الشظايا تتطاير حولنا من كلِّ الجهات، أطلقوا علينا ستَّة صواريخ. الصاروخ السادس سقط في الشاحنة، دون أن ينفجر، لكن شظايا صاروخٍ آخر أصابتنا: ابن عمِّي فقد ساقه، وأنا أُصبت في رجلي، وابن عمِّي الآخر فقد كعب قدمه، وأخي طار بفعل الانفجار وارتطم بشجرة. كلُّنا تطايرنا من قوَّة الصواريخ!

لم يكن هناك مسعفون في ذلك الصباح الباكر، ولم يكن حولنا أحدٌ يساعدنا. بقيت على الأرض حتى جاء رجلٌ بسيَّارةٍ وأخذنا إلى مستشفى شهداء الأقصى، وضعونا في قسم الاستقبال، لم أكن واعيًا بالكامل، كنت أهلوس. رأيت الصاروخ، ثم ساد السواد التامُّ حولي، لم أسمع صوت الانفجار حتى بعد إصابتي. حاولت سحب الشظيَّة من ساقي، كنت بين الصحو والغيبوبة، الشظيَّة تأكل لحم رجلي. لم يتبقَّ من رجلي شيء!

عندما وصلنا إلى المستشفى، حملني الممرِّضون. شعرت وكأنَّني في مكانٍ مظلم، تظهر أمامي أشكال مثلَّثات، والدنيا تدور

بي، السواد يغمرني بالكامل. ظننت أنَّني في القبر، شعرت أنَّني ميِّتٌ وأتحدَّث للناس دون أن يسمعني أحد. تأكَّدت أنَّني ميِّت، وكنت أرى مثلَّثاتٍ زرقاء ودوائر سوداء، كنت أصرخ وأنادي، لكن دون جدوى، لم يكن صوتي يصل لأحد، رغم أنَّني أُحرِّك شفتيّ. وعندما استيقظت، رأيت رجلي مثبَّتةً بحديدٍ ووجدت نفسي على سريرٍ خشبيّ، كان ألم ظهري فظيعًا. لم يكن هناك فراشٌ على السرير، فقط خشب، وكنت أصرخ وأهلوس من الألم. انتبهت إلى أنَّ القصف لا يزال مستمرًّا.

ربطوا رجلي على السرير، وكانت تنزف، وابن عمِّي وأخي بالقرب منِّي. رغم أنَّني كنت في حالةٍ من الغيبوبة وعدم الوعي الكامل، رأيت طبيبةً تضع لي محلولًا، وكنت أرى الدماء في كلِّ مكان، لونٌ أحمرٌ يغمر نظري. أجروا لي عمليَّةً في ساقي؛ كان العظم مفتَّتًا بالكامل، فوضعوا صفائح من البلاتين لدعمها. بقيت ثلاثة أشهرٍ في المستشفى، رأيت الويل والعذاب خلال تلك الفترة. أصوات انفجارات الصواريخ لا تفارق رأسي، ولون الدم أمام عينيَّ ثابتٌ لا يغيب. كنَّا في المستشفى في غرفةٍ واسعة، لا أعلم هل هي غرفةٌ فعليَّة أم مساحةٌ مفتوحةٌ مثل مهجع سجن، الجميع حولي، بعضهم على الأرض وآخرون على الأسرَّة. كنت عاجزًا عن الحركة، الممرَّات مكتظَّةٌ بالنازحين، يتراكمون فوق بعضهم بعضًا.

في الشهر الأوَّل بقيت الأمور مقبولة، وبعدها فقدنا كلَّ شيء؛ لا أدوات طبِّيَّة، لا طعام، ولا حتى ماء. حالتي صعبةٌ للغاية؛ جسدي متآكلٌ وممزَّق، وكنت بحاجةٍ إلى مُسكِّناتٍ قويَّة

لتخفيف الألم أثناء تغيير الضمادات. نصف لحمي قد تمزَّق، وكلُّ جسدي مليءٌ بالحفر. أسمع إطلاق النار والقصف المستمرّ، وسمعتهم يقولون إنَّ علينا إخلاء مستشفى الأقصى، وذاك في 15 فبراير. لم يكن هناك مكانٌ آخر نذهب إليه، لذا بقيت يومًا آخر. في اليوم الثالث، بدأ المستشفى يفرغ من الناس. اتَّصلت بأبي وقلت له إنَّه يجب أن أخرج، أبي في منطقة الزوايدة، جاء وأخذني، وكنت مرعوبًا من فكرة بتر ساقيّ. الأطبَّاء قرَّروا بترهما، لأنَّهما كانتا مجرَّد عظام بلا لحم. رفضت بترهما بإصرار، وقلت مرارًا وتكرارًا إنَّني أفضِّل الموت على أن تُبتر ساقاي، وقرَّرت الخروج للعلاج حتى لا أفقدهما.

ذهبت مع أبي إلى بيت جدَّتي، وكنت أخرج في الليل على الكرسيِّ المتحرِّك، أحيانًا أتفقَّد الشوارع وأحوال الناس. ثم توقَّفت عن ذلك بعدما رأيت الناس يجمعون أشلاء الجثث، ورأيت الجثث مكدَّسةً داخل البطَّانيَّات، أجسادٌ مقطَّعة مثل أكوام اللحم. عندها قرَّرت أن أبقى على سريري كي لا أرى شيئًا آخر من هذه الفظائع. في المرحلة الأخيرة في المستشفى، كنت أطلب المساعدة لنقل سريري لأرى ما يجري حولي، كان ذلك جنونيًّا. مرَّةً في الشهر الأوَّل، كنت جالسًا على كرسيٍّ متحرِّكٍ في بردٍ قارس، تحت شجرة، وسمعت حينها صرخاتٍ وشاحنةً تقترب. كانوا ينقلون ضحايا مجزرةٍ في دير البلح، رأيت رؤوسًا وأحشاء، أجسادًا مفتَّتة توضع في أوانٍ بلاستيكيَّة مثل قطع اللحم. كلُّ ذلك جعلني أفضِّل عدم التحرُّك من سريري أو الخروج من المستشفى، وقلت إنَّ الموت الآن أفضل، فانتظرته وسط القصف حول

المستشفى. فقدت عائلة أمّي أكثر من 30 شخصًا في شهر أكتوبر في دير البلح. هناك قصصٌ كثيرة ومجازر بلا حصر، لم أعد أجد كلماتٍ تصف ما رأيته. أشلاءٌ وأقلٌّ من أنصاف أجساد. كان الناس يموتون ببساطة، مات أحدهم بقربي، مات وحيدًا، رائحته بشعةٌ وجسده يتفسَّخ وهو على قيد الحياة، مات وحيدًا.

أمل الأدهم

24 سنة

بيت لاهيا، شمال غزَّة

أنا متزوِّجةٌ منذ عمر السادسة عشرة، زوجي من بيت الغَبَن، ونعيش بالقرب من بيت عائلتي. في السابع من أكتوبر، ولأنَّ بيتنا قريبٌ من الحدود مع الإسرائيليِّين، فقد قرَّرنا المغادرة على الفور، حين شعرنا باقترابِ الاقتحام البرِّيّ. لجأنا إلى إحدى المدارس، صرنا نازحين. الخطر استمرَّ قريبًا جدًّا منَّا، ورغم ذلك بقينا نعود إلى بيتنا أحيانًا. في إحدى المرَّاتِ كان أخي في المنزلِ عندما تعرَّض للقصف، وعندما ذهبت أمِّي لزيارته في المستشفى، أصابها القصف هي أيضًا في الطريق. اختفت لمدَّةِ يومٍ كامل، لم نعرف مكانها ولا مصيرها ذلك اليوم. كانت في

منطقة الصفطاوي عندما أصابها الصاروخ، وفقدنا أثرَها، أين اختفت؟ كانت في المستشفى ولكن لم يعرفها أحدٌ بسبب التشوُّهات التي أصابت وجهها. عندما وجدناها في المستشفى في اليوم التالي، لم يكن وجهها هو وجه أمِّي الذي أعرفه. كان مغطًّى بالشاش، وجسمها مليءٌ بالجروح العميقة، مع وجودِ صفائح بلاتين في ساقَيْها. تعرَّفت عليها فقط من صوتها! كنت في حالةِ صدمةٍ شديدة، أسألُ نفسي: هل هذه فعلًا أُمِّي؟ وعندما صرخت قائلة: «أمل، ما تتركينيش!». عرفتُ حينها أنَّها هي. قضيت شهرًا بجانب أمِّي في المستشفى الإندونيسيّ، ورأيت هناك أشياء لا يمكن وصفها بالكلمات. رأيت بعينيَّ ما يحدث، ولم أستطع تصديق أنَّني ما زلت حيَّة. كلَّ يومٍ أسألُ نفسي: هل أنا فعلًا أعيش أم أنَّني في كابوس؟

دخلنا في منتصف شهر أكتوبر 2023 ولم أستوعب ما كنت أراه يوميًا. بشرٌ بلا أطراف، بلا أيدي، بلا عيون، جثثٌ مقطوعةُ الرؤوس. الأصواتُ وألوانُ الدم والروائح الكريهة تملأ المكان، الأجساد البشريَّة لم تعد تُشبهُ البَشر. أطفال كأنَّها قطعٌ مكوَّمةٌ من اللحم. لم أرَ جسدًا كاملًا. عجزت أن أتذكَّرَ أجسادًا مكتملة، لم أستطع. الروائح بقيت في أنفي، روائح تعفُّن الجثث والأجساد الحيَّة. ليس هناك ماءٌ أو طعامٌ أو دواء. رأيت الناس يتحلَّلون أمامي، سواءٌ أكانوا أمواتًا أم أحياء. الدود يخرج من أجساد الأحياء، ولم يوجد أمام الأطبَّاء أيُّ حلّ. لذلك تطوَّعتُ كممرِّضةٍ ومعي صديقتي، ارتدينا قفَّازاتٍ بلاستيكيَّة وبدأنا العمل. رغم قلَّةِ الإمكانيَّات حاولنا فعلَ ما نستطيع. وفي تلك الأثناءِ

استمرَّ الطيران الإسرائيليُّ يقصفُ المستشفى. ضربوا الألواح الشمسيَّة التي تولِّدُ الكهرباء. الدبَّابات أحاطت بالمكان. لم أصدِّق ما كان يحدث لو لم أره بعيني. لا كهرباء، لا ماء، لا شيء. هكذا حاصر الإسرائيليُّون المستشفى الإندونيسيّ. في العناية المركَّزةِ مرضى على وشكِ الموت. ومن ثم قصف الإسرائيليُّون الطابق الثالث حيث قسم الأطفال. ركضت إلى هناك، رأيت الجثث. لقد قصفوا مستشفى مليئًا بالأطفال! غادرت الطابق المقصوف وعدت إلى أمِّي. أخذتُها إلى ممرٍّ بعيدٍ عن القصف، قلت لنفسي: سأموتُ بجانبها. نمت بجانبها على الأرض، والقصف استمرَّ بلا توقُّف. قرَّرنا ألَّا نستسلم. نظَّفنا المكان قدر المستطاع بعد القصف وقلنا لأنفسنا: «سنموت، ولكن قبل ذلك سنفعل ما بوسعنا». أتذكَّر ذلك اليوم، كان يوم الخميس، أصعبُ يومٍ في حياتي فقد نزلنا إلى القبو، نظَّفناه وجلسنا فيه نحتمي. فجأة، خلعوا الباب ودخلوا علينا، معنا الكثير من الأطفال والعجائز والجرحى والمبتورين. رأيت امرأةً نزف الدم من عيْنِها بشكلٍ مفاجئ، مثل نافورة. تسمَّرنا واقفين نشاهدُ في ذهول. قلت لها: «عينُكِ تنزف!». استمرَّت متجمِّدةً في مكانها، واقفةً كالصخرة. لم تتحرَّك. لقد أُصيبت بشظيَّةٍ في عينها عندما خلعوا الباب ولم تصرخ من الخوف، ربَّما حتى لم تشعر بالألم بسبب الخوف. بعد ذلك جمعونا في ساحة المستشفى، دخلوا علينا بكلابهم وأسلحتهم. رأيت هناك امرأةً مُسِنَّة، في الثمانين من عمرها، جريحةً وجالسةً على الأرض. قتلوها مُباشرةً بمجرَّد دخولِهم. لم تُصدر أيَّ صوت، لم تَئِنَّ

حتى، بعد ذلك، أطلقوا رصاصتَيْن على شابٍّ فأردوه قتيلًا. كنَّا قرابة 180 شخصًا، دخلوا بالدبَّاباتِ والطائراتِ المُسيَّرة، ونحن مُجمَّدون في مكاننا، رفعنا أيدينا مستسلمين.

جلسنا على رُكَبنا ورفعنا أيدينا، فيما قاموا بتجريد الشباب فوق العشرين من ملابسهم، نحن الفتيات جعلونا نقف جانبًا. راحوا يصرخون علينا، يأمروننا بالوقوف. إحدى المُمرِّضات، واسمها أسماء، فتَّشوها، قالت لهم: «أنا مجرَّد ممرِّضة!». لكنَّهم لم يصدِّقوها. فيما بعد أخذوا بصمة العيْنِ لنا جميعًا، القنَّاصةُ يُحيطونَ بنا مُوجِّهين أسلحتَهم نحونا، أخذنا نرتجفُ من البردِ والخوف، والشباب كانوا يرتجفون أيضًا بعد أن جعلوهم يقفون شبهَ عُراةٍ بملابسهم الداخليَّة فقط. فحصونا امرأةً تلو الأخرى. كان يومًا أسود بكلِّ معنى الكلمة. ودَّعت أمِّي، قلت لها: «سامحيني يا أمِّي، قد لا أعود». أمِّي كانت طريحة الفراش، لم تستطع الحركة، فنقلناها في سريرها.

لا أفهم كيف عشتُ ولماذا بقيتُ على قيد الحياة. كنَّا جميعًا نصلِّي، ننتظر الموت، ونعرف أنَّنا سنموت. كانوا يضربون الجرحى على جروحهم وأطرافهم المُبتورة، ويسخرون منهم قائلين إنَّهم ليسوا مرضى! أنا أعرف معظم هؤلاء الأشخاص، كلُّهم مرضى عاجزون ومقطَّعون. رأيتهم بأمِّ عيني. أكثر ما لا أستطيع نسيانَه هو دخولهم إلى غرفةِ تغسيلِ الموتى، حيث اقتحموا المكان بالدبَّابات، داسوا على الجثثِ بالدبَّابات، جثثٌ ميتةٌ تعرَّضت للهرسِ مجدَّدًا. رأيتُ هذا بأمِّ عيني!

بعد أن انسحبوا، بقينا في الممرّ، البردُ قارسٌ ونحن

خائفون. جاء الصليب الأحمر لاحقًا لإجلاء الناس من المستشفى. بعد خروجهم، رأينا العدد الكبير للموتى، كانوا مشوَّهين بشكلٍ لا يمكن وصفُه. حتى تلك اللحظة، لم ندرك تمامًا أنَّ ما حدث كان مجزرة. كنَّا نحن في قلبها.

لا أستطيع نسيان كلابهم وأصواتهم المخيفة. كانوا يبحثون في كلِّ مكان، يسألون عن حماس والأسرى، نحن مجرَّد جرحى، أغلبنا من كبار السنِّ والأطفالِ والنساء، ومعظمنا مبتورو الأطراف بسبب القصف. أذكر أنَّنا لم نجرؤ حتى على فتح النوافذ. كانوا يقنصوننا إذا اقتربنا منها، تقتلنا طائراتهم المسيَّرة. القصف الذي لم يتوقَّف جعلنا في حالةٍ من الجنون. حاولت مرَّةً أنا وصديقتي الصعود لجلب بعض الأغراض من الطابق العلويّ. بمجرَّد أن رأونا، أطلقوا النار علينا، فاضطررنا للارتماء على الأرض وترك كلِّ شيءٍ خلفنا. لم نستطع التحرُّك حتى داخل المستشفى، كنَّا كفئرانٍ في مصيدة. أذكر أيضًا عندما اختفى الماء من الحمَّامات، لم تكن هناك قطرةُ ماءٍ واحدة. كان الوضعُ صعبًا علينا نحن النساء.

أنا أخافُ رؤية الدم، يغمى عليّ. لكن فجأة، شعرت بالقوَّة والمسؤوليَّة لأُعالج الجرحى. تخيَّلي، كنت أخلط ماء الأوكسجين بالمحلول لتنظيفِ الجروح. هذه المادَّةُ خطيرة، وإذا أخطأتُ في قياس الكمِّيَّة، يمكن أن تكونَ قاتلة. قمت بتجريبِها أوَّلًا على ساق أمِّي، ثم استخدمتها لتنظيف جروح الآخرين. لا أعرفُ كيف فعلت ذلك، ولا أتذكَّر الكثير من التفاصيل، لكنَّني كنت أفعل ما بوسعي. في العناية المُركَّزة، كان هناك شخصان يعانيان

من حروقٍ من الدرجةِ الأولى. طلبا أن يشربا الماء، وكنت أعرف أنَّهما يحتضران. بدأت أبكي حين رأيت الدود يخرج من جسديهما! كانا مجرَّد كُتلٍ لحميَّةٍ تتآكلُ أمامي، ولم يكن باستطاعتي سوى أن أسقيهما الماء. لم أستطع تصديق أنَّني ما زلت على قيد الحياة بعد هذه التجربة، بقيت في حالةٍ من الصدمة. ذهبتُ إلى أمِّي، حضنتها وأنا أصرخ: «أنا عايشة!» وأمِّي تردِّد: «أنتِ عايشة!». نظرتُ حولي، كانت الجُثث مُتناثرة. أنا وأمِّي ننظر في عيونِ بعضنا غير مصدِّقتَيْن.

لقد حطَّموا كُلَّ أجهزةِ المستشفى ومعدَّاته، داسوا على الأدوية بالدبَّاباتِ حتى لا نتمكَّن من استخدامها. اعتقلوا الممرِّضين والجرحى، حتى المقطَّعينَ منهم.

خرجنا في السادسة صباحًا يوم الجمعة، يوم الهدنة متوجِّهين إلى الجنوب. وعند خروجنا من باب المستشفى، رأيت أحد الأشخاص جاء ليتعرَّف على جثَّة شخصٍ يقربه، ليجد أنَّ الكلاب كانت قد أكلت وجهه. الجثث التي داستها الدبَّابات بدت مشوَّهةً لدرجةِ استحالةِ التعرُّف عليها. الناس تمشي في حالة ذُهول، ينظرون إلينا غير مصدِّقين أنَّنا أحياء. بينما آخرون يبحثون بين الأشلاء. أتذكَّرُ طفلًا قال للإسرائيليِّين عندما اقتحموا المستشفى وادَّعوا أنَّهم جاؤوا لحمايتنا بعد أن قتلوا المرأة العجوز الجريحة: «يعني حتجيبوا أكل؟». الجوع وقتها أوشك أن يقتلنا، وبقينا في صدمةٍ مثل ذلك الطفل. عندما وصلنا إلى حاجز صلاح الدين، أوقفونا وعذَّبونا أثناء التفتيش، عذَّبوا الجرحى أيضًا! كنت مشوَّشة، رأسي يهتزُّ من الصدمة. بدأوا يصرخون في

الميكروفونات، ونحن جميعًا على وشكِ الانهيار، مرضى ومقطَّعين. طلبوا من الجميع النزول، كيف سينزلون؟ لا أحد منهم يستطيع الحركة! من بين خمسين شخصًا كانوا في الباص، كنت أنا قادرةً على النزول، ومعي امرأةٌ أخرى، أمَّا الباقون فكانوا مبتوري الأطراف. سألونا: «ما في غيركم؟». تجمَّدتُ من الرعب، كانوا يرون البشرَ المقطَّعين أمامهم. أخذوا الفتاة التي كانت بجانبي. ثم قال لي أحد الجنود: «أنت ارجعي!». تجمَّدت، شعرت أنَّني لا أستطيع الحركة. قلت له: «لا أستطيع المشي!». فجرَّني جرًّا، بقينا ساعةً يفتِّشوننا وأنا جامدةٌ قرب أمِّي. بعد انتهاء ذلك الجحيم، ذهبنا إلى مستشفى ناصر.

اعتقلوا أبي في السابع من أكتوبر، كان مجرَّدَ عاملٍ وبقي معتقلًا عندهم مدَّةَ شهرَيْن لم نكن نعرفُ عنه شيئًا. عندما خرج من السجن، استمرَّ جسده يرتجف بسبب التعذيب الوحشيِّ الذي تعرَّض له. أخبرنا كيف كانوا يربطون أيديَهم وأرجُلهم، ويجعلونهم ينامون على حجارةٍ مُدبَّبة. حين خرج كان في الخمسين من عمرِه، وجسدُه مُنهكٌ تمامًا! أُلقي بهم عراةً ومكبَّلين، بلا طعامٍ أو شراب. نجا أبي من الموت في الاعتقال، لتقتلَهُ طائرةٌ مسيَّرةٌ برصاصةٍ في رقبته فيما بعد.

إبراهيم قديح

21 سنة

خان يونس، عبسان الكبيرة

قبل الحرب، كنت أدرس التمريض في السنة الثانية بجامعة الأزهر. توقَّفت الدراسة مع بداية الحرب في 7 أكتوبر، حيث دُمِّرت كلُّ جامعات قطاع غزَّة وحُرم الآلاف من الطلَّاب من حقِّهم في التعليم. قبل الحرب، أمضيت إجازة الصيف مع عائلة والدتي في المغرب، وعدت إلى غزَّة يوم 12 سبتمبر، بعد أن نجوت من زلزال المغرب أثناء وجودي في المطار. وصلت غزَّة ليلًا ولديَّ امتحانٌ في الجامعة، أكملته وجلست مع أصدقائي قبل أن تبدأ الدراسة. لكن في 7 أكتوبر، يوم السبت، عند الساعة السادسة والنصف صباحًا، بدأت الحرب.

أنا من عبسان الكبيرة، وهي بلدةٌ تبعد 2 كيلومتر عن حدود القطاع، ولم يتمَّ قصفها في البداية، رغم أنَّني مُدركٌ أنَّ القصف سيصل إلينا في النهاية. يوم 8 أكتوبر، شهد قطاع غزَّة كاملًا أحزمةً ناريَّة وقصفًا متواصلًا، ومعه ألقت القوَّات الإسرائيليَّة مناشير تطالبنا بالرحيل. كانت هذه المناشير مزاعم تحذيريَّةً ودعائيَّة لا أكثر، رُميت علينا مع القصف. طلبوا منَّا الانتقال إلى «مناطق إنسانيَّة» آمنة، لكن هذا أيضًا ليس صحيحًا؛ فغزَّة كلُّها تحت النار. الصواريخ بدأت تتساقط حول بيتنا، وتزايدت حدَّة القصف مع الوقت، وقرَّر كثيرون من جيراني النزوح، لكنَّني تمسَّكت بالبقاء في بيتي، مؤمنًا بالمثل القائل «من خرج من داره قلَّ مقداره». في يوم 9 أكتوبر، استمرَّ القصف وبقينا ننتظر الموت دون مغادرة البيت، حتى جاء يوم 10 أكتوبر، ووزَّعت القوَّات مناشير جديدةً تُحذِّر: «إمَّا تخرجون أو تموتون». استخدموا حتى الصواريخ التحذيريَّة للضغط علينا كي نغادر، فاضطررت للخروج مع عائلتي وتوجَّهنا إلى خان يونس حيث منزل صديق العائلة. ركبت سيَّارتي وسط القصف، والصواريخ تتساقط حولي ومن فوقي وأمامي وخلفي، حتى وصلت إلى خان يونس عند منزل صديقي في الشيخ ناصر. الطريق كان مليئًا بالمخاطر، وأثناءها شعرت أنَّ الموت وشيك. مع انعدام الأماكن الآمنة، بيت صديقي مكتظٌّ بالنازحين، النساء في الطابق الأوَّل والشباب في الثاني. لم آخذ معي سوى بدلتَيْن وبعض الأوراق الرسميَّة والشهادات الدراسيَّة وجواز السفر، وحين وصلت يوم 10 أكتوبر، شعرت أنَّني وُلدت من جديد.

في تلك الليلة، قرَّرت التطوُّع كممرِّضٍ في مستشفى ناصر الطبِّيّ، آملًا أن أتمكَّن من مساعدة الناس. ذهبت إليهم وأخبرتهم أنَّني طالبٌ في السنة الثانية للتمريض، وأرغب في التطوُّع. عملت متطوِّعًا من 10 أكتوبر حتى 17 أكتوبر، وخلال تلك الفترة شهدت أهوالًا في المستشفى لا أعرف إن كان يمكنني وصفها؛ رأيت امرأةً تبحث كالمجنونة عن أبنائها الشهداء وتصرخ في أروقة المستشفى: «أين أولادي!»، وبياض عينَيْها تحوَّل إلى الأحمر من كثرة البكاء. رأيت طفلًا مشطورًا إلى نصفَيْن، وجثثًا بلا رؤوس، وأحشاءً تتناثر، وقطعًا بشريَّة هنا وهناك. عمري 20 عامًا، ولم أكن أتصوَّر أنَّني قادرٌ على تحمُّل هذا المشهد، لكنَّ أولاد غزَّة يكبرون بسرعة. نحن نعرف الحرب منذ ولادتنا، فالحصار جزءٌ من حياتنا. كبرنا في الحصار، واعتدنا على القصف، لكن هذه ليست حربًا، بل شيءٌ يفوق كلَّ تجاربنا.

رغم الرعب والفظائع التي رأيتها، شعرت بواجبي الوقوف إلى جانب الناس، فبقيت في المستشفى، أعمل بين الجثث

والمصابين والمبتورين. هناك طفلٌ يبلغ من العمر 10 سنوات، أصرَّ على التطوُّع معنا في جمع الأشلاء، وفرض نفسه بيننا قائلًا إنَّه لن يغادر حتى يقبلوا بوجوده. لم يتوقَّع أحدٌ أن يرى طفلًا يلمُّ أشلاء الأطفال الآخرين. رأيت الكثير والكثير، ولا تزال تلك المشاهد تطاردني حتى الآن.

في يوم 17 أكتوبر، انتهيت من نوبة عملٍ طويلة في المستشفى، دامت أربعًا وعشرين ساعةً متواصلة تحت القصف العنيف الذي لم يتوقَّف. الطعام والشراب كانا بعيدَيْن عن أذهاننا؛ فلم يكن هناك وقتٌ حتى للتفكير في الجوع. في بداية الحرب، لم يصل القصف إلى المستشفى، لكن لاحقًا، طال كلَّ شيء. بعد انتهاء عملي، مررت بمطعمٍ قرب منزل صديقي، وتذكَّرت فجأةً أنَّني لم آكل منذ أكثر من يومٍ كامل. لم يكن الجوع مقتصرًا عليّ؛ فكلُّ الطاقم الطبِّيّ يعاني من الوضع نفسه. حصلت على وجبتي وتوجَّهت سريعًا إلى منزل صديقي. استحممت بعجالةٍ كما اعتدنا ـ لا يمكنك أن تسمِّيه حمَّامًا ـ باستخدام قنِّينة ماء، لتفادي مخاطر الموت عاريًا تحت القصف. رغم جوعي الشديد، شعرت بضغطٍ خانق في صدري، يمنعني من تناول الطعام. جلست مستنشقًا الهواء محاولًا التغلُّب على الاختناق الذي اجتاحني، وكأنَّ شعورًا مريبًا بحدوث شيءٍ سيِّءٍ يملأ روحي. أرسلت رسائل لعائلتي وأصدقائي، ربَّما كنت أودِّعهم دون أن أشعر. الساعة اقتربت من الثانية والنصف ظهرًا، وبينما كنت أتأهَّب للدخول إلى المنزل، سقط صاروخٌ ضخم، أشبه ببرميلٍ متفجِّرٍ وزنه ألف كيلوغرام انفجر على بعد 150 مترًا،

مستهدفًا بناية مقابلة لنا. قوَّة الانفجار كانت مدمِّرة، وبُتِرت ثلاثةٌ من أطرافي في لحظةٍ واحدة، قذفني الهواء لمسافة 200 متر، ووجدت نفسي مستلقيًا في منطقةٍ بعيدة عن الناس وخالية. الضربة جعلت الرؤية مشوَّشة وغائمة، لكن حاسَّة السمع بقيت قويَّة، بقيت هناك ما يقارب نصف ساعة، أصرخ واستغيث، لكن دون استجابة. بعد مرور وقت، فقدت الأمل وبدأت أستسلم، مردِّدًا الشهادة، محاولًا تهدئة نفسي بقراءة القرآن. دقائق مرَّت، وسمعت صوت خطواتٍ تقترب! شعرت وكأنَّ أحدًا يبحث بين الأنقاض عن الناجين. صرخت مستنجدًا، «الحقوني، أنا حيّ!». جاءني صوتٌ بدا وكأنَّه لصبيٍّ صغير، ربَّما في الخامسة عشرة من عمره، ردَّ بصوتٍ مرتعش، «شهيد! شهيد!». أجبته بصوتٍ ضعيف: «لا، أنا مُصاب، ما زلت حيًّا». اقترب الصبيُّ ومعه رجلان حملا جسدي، لكن ثقلي كان زائدًا على قدرتهما، فسقطت على الأرض، وهناك، رأيت بوضوحٍ أنِّي بلا أطراف، فسألتهم: «هل فقدت أطرافي؟». أجاب أحدهم، «قول الحمد لله».

كنتُ عاريًا، بقيت على الأرض بلا شيء يسترني بعد أن مزَّقني الانفجار، فأخبرت الرجل الذي يحملني: «أمانة عليك، استرني». غطَّاني بقطعة كرتون، وحملوني مجدَّدًا، حتى وصلنا الإسعاف حيث وضعوني مع جثثٍ أخرى، بعضها مبتورةٌ ومكدَّسة بجانبي. ظنَّ المسعف أنَّني شهيد، لكن عندما رأى أنَّني أتنفَّس، سألني عن اسمي وعائلتي. أجبته بوضوح رغم الألم الذي يعصف بي، ورغم وجهي المُشوَّه وجسدي الممزَّق ما جعله في دهشة.

وصلنا إلى مستشفى ناصر، المستشفى الذي كنت قد تطوَّعت فيه سابقًا، وعندما أعلن المسعف عن وصولنا، وقعت في غيبوبة، وبدأت فترةٌ طويلة من الظلام. استمرَّت الغيبوبة حتى بداية نوڤمبر، بين أوقاتٍ قصيرة أستيقظ فيها لثوان، ثم أعود للغرق في اللاوعي. أسمع من حولي دون أن أرى بوضوح، كأنَّ كلَّ شيءٍ مغطًّى بالضباب. أصوات الأطبَّاء وأهلي تصلني وأنا عاجزٌ عن الردّ، حتى جاء صوت أمِّي يومًا، تقول برقَّةٍ خالصة: «إبراهيم، أنا هنا جنبك». صحوت لثوانٍ وناديتها: «ماما، أجيتي؟»، ثم عدت مجدَّدًا للغيبوبة. في صباح اليوم التالي، استعدت وعيي بالكامل، وبدأت رحلة العذاب والعلاج؛ عمليَّاتٌ جراحيَّة متتابعة، وآلامٌ لا تنتهي، ومصاعب مروِّعةٌ تنتظرني في كلِّ خطوة.

أطرافي المبتورة بقيت في مكان الانفجار: قدمان، يد، وبعض أصابع اليد الأخرى. عرفت لاحقًا أنَّ ابن عمِّي زار موقع القصف ووجد ثلاثة من أطرافي، فقام بدفنها، لكنِّي لا أعرف مكان دفن نصف جسدي، ويبدو مستحيلًا أن أتمكَّن يومًا من معرفة أين دُفِن. بعد أن دمَّر جيش الاحتلال المستشفيات، توجَّه إلى المقابر ونبشها وأخذ الجثث، فدمَّر بذلك أيَّ أملٍ لي بزيارة الجزء المدفون من جسدي. لكن ربَّما يومًا ما، عند عودتي إلى غزَّة، أتمكَّن من البحث عن هذا النصف المدفون.

رغم أنَّني ممرِّض، واجهت هلعًا لا يوصف، تغمرني الكوابيس منذ اليوم الأوَّل للحرب. أستيقظ لأرى الفظائع، وأغفو لأقابل الكوابيس، وكأنَّها دائرةٌ لا تنتهي. ليست حربًا هذه، بل إبادة. لا أجد وصفًا آخر لما شهدته. أجريت أكثر من ستِّين

عمليَّةً جراحيَّة، وفي بعض الأيَّام، كنت أخضع لثلاث عمليَّاتٍ متتالية. جسدي صار كُتلةً من الندوب والثقوب، يدي اليسرى كانت على وشك البتر، لكنَّ الأطبَّاء أنقذوها رغم أنَّ أصابعي باتت مبتورة. بقيت لي إصبعان مع دعمٍ من قطع بلاتين، ولا أصدِّق كيف ما زلت على قيد الحياة!

في المستشفى، صاروا يطلقون عليَّ لقب «الشهيد الحيّ». جسدي صار مزيجًا من الجراح والشظايا، لكن رُغم ذلك، بقي يتنفَّس. مرَّت عليَّ عمليَّاتٌ طويلة، إحداها دامت اثنتي عشرة ساعةً كاملة. في اليوم الثاني والأربعين بعد إصابتي، سمعت أحدهم يقترح فكَّ الأجهزة عنِّي لأنْ «لا أمل في نجاته». وصلني صوتهم يقولون: «خذوه لثلَّاجة الموتى» وهم يتحدَّثون عن الحاجة للمعدَّات لإنقاذ مريضٍ آخر ربَّما فرصه أفضل. أدركت وقتها أنَّني على حافَّة الموت، فتمسَّكت بصوتي وقلت بصعوبة: «أنا عايش!» استيقظت لدقائق وقلت بصوتٍ واهن: «أنا منيح، عايش». بقيت أردِّدها لدقيقتَيْن حتى شعرت أنَّني أثبت لهم أنِّي على قيد الحياة. ثم غبت عن الوعي مرَّةً أخرى، لكن من تلك اللحظة عادت بعض أعضائي إلى وظائفها.

قبل إصابتي، تطوَّعت في مستشفى ناصر، حيث كان يمرُّ مئات الجرحى والنازحين، مختلطين مع مئات من الجثث يوميًّا. اختبرت الزحام المملوء بالدماء والألم، وحاولت مدَّ يد العون للجرحى من حولي، لكن لم أتخيَّل أنَّني سأصبح جزءًا من هذا الزحام يومًا ما. مررت بأوقاتٍ عصيبة وبألمٍ رهيب حتى أعود وأكون ما أنا عليه الآن. ما زلت غير مصدِّقٍ أنَّني ما زلت حيًّا.

وجود أمّي إلى جانبي طوال الرحلة أعطاني دفعةً للاستمرار، لأصمد أمام هذه المحنة. قبل 7 أكتوبر، كنت شابًا قويًّا ورياضيًّا، في صحَّةٍ جيِّدة، والأوَّل على دفعتي في الجامعة، أعيش بين عائلتي وأحبُّ حياة غزَّة. لديَّ أحلامٌ للمستقبل، حتى وإن فقدت نصف جسدي، لكن روحي وعقلي هنا، ثابتان. أطمح الآن إلى كتابة القصص، إلى مواصلة دراستي، وإلى العودة يومًا إلى غزَّة التي أحبّ.

جِيهان البَكْري

30 سنة

خان يونس، غزَّة

درست الأدب العربيَّ في غزَّة، أنا أمٌّ لطفلَيْن، قبل يومَيْن من السابع من أكتوبر، كنت في المستشفى بسببِ آلامٍ شَديدةٍ في البطن، اكتشفوا أنَّ لديَّ التهابًا شديدًا في الزائدة الدوديَّة، لذلك نقلني زوجي إلى المستشفى، وهناك أجروا لي عملًا جراحيًّا، وبقيت لاستكمال العلاج.

عندما بدأ القصف خفت على أطفالي، لذلك لم أنتظر انتهاء العلاج، فخرجت من المستشفى وأخذتهم من بيت أهلي وعدت بهم إلى بيتي. بقيت هناك خلال الأسبوع الأوَّل من الحرب، لم أترك بيتي رغم اشتداد القصف ورغم كلِّ ما كنت أعانيه من ألم.

نحن نسكن في منطقة (معن) في مدينة خان يونس. ثم كان أن ازداد الوضع سوءًا، لم يحتمل زوجي مشاعر الخوف الشديد في عيون الأطفال، كان قلبه يتقطَّع حزنًا عليهم، كنت أرى ذلك في عيونه، قال إنَّه سيبقى ويحمي البيت، لذلك عندما طلب منِّي أن أعود بهم إلى بيت أهلي، وافقتُ فورًا. كان الأطفال مذعورين، كانوا خائفين من الدمار والضرب الذي كان يحيط بنا والمباني تتساقَط حولنا.

في الثاني عشر من أكتوبر، سمعت أنَّ الإسرائيليِّين قصفوا حزامًا ناريًّا حول بيتنا. خفت كثيرًا على زوجي، ولم تكن هناك أيُّ وسيلةٍ للتواصل. في الليل حاولت الاطمئنان عليه دون جدوى، ثم علمت أنَّه أُصيب! لم أكن أعرف ما يحدث، كانت الاتِّصالات والإنترنت مقطوعة. في البداية، قالوا إنَّه مصاب، ثم قالوا إنَّ حالته تسوء، ولم يطل الأمر حتى أخبروني أنَّ زوجي قتل في القصف! لم أستوعب الأمر في البداية! انهرت تمامًا، كان كلَّ عالمي! كنت أشعر بشيءٍ ما في ذلك اليوم، حتى قبل أن أعرف! كنت أدعو لزوجي منذ الصباح لأنَّ إحساسًا غريبًا جعلني أشعر بموته! كان قلبي يغلي! قلت لهم، لقد عرفت هذا في قلبي ولم أتكلَّم! كان محبوبًا جدًّا، كانت أمِّي تقول إنَّه ابنٌ لها! لقد مَرِضَتْ بعد موته! زوجي كان مدنيًّا، لا دخلَ له بالسياسة، كان إنسانًا استثنائيًّا، محبًّا وعطوفًا. ذهبت إلى بيتي لأودِّعه قبل دفنه. ودَّعتُه؟ نعم، ودَّعْتُه! ثم دفنَّاه تحت القصف. رغم أنَّ الحرب كانت في بدايتها لكن لم تكن هناك فرصةٌ لكثيرٍ من البشر لدفن موتاهم، كان الإسرائيليُّون يقصفون المُشيِّعين وهم في المقبرة

فيقتُلون آخرين، يذهب الناس في غزَّة لدفن واحدٍ فيدفنون أكثر وهكذا.

عدت إلى بيتنا رغم القصف الشديد. كانت ذكرياتُنا أنا وزوجي في كلِّ مكانٍ هناك، بقيتُ حتى العصر، وكنت أراه ماثلًا أمامي في كلِّ زاوية! أراه بوضوح! لم أحتمل البقاء في البيت من دونه، رأيت ملابسه أمامي ولم أحتمل! الحياة لا تطاق من دونه! فعدت إلى بيت أهلي وصرت نازحةً عندهم، كانت أيَّامًا صعبة، خائفة على أطفالي ولم أصدِّق بعد أنَّ زوجي مات. حاولوا تهدئتي ولكنَّ قلبي كان يخفق بشدَّةٍ والذعر يجتاحني، أنظرُ إلى أطفالي بخوف، أنظر إلى كلِّ من حولي بخوف.

كنَّا جميعًا في بيتِ العائلة. أخي الكبير يسكن في الطابق فوقنا، وفوقه أخي الثالثُ والرابع. زوج أختي مهاجرٌ في آيسلندا، ولديها ولدٌ وبنت، وهي مقيمةٌ مع أهلي منذ غيابِ زوجها، فبقي أولادها معنا. تلك الليلة، كان هناك ثمانية أحفادٍ لأُمِّي، نيَّمْناهم معًا.

آخر شيءٍ أذكره من تلك الليلة أنَّ أمِّي كانت تصرخ بنا لنبقى معها في الغرفة. قلنا لها أنا وأختي إنَّنا نريد تهدئة الأولاد، فهم يضجُّون كثيرًا ولا نريد إزعاجها. ثم فجأة، طرت في الهواء! كان ذلك يوم الثامن عشر من أكتوبر. كنَّا نضمُّ أطفالنا الصغار الأربعة إلى أحضاننا، نصلِّي. ثم كان أن طرت خارج البيت!

كان الدخانُ أسود، والسماء حمراء، حمراء ملتهبة! اعتقدتُ أنِّي في كابوسٍ وأنِّي سأصحو، إذ لم تمرَّ سوى ثانيةٍ واحدة. كنت أمسك جوَّالي في يدي، هذا ما وعيته! ثانيةٌ فقط! ثم من بعيدٍ رأيت خيالًا أبيض، رجلًا! الدنيا ليل، وخيالاتٌ بيضاء

وحمراء! كان الأقارب يُنقذوننا حينها، يحاولون، ولكنّي لم أستوعب شيئًا، كنت أنادي وأصرخ، لكنّي كنت أصرخ حقيقةً وأسمع صوتي! جاء رجلٌ لا أعرفه سألني من أنا، كان قد سمعني وهو يبحث بين الركام، وحاول انتشالي. كنت بعيدةً خارج مكان الانفجار، لقد طيَّرني الصاروخ! ولهذا نجوت! لم أكن مدفونةً كلِّيًا تحت الردم. لقد استهدفنا بصاروخَيْن؛ الصاروخ الأوَّل طيَّرنا، والثاني سحب الدار، شفط الدار! صاروخٌ فراغيّ! نزلت الدار كلَّها بطوابقها!

لم أكن أشعر بشيء. لا أشعر ولا أرى جيِّدًا، الغبار كثيف، وكان من حولي ينقذون الآخرين. كنت أراهم كخيالاتٍ ولا يرونني! كنت بعيدة! وعندما صرخت عرفوا بي، وأنقذوني، وأخذوني إلى المستشفى. أجروا لي عمليَّة، كان الصبح قد جاء وصار يومٌ جديد، وعندما استيقظت وفتحتُ عينيّ، وسألتُ عن أولادي وأهلي، قالوا لي إنَّ أولادي بخير. طلبت أن أراهم، لم أعرف أيَّ شيء، كنت أتألَّم، وحدسي يخبرني أنَّ شيئًا ما حصل. كان ظهري مكسورًا، ورجلي ملفوفةٌ ولا أعرفُ أنَّها مقطوعة، وبطني مفتوحٌ ورأسي مقطوبٌ بغرزٍ كثيرة. ثم جاء أخي لرؤيتي وأخبرني أنَّ أولادي استشهدوا. سألت عن أمِّي، قال إنَّها ماتت أيضًا، وزوجة أخي؟ ردَّ بالجواب نفسه أنَّها ماتت. مات أحد عشر فردًا من عائلتي! أمِّي، وزوجة أخي، وأولادنا الثمانية..

وأثناء كلِّ هذا، دخلت غرفة العمليَّات لأجل عمليَّةٍ في ظهري، وجدوا عندي كسرًا في الفقرة الخامسة. أخي المصاب الذي بتروا رجليه الاثنتَيْن، أُصيب بتسمُّمٍ من الصواريخ

المسمومة! الصواريخ نفسها التي قطعت رجلَيْه ولم تقتله في تلك اللحظة، قتله سمُّها فيما بعد! مات فورًا بعد بتر رجلَيْه، لحق بأمِّي وأولادي وزوجي! هكذا اختفت عائلتي وكأنَّها لم توجد يومًا! هكذا كانوا يختفون من حولي، ولم أملك حتى الوقت لأفكِّر، كنت أنا نفسي بين الحياةِ والموت، أصحو وأتألَّم، ثم أغيبُ عن الوعي!

هناء، أختي تبلغ من العمرِ 27 عامًا، أمٌّ لولدَيْن، ماتا مع أطفالي. هناء ربَّت أطفالها وحدها، زوجها سافر بسبب الأوضاع الاقتصاديَّة والبطالة ليَعمَلَ ويوفِّر لهم الحياة الكريمة. كانت بجانبي أثناء الانفجار وبقيت معي في المستشفى، وفقدت طفليها. هذه صورتهم، ابن أختي عمره سنتان ونصف السنة، اسمه نبيل، عندما ولد كان والده مسافرًا، لكنَّه جاء ورآه عندما كان عمره ستَّة أشهر، أمَّا ابنتُها أسيل فولدت في غيابه أظنُّه لم يرها على الإطلاق. البطالة المُتفاقمة في غزَّة أجبرت الرجال على السفر ليجدوا فُرص عمل، لتعيش بقيَّة العائلة. كان زوج هناء لا يريد تركهم وحدهم، لكن لم يكن من خيار، لقد خاطر بحياته، ذهب عن طريق تركيا واليونان وعبر البحر مثل كلِّ اللاجئين. خفنا عليه أن يغرق، لكنَّه نجا، وكنَّا ننتظر أن تستقرَّ أمورُهُ لتذهب أختي وأطفالها إليه. ولكن حصل ما حصل في غيابه، ومات أطفالُه!

ذلك اليوم المشؤوم لا يغادرني أبدًا، الثامن عشر من أكتوبر، لن أنساه طوال حياتي. يوم نزل الصاروخ علينا. أذكر أنَّني وأختي صلَّينا العشاء، كنَّا والعائلة كلُّها في حالة خوفٍ وتوتُّر. نجتمع مع بعضنا، كلُّ الإخوة والعائلة. أذكر أنَّنا جهَّزنا

العشاء لأطفالنا، نعم أكلوا! الحمد لله! ماتوا شبعانين على الأقلّ! أكبر طفل عمره أربعُ سنوات، وآخر عمره سنتان، وآخر سنةٌ ونصف السنة، وآخر عمره شهور. الأطفال عادةً يلعبون، لكنَّهم ذلك اليوم لم يلعبوا ولم يضجُّوا ولم يصدروا أيَّ صوت، ناموا مبكِّرًا، كانوا متعبينَ من الخوف لأقصى حدّ. كنَّا نقضي الوقت نحاول تسليتهم واللعب معهم، لكنَّ كان الخوف والقلق أكبر منَّا ومنهم!

أذكر أنَّني قلتُ لأختي هناء إنَّني رأيت طائراتٍ غريبةً تحوم حول البيت، الزنَّانة إيَّاها، تلفُّ وتدور حول بيتنا! فكَّرت أنَّنا في خطر، وأنَّنا يجب أن نخرج من هنا! كنَّا نتتبَّع الأخبار رغم عدم وجود النت، نشحن جوَّالاتنا قليلًا إذا تَوافرت الكهرباء لنعرف خبرًا ما، وكانت الأخبار تأتي بالمزيد من الموت والمزيد من فقد الناس الذين نعرفهم! موتٌ في كلِّ مكان، يموت كلُّ من نعرفهم. قلت في نفسي، سوف نموت أيضًا، رأيت الموت أمامي، ولكن لم يكن الخيار أمامنا. إلى أينَ سنذهب؟ سلَّمتُ أمري لله، وقلت أموت أنا وأطفالي وأبقى معهم، وألحق بزوجي! ثم، نعم! أذكر أنَّ الأطفال حينها ناموا، غرقوا في النوم. اطمأنَّينا عليهم. في الغرفة الأخرى التي تحوي نافذةً كبيرة، قلتُ لأختي لنستنشق الهواء قليلًا! كانت للغرفة بلكونة، كانت أمِّي تتمدَّد في الصالون لأنَّنا اعتقدنا أنَّه أكثر أمانًا، وكنَّا نستطيع أن نتحدَّث مع بعضنا. زوجة أخي الكبير، حنين، وأخي جهاد، يطلبون منَّا الانضمام إليهم، يقولون، نعم! ما زلت أذكر! يقولون تلك الجملة: لماذا كلُّ واحدٍ ينام في جهة؟ تعالوا لتنضمُّوا إلينا، على الأقلِّ إذا متنا

نموت معًا؛ كنَّا أنا وأختي كلُّ واحدةٍ تريد أن تُبقي أطفالها في حضنها، وهكذا قرَّرنا أن ننام ونبقي أطفالنا في حضننا لنحميَهم، نلفُّهم بأجسادنا. كانوا طريِّين جدًّا وصغارًا! فرشنا الغرفة كلَّها لنتمدَّد، نمنا فعلًا، وحنين زوجة أخي نامت إلى جانبنا، أمِّي مقابلنا وهي تنادي وتقول أيضًا: لماذا تنامون باكرًا؟ حين قالت أمِّي ذلك، قلت، سوف ننيِّم الأطفال ونأتي إليك، أنا أُعيد رواية موتهم! نعم أنا أريد أن أُعيد وأُعيد.

في الأيَّام الثلاثة الأولى في المستشفى، كانت رجلي ملفوفةً ولم أعرف ما حلَّ بها. لم أعتقد أنَّ هناك بترًا، اعتقدت أنَّهم فقط يُغيِّرون الضمَّادات وينظِّفون الجروح. لم أشعر بألمٍ كبيرٍ لأنَّ جسدي كلَّهُ كان مليئًا بالجروح والحروق. اعتقدت أنَّ إصابتي البليغة كانت في رأسي المشقوق. ثم علمت أنَّ قدمي بُترت من الكعب وتحت. قالوا لي إنَّ الجرح تسمَّم، وتحوَّل إلى لونٍ بنفسجيّ، وأنَّ التسمُّم كان سينتشر في جسدي ويميتني. كان التسمُّمُ بالصواريخ حالةً شائعة، وفي المستشفى مع نقص الأدوية والموادِّ الطبِّيَّةِ الأساسيَّة، اضطرَّ الأطبَّاءُ للحفاظِ على حياة المرضى باللجوء إلى خيار الحياة أو الموت، بعبارةٍ أخرى، خيار التقطيع بديلًا عن الموت. كانت الأجساد تتآكل، والناس ترى بعَيْنها الدود يلتهم أجسادها. رأيت الدود يخرج من جروحي، رأيت تفسُّخ جسدي وأنا ما زلت على قيد الحياة. كان خيار البتر بالنسبة إلى الأطبَّاء هو فرصتي الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. الحمد لله، لقد عشتُ!

مجزرة عائلة البكري، هكذا سمُّوها! كانوا أطفالًا مثل

العصافير، ماتوا كلُّهم! أحاول تذكُّرَ الموتى كلِّهم. أخت زوجي ماتت أيضًا؛ كانت نازحةً في مدرسة معن، مدرسةٍ مليئةٍ بالنازحين، وقتلت بالقصف الصاروخيِّ هناك، ومعها أختاها أيضًا، رتيل وترتيل أبو النجا، واحدةٌ أصيبت والثانية ماتت. زوجة أخي الأخرى الحامل كانت واحدةً من الناجين بأعجوبة، مات ابنها الأكبر واعتقد الجميع بأنَّها ستموت مع جنينها. وعلى الرَّغم من إصابتها بجروحٍ خطيرةٍ وبكسرٍ في رقبتها وانتزاع طحالها، لكنَّها نجتْ وولدتْ بنتًا جميلةً بعدَ ذلك أسمتها انتصار على اسم أمِّي. نموت بأعجوبةٍ ونعيشُ بأعجوبة. عندما استيقظت زوجة أخي وشاهدت ابنتها قربها قالت: إنَّنا لن ننتهي، سنعيش.

قضيتُ ثلاثةَ أشهرٍ في المستشفى الأوروبِّي، وأختي بقيت معي، وكان القصف مستمرًّا من حولنا. كانوا قد دفنوا أطفالنا وأهلنا. المستشفى كبقيَّةِ مستشفيات قطاع غزَّة، كان ممتلئًا بالنازحين إلى جانب الجرحى والأطبَّاء والممرِّضين. القصف لا يتوقَّف والجرحى يصلون باستمرار، كان الزمن مثل الألم يُكرِّرُ نفسه هكذا دون توقُّف! لم يكن واضحًا لي في البداية أنَّنا نتعرَّض لإبادة، كنت أعتقد أنَّها حربٌ ستمرُّ مثلَ كلِّ الحروب السابقة، سيموتُ بعض الناس والباقي يؤجَّلون إلى حربٍ قادمة، ثم يعود الهدوء. لكنِّي فيما بعد رأيت الجنون، تحوَّل المستشفى إلى مكانٍ مرعب، النازحون فوق بعضهم البعض، القصف لا يهدأ، أنين الجرحى يتكرَّر بلا توقُّف. كنت أقول في نفسي إنَّنا سنموت جميعًا، لن يتركوا واحدًا منَّا على قيد الحياة. أفظع شيءٍ في المستشفى كان عدم وجود المسكِّنات. تغيِّير الجرح كان تعذيبًا،

والنازحون من حولنا جائعون وينامون في الممرَّات. المستشفى كان مُحاطًا بالدبَّابات الإسرائيليَّة، ولا يوجد ماءٌ في الحمَّامات. كانت الجثثُ تدخل أمام أعيننا. جاءت امرأةٌ مصابة، قالوا إنَّ أهلَها استشهدُوا جميعًا، ووُضعت معنا في الغرفة، كان ظهرها مفتوحًا بالكامل، ورأيت أحشاءها. بقيت في الغرفة هكذا أمامنا وأمام العالم عشرة أيَّام ثم ماتت. جوفها المرئيُّ لا يفارق رأسي. رأينا الفظائع، دخلتْ خمس حالاتٍ دفعةً واحدةً وخرجوا ميِّتين دفعةً واحدة.

تحت وابل القصف كنَّا نشعر وكأنَّ رؤوسنا تطيرُ في الهواء، عاجزين عن وصف الأهوال التي شاهدناها، والكلمات تبدو قاصرةً عن التعبير. الخوف كان يخيِّم علينا كظلالٍ سوداء، وأهلنا ماتوا، ومن بقي منهم فهو إمَّا مُصابٌ أو مفقودٌ بلا أثر. كنت أفكِّر في أطفالنا، أولئك الذين لم نرهم وصاروا الآن تحت التراب! رأسي لا يزال عالقًا في غزَّة، وكأنَّ القصف يحدث الآن داخله، لا يذهب أبدًا، أسمعُه دومًا وأعيشه باستمرار. أنا وأختي لا نعرف الراحة، نعيش وكأنَّنا تحت القصف الدائم، رؤوسُنا مليئةٌ بالضجيج. أذكر عندما كان الزجاج يتساقط علينا من النوافذ مع كلِّ قذيفة، وكيف كانت الأرض ترتجُّ تحتنا كزلزالٍ مستمرّ. كلُّ ما حولنا يهتزُّ ويتحرَّك، والستائر تتمزَّق، والأشياء تنقلب وكأنَّ العالم كلّه ينفجر من حولنا. كنَّا مُحاطين بالموت، وكان القصف لا يتوقَّف لحظةً واحدة، لم نكن نحظى حتى بفرصةٍ للراحة، بقينا مستيقظين نشتاق للنوم ولو لساعةٍ واحدة. لم تكن القذائف والصواريخ هي المشكلة الوحيدة؛ كانت الدبَّاباتُ

تحاصرنا، والزنّانات تملأ السماء، وكنّا ننتظر الرصاص الذي سيُطلقونه علينا في أيِّ لحظةٍ. الجثثُ كانت تسبح حولنا، ثم جاءوا وأطلقوا حزامًا ناريًّا حولنا في خان يونس، في منطقة الأوروبِّيّ، حول المستشفى، عشرات الصواريخ دفعةً واحدة. لماذا يقصفون مستشفى؟!

ما تبقّى من أهلي نزحوا إلى رفح، سكنوا في خيمة، وأنا وأختي في المستشفى نفكِّر فيهم وبما حلَّ بهم. بعد أن قصفوا حول المستشفى بحزامٍ ناريّ، خفنا، كانت الدبّاباتُ تُحيط بنا، وكنّا نسمع أخبار المجازر الأخرى في المعمدانيّ والشفاء وناصر، كان النازحون يأتون إلينا ويُخبروننا عن المقابر الجماعيَّة. عرفنا أنَّ هدفهم هو المستشفيات، وأنّنا سننتهي في مقبرةٍ جماعيَّة. أخبرنا النازحون أنَّ بعض الجنود الإسرائيليِّين كانوا يدخلون المستشفيات ويسرقون أعضاءَ الناس، حتى جلودهم، قالوا إنَّ هذا حصل في مستشفى ناصر. كانت قصصًا لا يصدِّقها عقل! كانوا يقتلون بلا هدف، يجمعون المرضى مع مرافقيهم ويقتلونهم معًا. الناجون أخبرونا بكلِّ تلك الأمور الفظيعة، ونحن رأينا من نوافذ المستشفى أحيانًا. كان الجنود الإسرائيليُّون يقتلون بشكلٍ فرديٍّ أو يجمعون الناس ويقتلونهم دفعةً واحدة. امرأةٌ قالت لجنديٍّ إسرائيليّ: «ابعد عنِّي أنا حامل»، فضربها في بطنها بالسلاح.

حصل كلُّ هذا، وأنا وأختي في المستشفى، مذعورتَيْن كبقيَّةِ الناس، وقلتُ لأختي يجب أن نخرج. كلُّ ما حولنا مُدمَّر، والناس من حولنا يتحوَّلون إلى جثثٍ مشوَّهةٍ بفعل الكوادكابتر.

جثثٌ مرميَّةٌ في الشوارع. كلُّ العبارات لا تستطيع أن تعبِّر عن الكوارث التي عشناها؛ الخوف كان يلفُّنا كغلافٍ أسود كثيف.

كلُّ شيءٍ كان يتداعى من حولنا. كنَّا نرى عبر النوافذ مشاهد الموت تتكرَّر ككابوسٍ لامتناه. كانوا يقتلون الناس بأبشع الأساليب، وفي كلِّ لحظةٍ كان الرعب يطاردنا. أُصبنا بهلعٍ شديد، وعجزنا عن البقاء في المستشفى، فقرَّرنا الخروج منه، وكان هدفنا الوحيد هو الوصول أحياء إلى خيمة أهلنا في رفح.

وصلنا إلى هناك، وأرسل لنا أخي سيَّارةً تنقلنا، ونجونا. لكنَّ الهروب من جحيمٍ إلى جحيم آخرَ لم يكن أقلَّ بؤسًا. عشنا في خيمةٍ في منطقة المواصي، لا توجدُ حمَّامات، منطقة خيم حيث لم تكن هناكَ مرافقٌ صحِّيَّة. الحمَّامُ كان مشتركًا لأكثر من ثلاثمئة شخص، وكانت خيمتُنا التي صارت سجنًا لنا موضوعةً على رمالٍ لا يمكن التحرُّك فوقها بكرسيٍّ متحرِّك. كانت الحياةُ في المخيَّم كابوسًا موازيًا، حيث كانت جروحي ملتهبة، وجسدي يعاني من الألم في الليل من البرد وفي النهار من الشمس، دون أدوية أو سرير أو طعام كاف.

وصلنا في ديسمبر، المخيَّم كان يعجُّ بالألاف، بلا ماء، وبأسعارٍ مثل النار. كان أخواي يسافران إلى مكانٍ بعيدٍ ليحضرا لنا الماء، ومع ذلك، لم نكن في مأمنٍ حتى هناك، فقد كانوا يقصفون رفح أيضًا. في النهاية، قرَّر أهلنا أن نترك الخيمة في رفح ونعود إلى بيتنا المدمَّر لنصنع خيمتنا فوق ركامه. كان الإسرائيليُّون في كلِّ مكان، يلاحقوننا أينما ذهبنا، ورغم ذلك، لم يتوقَّفِ القصف.

لم يتوقَّف الأمر عند هذا الحدّ. أخاف أن أقول ذلك! لكنَّ منظر الجثث صار عاديًّا، والأشدُّ فظاعةً كان نبشُ قبور الموتى. قال الناس إنَّ الجنود الإسرائيليِّين نبشوا قبور الناس وأخرجوا جثثهم، وقد نبشوا قبور أطفالي وسرقوا جثثهم. الحمد لله أنَّهم تركُوا قبر زوجي كما هو، ولكنَّهم لم يرحموا قبور أطفالي. قتلوهم، ولم يتركوهم بسلام حتى بعد موتهم! ماذا يريدون من جثث أطفالٍ صغار؟ ماذا سيفعلون بأجسادهم بعد أن قتلوهم!

لو سمعت هذه القصَّة لما صدَّقت، لكنَّها حصلت معي، لقد سرقوا جثث أطفالي، كيف يمكنني أن أنام بعينَيْن مليئتَيْن بالأسئلة: أين رفات أطفالي؟ لماذا سرقُوا جثثهم بعد أن قتلوهم؟ كيف سيهدأ بالي وأنا لا أعرف أين هم؟ أقضي ساعات الليل أتساءلُ عن مصيرهم، وينهشني السؤال من الداخل: أين أطفالي؟ أين رفاتهم الآن؟

محمَّد علاء عبد العال قرموط

16 سنة

مخيَّم جباليا

كنت في البيت يوم 5 نوڤمبر مع عائلتي الكبيرة؛ أخوتي الثلاثة، أختَيْن، أمِّي، أبي، عمَّتي وأولادها. في ذلك اليوم، قصفوا بيتنا. قصفوا قريبًا منَّا سابقًا، ولكنَّنا لم نغادر. بقينا حتى ذلك اليوم حين قصفونا ومات كلّ أهلي! جميعهم ماتوا، ونجوت وحدي. كنَّا نائمين، وكانت الساعة قرابة الثانية عشرة ليلًا، عندما بدأ القصف.

استيقظت بعد يومَيْن.

وجدت نفسي في المستشفى الإندونيسيّ.

أمِّي اسمها تحرير عيسى عبد الرزَّاق الكرديّ، ماتت أمِّي!

وأخواتي، بسمة، ومنيرة، ومحي الدين، وعزِّ الدين، ومريم، جميعهم ماتوا. عمَّتي وأولادها أيضًا ماتوا! جدِّي وجدَّتي، ذلك الصاروخ قتل خمسة عشر فردًا من عائلتي!

لم أكن واعيًا لأحكي لك تفاصيل ما رأيت بعد القصف، لا أستطيع. استيقظت في المستشفى محروقًا، وقد أزالوا جزءًا من طحالي، ولم أستطع تحريك قدميّ.

عندما أفقت في المستشفى الإندونيسيّ، كان محاصرًا من قِبَل الإسرائيليِّين. بقيت هناك حتى نهاية الحصار، وكنت آخر من خرج من المستشفى. لم أكن أعرف حينها حجم المجزرة التي حولي. لم يُخبرني أحدٌ أنَّ أهلي قد ماتوا. حالتي ميؤوسٌ منها، وأعمامي وأخوالي يقولون لي إنَّ أهلي مُصابون وسيأتون قريبًا. لم أستوعب! لم أكن أفهم ما حدث. كنت ألحُّ على رؤيتهم فقالوا إنَّهم نزحوا إلى الفالوجة. سألت وسألت، فقالوا إنَّهم في مستشفى الشفاء. في كلِّ صباحٍ أسأل عنهم، وأُعيد السؤال في المساء، وطوال النهار، لكن لم يكن هناك جواب. أحيانًا أصمت أيَّامًا ثم أعود للسؤال، ألحُّ عليهم باستمرار! كنت أطلب من الطبيب أن يُجيبني. عرفت لاحقًا أنَّهم يمنعون أن أعرف ما حدث. كلُّ من حولي يعرفون أنَّ أهلي ماتوا، إلَّا أنا. كلُّ يومٍ أستيقظ وأسأل، ولم أفقد الأمل!

صنَّفوا حالتي في المستشفى على أنَّها حرجةٌ وخطيرة. جسدي كلُّه كان محروقًا، حتى وجهي! وجهي احترق ولم يبقَ لي ملامح. اعتقدوا أنَّني سأموت. كانت عيناي مغلقتَيْن، لم أكن أرى بعيني اليسرى، وحتى اليمنى لم أكن أرى بها بوضوح. حتى

الآن، ما زلت أُجري عمليَّاتٍ جراحيَّةً لتعود ملامحي. أتذكَّر أنَّهم كانوا يعطوني نقطة ماءٍ واحدةً فقط. كنت أسمعهم يقولون إنَّني سأموت قريبًا، لم أكن فاقد الوعي كما يعتقدون. سمعت أشياء كثيرة، وفي كلِّ مرَّةٍ يأتي أحدهم لإلقاء نظرةٍ عليّ، كنت أخاف أن يأخذوني إلى المشرحة. عشت الحصار، لكنَّني عمليًّا لا أذكر الكثير من تفاصيله، ذهني مشوَّش.

أتذكَّر بعض التفاصيل. أذكر أنَّهم قالوا إنَّ القصف سيتوقَّف وإنَّ هناك هدنةً قادمة. كنت أعرف أنَّنا محاصرون، والدبَّابات حولنا، والقصف يُحيط بنا. لم أكن أقول شيئًا، لكنَّني ارتحت قليلًا حين سمعت أنَّ هناك هدنة. إلَّا أنَّ ما حصل عكس ذلك. بدأ القصف من جديد. شعرت بالرصاص يخترق الحائط خلفي. كنَّا نعلم أنَّنا لا نستطيع التحرُّك، وأنا لم أكن قادرًا على فعل أيِّ شيء، حتى الرؤية كانت صعبة. حاصرونا، ثم دخلوا

صحيحٌ أنَّني لم أستطع أن أرى، لكنِّي أسمع كلَّ شيءٍ بوضوح، أصواتٌ قادمة من عالمٍ مُظلم. عيناي مغلقتان، لكنَّني أسمع ضرب الرصاص وقصف الصواريخ وصيحات الألم والأنين. أسمع حركة الناس من حولي، فالسمع ظلَّ الوسيلة الوحيدة التي أملكها للتواصل مع العالم الخارجيّ. عندما أخرجوني، وضعوني على درج الباص. السيَّارات والباصات مكتظَّة، كما قيل لي، وكما شعرت. أستطيع أن أشمّ روائح الجروح والبشر، وأشعر بارتطام الأجساد حولي. انطلقنا أخيرًا، ثم وصلنا إلى حاجز نتساريم، فأوقفوا الباص وفتَّشونا، ثم أنزلوني مع الآخرين ووضعوني على الأرض. بقيت مُمدَّدًا، بينما ذهب الآخرون باتِّجاه الحاجز. وكما

أخبرتك، أنا لا أرى، ولا أمشي، ولا أتكلَّم، فقط مُستلقٍ على الأرض. شعرت بالجنود يسيرون من حولنا، وسمعت صوت أحذيتهم بوضوح. سمعت إطلاق النار، وسمعت أنَّهم قتلوا بعض الأشخاص واعتقلوا آخرين. بقينا ساعاتٍ على هذا الحال، ثم أخذونا إلى مستشفى ناصر.

بقيت في مستشفى ناصر، القصف مستمرٌّ طوال الوقت، والحصار هناك كان مشابهًا لحصار الإندونيسيّ، وكان علينا المغادرة لأنَّ الإسرائيليِّين كانوا على وشك اقتحام هذا المستشفى أيضًا. عدد المرضى كبير، وكنت أجري عمليَّةً بعد عملية. لم أعد أذكر لماذا أنا دائمًا في غرفة العمليَّات. وعندما دخل الجيش الإسرائيليُّ خان يونس، هرب بعض الأطبَّاء وبعض الناس، ثم قصف الإسرائيليُّون المستشفى. بقي بعض الأطبَّاء والمرضى تحت القصف الذي لم يتوقَّف، وكنت أسمعهم حولي يقولون إنَّه يجب إجراء عمليَّاتٍ لي باستمرارٍ وإلَّا سأموت بسبب تعفُّن قدمي. عيناي أيضًا تحتاج لعمليَّات، وكذلك يداي المحترقتان.

أخرجني عمِّي من المستشفى، قال إنَّهم سيدمِّرون المبنى، وما إن خرجت حتى قصفوه بالفعل. أخبرني عمِّي أنَّ الصاروخ الذي أصاب المستشفى سقط في الغرفة التي كنت أنام فيها، ومات الجرحى هناك!

أبي أستاذ فيزياء، وكنَّا سعداء. أذكر أنَّني كنت نائمًا عندما حصل القصف، كنت أظنّ، دون أن أعرف السبب، أنَّ القصف حولنا، ورغم موت الناس، فإنَّنا سنكون بخير. لا أعلم لماذا لم نكن خائفين، ولا أعلم لماذا بقينا!

نمت، واستيقظت لأجد حياتي قد انقلبت، اختفت حياتي كلُّها، ولا أستطيع أن أفهم ذلك. كذَّبوا عليَّ في البداية ولم يُخبروني الحقيقة. انتظروا شهرَيْن لأنَّهم كانوا خائفين عليّ، ثم أخبروني! أذكر أنَّ عمِّي كان يسألني: من لم يكلِّمك ويطمئن عليك؟ فأقول: أمِّي. فيقول: «استشهدت!»، ثم يُعيد السؤال مرَّةً أخرى: ومن أيضًا؟ فأجيب: أبي. فيقول: «أبوك استشهد!»، ثم يسأل مجدَّدًا: «ومن غيره؟»، فأقول: عمَّتي، فيُجيب: «استشهدت». وهكذا عرفت بموتهم واحدًا تلو الآخر. سألت عن جدِّي، فقال: «جدُّك انجلط ومات قهرًا عليهم».

نسيت كلَّ من كانوا يحيطون بي، نسيت أصدقائي، أنسى الكثير، بدأت أتذكَّر القليل فقط. لا أستطيع تذكُّر وجوه أهلي، وحين رأيت صورهم تذكَّرت بعض الملامح، لكن ليس بوضوح. أحاول أن أتذكَّر، لكن ذاكرتي ضعيفة ولا أتذكَّر الكثير!

أريد العودة إلى غزَّة، أنا الوحيد الباقي من عائلتي، وعمِّي هناك، ولا بدَّ لي من العودة. طحالي استؤصل جزءٌ منه، ونجوت، رغم أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّني لن أعيش، وأنَّني لن أرى مرَّةً أخرى.

مكتبة سُر مَن قرأ

أتذكَّر أنَّني أجريت عمليَّاتٍ كثيرةً في عينيَّ وفي أجزاء جسمي المحترق! أتذكَّر أيضًا تلك الأجساد الممزَّقة، والشهداء حولي، كان ذلك مشهدًا يصعب استيعابه. أشعر أنَّ ما حدث ليس حقيقيًّا، وكأنَّني أنا نفسي لست حقيقيًّا، وأقول الحمد لله، لكن كيف مات الجميع؟!

كنَّا نعيش حياةً عاديَّة، كنَّا صغارًا. أخي الأكبر يدرس هندسة الإلكترونيَّات، أمَّا أنا فحلمت أن أُصبح طبيبًا بيطريًّا. أختي مريم الصغيرة، كانت في الرابعة من عمرها، أختي التي أحبُّها! مات الجميع، بنات عمَّتي، رهف وسارة وديما، بنات عمَّتي أيضًا جميعهنَّ رحلن.

أحاول أن أتذكَّر لكن لا أذكر بوضوح.

نعم، أذكر أنَّنا لم نُرد مغادرة منزلنا، لأنَّ غزَّة كلَّها تتعرَّض للقصف، وليس هناك من مكانٍ آمن. أذكر أنَّني نسيت الكثير عن حياتي قبل الإصابة. أمَّا ما أذكره من حياتي بعد الإصابة فهو ممَّا يقوله لي من حولي، أذكر القليل من حياتنا كعائلة. تعود بعض الصور إلى رأسي، لكن لا أفهم كثيرًا معاني الكلمات. أذكر فقط أنَّني كنت أريد أن أدرس الطبَّ البيطريّ، وأنَّني كنت أحبُّ الحيوانات ربَّما!

سَجَى ياسر صالح

23 سنة

دير البلَح، غزَّة

كنت أسعد امرأةٍ في العالم، هذا ما كنت أشعر به حقًّا. زوجي، يعقوب العرقان، ألطف إنسانٍ يمكن لأحدٍ أن يراه ويتعامل معه. شابٌّ في 29 من عمره، وسيمٌ إلى أبعد حدّ، لطيفٌ فوق الوصف، ويعمل طاهيًا للمندي، نعم! تلك الأكلة اليمنيَّة الشهيرة. تزوَّجته قبل ثلاث سنوات، أحببته أكثر من أيِّ مخلوقٍ آخر، أحببته أكثر ممَّا أحببت أحدًا. حنون، كريم، موهبته فطريَّةٌ في جعلِ البيت مفعمًا بالحبِّ والتفاهم والرضى، كاملٌ إلى الدرجة التي تجعلك تشعرين فيها أنَّه غريبٌ عن هذا العالم، إنَّه ليس من هذه الأرض. ملأ عليَّ حياتي، وكنت مستعدَّةً أن أهبه

عمري كلَّه دون أدنى تردُّد. كانت عيشتي معه هانئة، معه سكنت في بيتٍ من مبنى توزَّعت على شققه عائلة زوجي كلّها: والداه، أعمامُه، إخوته وزوجاتهم وأولادهم، ونحن. عشر عائلاتٍ سكنت المبنى نفسه. رزقني اللهُ طفلةً أسميناها ميرا، عمرها وقف عند سنةٍ وسبعة أشهر. وحين بدأت الحرب كنت حبلى بشام، وكانت نيَّتي أن أمارس التدريس بعد أن أَلِد، فقد درست اللغة الإنكليزيَّة في الجامعة، وأحببت أن أُعينَ زوجي في شؤون حياتنا اليوميَّة. ليس من السهل إيجادُ فرصةٍ للعمل، فالوظائف قليلة، وأعرف من تخرَّج من الجامعة قبلي ولم ينل فرصته المهنيَّة بعد، لذا كنت أُفكِّر في فتح معهدٍ خاصٍّ لتدريس اللغة، وحتى ذلك الحين كثيرًا ما كنت أساعد زوجي في الطبخ.

ولدت ابنتي شام في دار أهلي في مخيَّم النَّصيرات، حدث ذلك نهاية نوڤمبر، كان القصف في كلِّ مكانٍ في المخيَّم. لم أستطع البقاء بعيدةً عن زوجي، فقرَّرت العودة فورًا إلى بيتنا على الرَّغم من المخاطرة. نجوت مع شام من الموت بأعجوبة. وحين صار عمرها أسبوعَيْن، وكنت لا أزال في فترة النّفاس، ذهبت بها إلى العيادة لتأخذ لقاح السلّ. في طريقِ عودتنا طال القصف حيَّنا، في منطقة البُروكِ في ديرِ البلح. رأيت ذلك! في البداية ظننت أنَّ الصواريخ نزلت على بيتنا. ركضت نحوه مثل المجنونة وحضنت ابنتي ميرا حامدةً اللهَ أنَّها بخير. تكسَّر زجاج البيت، تخلَّعت أبوابه وشبابيكه، وامتلأ بدخانٍ أسود ذي رائحةٍ غريبةٍ بشعة. الكلُّ يقول إنَّ هذه الصواريخ مزوَّدةٌ بسموم. لا أستبعدُ ذلك، فدخانها يجعل التنفُّس صعبًا ومؤلمًا، تشعرينَ بتقطُّع

أحشائك مع كلِّ نفس، ويسبِّب لك السعال الشديد والصداع. لكنَّ الصاروخ لم يصب بنايتنا مُباشرة، نزل على دار جيراننا من آل مطر. أذكر أنَّ ثمانية منهم قتلوا مباشرةً في إثر القصف. صار بيتنا في حالٍ مزرية، لكن لأنَّ قرارنا كان البقاء فيه مهما حدث، فقد بدأت وزوجي بتنظيفه، يدي على يده. استغرق منَّا الأمر النهار بطوله، من الصباح إلى المساء. أخذنا نزيل الشظايا والأتربة والأوساخ، بينما كان جيراننا يخرجون موتاهم.

لا أنكر أنَّ تلك الأيَّام منذ السابع من أكتوبر كانت صعبةً للغاية، لكنَّ وجود زوجي وابنتيَّ معي هوَّن عليَّ المصائب. كان يكفيني أنَّنا بخيرٍ معًا لأتجاوز كلَّ الأهوال. مساء، حين انتهينا، كان التعب هدَّ جسدَيْنا، لكنَّ البيت عاد نظيفًا مرتَّبًا صالحًا للسكنى. قرَّرنا البقاء في البيت مهما حدث، عشنا فيه وسنموت فيه. ثم إلى أين نذهب؟ لا أزال نفساء، شامُ لم تتجاوز الأسبوعَيْن، والفصل شتاءٌ والجوُّ بارد. سنبقى. في نهاية ذلك النهار المتعب قال زوجي: أنا جعت، اعملي لنا عشاء. كنت في المطبخ أعدُّ العشاء، وميرا عند جدَّتها التي تعيش في البناء نفسه، وزوجي مستلقٍ ينتظر الطعام، حين قصفونا بصاروخَيْن. كان ليلًا وشبكة الإنترنت مقطوعة، اعتدنا منهم أن يفعلوا هذا كلَّما أرادوا قصف منطقة، يريدون أن يقتلونا في غفلةٍ من عيون العالم. ضربونا بصاروخَيْن، واحدٍ في أعلى البناء وواحدٍ في أسْفله، كأنَّهم بذلك أرادوا ألَّا يتركوا مجالًا لنجاة أحد. يقع المطبخ في زاويةٍ جانبيَّةٍ مرتفعًا قليلًا عن البناءِ الرئيس، وأنا فيه رأيت لمعان الصاروخ وسمعت صفيره. شيءٌ مثل لمح البصر، رأيت لمعانًا

خاطفًا وسمعت صفيرًا حادًّا فقلت: أشهد أن لا إلٰه إلَّا اللهُ، ودوَّى الانفجار. حدث كلُّ شيءٍ في طرفةٍ من عَيْن. طار بي الانفجار بعيدًا عن مكان القصف، والصاروخان هدما البناء بأكمله. هبطت بنايتنا كلُّها على الأرض. في تلك الضربة قتل عشرون شخصًا دفعةً واحدة، من بينهم زوجي وابنتاي، وأصيب سبعةٌ آخرون إصاباتٍ خطرة. مات زوجي جائعًا. كلَّما فكَّرت في ذلك أحسست قلبي يتحطَّم. وأنا تحت الرُّكام، بعيدًا عن مكان القصف حيث أسقطني الانفجار، ظننت أنِّي على وشك الموت اختناقًا. فوقي ردم، وفي صدري دخان، ومن تحتي تصلني أصوات صراخ لنساءٍ وأطفالٍ كانوا مدفونين أسفل منِّي. لم أستطع الصراخ، ولا التنفُّس، ثم أحسست فجأةً أنَّ دفقةً من الريح دخلت رئتيّ. بقيت أفكِّر في زوجي وابنتيّ، وتمنَّيت من اللهِ، بكلِّ إيمانٍ ويقين، أن يميتني ويأخذني معهم إن كانوا استشهدوا. حينها أغمضت عينيَّ وكلِّي اعتقادٌ أنِّي لن أفتحهما ثانية. كنت في عتمةٍ تحت الركام أفكِّر بعائلتي وأسمع الصراخ والأنين لمَّا دخلت الريح رئتيَّ وتنفَّسْت. وجدت نفسي مدفونةً بشكلٍ كامل، ورأيت فتحةً صغيرةً جدًّا استطعت أن أُمرِّر أصابعي منها. لم أصدِّق أنِّي لا أزال حيَّة، لم أُصدِّق أنِّي لم أمت. أخرجت أصابعي من الفتحة وبدأت أُحرِّكها، بقوَّةٍ بادئ الأمر، ثم بوهنٍ إذ عاودني شعوري بصعوبة التنفُّس واقتراب الموت. لا بدَّ أنَّهم رأوا أصابعي فبدؤُوا الحفر لانتشالي، أربعة شبَّانٍ حفروا بأيديهم. لم تكن لديهم أدواتٌ أو آلات للحفر، ولا كهرباء أو وقودٌ لتشغيلها إن وجدت، لكنَّهم حفروا حتى أخرجوني. متأكِّدةٌ

أنَّهم فزعوا أوَّل الأمر حين رأوا رجلي ملقاةً على بطني. أخرج أحدهم رجلي أوَّلًا، كانت تتأرجح بيده مثل خرقة، ثم أكملوا انتشالي. وضعوني بعدها على غطاء سرير، شيءٍ مثل نقَّالةٍ بدائيَّة، ومشوا بي بين أكوام الركام ثم أخذوا يهرولون.

أعي كلَّ ما حدث في تلك الساعة، لم أقْوَ على الكلام، اكتفيت بالإشارة لهم إلى مكان زوجي وابنتيَّ ليذهبوا إليهم ويساعدوهم. وصل بي الشبَّان الأربعة إلى الشارع، وهناك وضعوني على فراشٍ ملقى على الأرض. لم أكن الوحيدة، أحاطت بي عشرات الأجساد، عن يميني وعن شمالي ومن كلِّ جهة، أجسادٌ لمصابين وأجسادٌ لقتلى، جثث. لم أكن أشعر بالألم بعد، بل لم أكن أشعر بشيء، لا بخوف ولا غيره، كنت أُفكِّر بزوجي وابنتيَّ فقط، كنت أريد الاطمئنان عنهم. في الشارعِ ـ وأنا بين الأجساد المرصوفة بجانب بعضها بعضًا ـ لفُّوا رجلي بشاشٍ ثم أخذوني إلى مستشفى شهداء الأقصى. الحادي عشر من ديسمبر، كيف يمكن أن أنسى ذلك التاريخ يوم قُصفنا؟ الوضع كارثيٌّ في المستشفى، المصابون في كلِّ مكان، قسم الاستقبال كان ممتلئًا عن آخره. من جديدٍ وضعوني على الأرض بين عشرات الأجساد المرميَّة وعشرات الأجساد التي تمرُّ وتمشي من فوقنا. رأيت مصابين فقدوا أطرافهم، وآخرين تمزَّقت أجسادهم، وغيرهم فتحت بطونهم ورؤوسهم. زحامٌ شديد، فوضى، صراخٌ وألمٌ في كُلِّ مكان، والطاقم الطبِّيُّ عاجزٌ عنْ استيعاب أعداد المصابين والتعامل معهم. قالوا إنَّ إصابتي طفيفة! إي والله! رجلي مقطوعةٌ وعظامي تبرز عاريةً للهواء وإصابتي تُعدُّ من

الإصابات الطفيفة. معهم حقّ، إصابتي ليست من بين الإصابات الخطيرة أو القاتلة التي تتطلَّب تدخُّلًا عاجلًا. لذا اكتفوا ساعتها بوضع محلولٍ معقِّمٍ على رجلي وانصرفوا يهتمُّون بباقي المصابين. ثم سمعتهم يذكرون بعض الأسماء. ذكروا اسم والد زوجي، أبو إبراهيم يعقوب العرقان وزوجته فايزة من بين الشهداء. حينَها تذكرت أنَّ ابنتي ميرا كانت مع جدَّتها لحظة القصف وأنا أعدُّ العشاء في المطبخ. في تلك اللحظة استطعت الكلام، صرخت بكلِّ ما عندي من قوَّة: بنتي معهم؟ لم يردَّ عليَّ أحد، قلت في نفسي: إنْ ماتت جدَّتها فلا بُدَّ أن تكون ميرا ماتت معها. ثم مرَّ من بين الأجساد جارٌ لنا، هو صديقٌ لزوجي، قلت له: اذهب لزوجي وبناتي وطمِّنّي عنهم. غير أنِّي لم أسمع منه خبرًا. تبيَّن لاحقًا، أنَّه بسبب شدَّة القصف وصعوبة عمليَّات الانتشال، لم يستكملُوا استخراج الجثث إلَّا في الصباح.

أخبرني أبي أنَّ زوجي وابنتيَّ بخير، وأنِّي سأراهم بعد أن أتعافى، والمهمُّ الآن أن أُجري العمليَّة. بتروا لي رجلي، وخاطوا نصف الجروح في جسدي المثخن تاركين النصف الآخر مفتوحًا، وبدأت رحلتي مع الآلام والمسكِّنات. الألم فظيع، أظلُّ أصرخ وأبكي بسببه، وثدياي تحجَّرا. امتلأ صدري بالحليب، ظلَّ يفرزه من أجل شام. تراكمت فيَّ الآلام: ألم بتر رجلي، وألم الجروح، وألم صدري المتحجِّر، وألم الشوق لزوجي وابنتيّ. لِمَ لا يأتون إليّ؟ لِمَ لا أراهم؟ لِمَ لا أضع شام على صدري وألقمها الثديَّيْن؟ أظلُّ أصرخ وأغيب عن الوعي ثم أصحو أسأل عن زوجي. زوجك في العناية المركَّزة ووضعه الآن صعب، قال

أبي. اصبري قليلًا وسيخفُّ تحجُّر صدرك شيئًا فشيئًا، قالت أُمِّي. لم أصدِّق، لم أقتنع، لم يطمئنَّ قلبي، هاتوا لي شام على الأقلِّ لترضع! قالت أمِّي إنَّ ابنتي بخير، ولكن لا يصحُّ الإتيان برضيعةٍ لم تتجاوز الأسبوعَيْن إلى مستشفى يعجُّ بالمكروبات، قد تلتقط عدوى خطرة. مضى أسبوع، رأى أبي أنِّي تماثلت للشفاء قليلًا فصار بوسعه أن يقول لي بوضوحٍ وبكلماتٍ معدودة: زوجك وبناتك استشهدوا، الحمد لله. ردَّدتُ وراءه: الحمدُ لله. زوجي يعقوبُ محبوب، كلُّ من رآه وعرفه أحبَّه، ألطف رجلٍ في العالم، مات. ميرا، النسمة التي كانت ساعتها تمرح في حضن جدَّتها، ماتت. شام، التي لم يطق العالم وجودها أكثر من أسبوعَيْن وامتلأ صدري بالحليب في انتظارها، ماتت. الحمد لله.

لم أكفَّ لحظةً واحدةً عن التفكير فيهم مذ علمت بموتهم. ما توقَّفت لحظةً واحدةً عن استعراض احتمالات نجاتهم. كان الإسرائيليُّون يقصفون الجرَّافات التي تشارك في عمليَّات الحفر والانتشال، يقصفون سيَّارات الإسعاف التي تحاول إنقاذ المصابين، يقصفون الطرق والمستوصفات والمشافي. ظلُّوا يفعلون ذلك دون انقطاع. لولا أفعالهم هذه، ألم تكن توجد فرصةٌ لإنقاذ أرواحٍ كثيرة؟ أما كان من الممكن أن ينجو زوجي وابنتاي؟ أليس من الوارد أنَّه كان بهم رمقٌ من حياةٍ تحت الركام وكان يمكن إنقاذهم لو توفَّرت أدوات الحفر؟ كانوا حياتي كلَّها، بقيت أفكِّر فيهم وأنا ممدودةٌ على السرير في المستشفى، أتذكَّر كلَّ لحظةٍ عشناها معًا وأشعر أنَّ روحي تنسلخ من جسمي. لم أكن أتوقَّف عن البكاء، والمسكِّنات تهدِّئ أوجاعي قليلًا فأنام

بسببها لأصحو فزعةً على حقيقة اختفاء عائلتي. دفنوا جميع من قضى في قصف بنايتنا في حفرةٍ واحدة، قبرٍ جماعيّ. لم يتمكّنوا من إخراج الجثث كلِّها، بقي بعض شهداء العائلة تحت الأنقاض. لم تخرج كلُّ الجثث كاملة، كان بعضها أشلاء ممزَّقةً وقطعًا من اللحم متفاوتة الحجوم. حمدت اللهَ كثيرًا أنَّ جثث زوجي وابنتيَّ كانت كاملة، عزَّيت نفسي كثيرًا بأنَّهم لم يبقوا تحت الأنقاض، لم يتحوَّلوا إلى غبار، لم يخرجوا مِزَقًا وفُتاتًا. خرجوا كاملين ودُفنوا في قبرٍ على الشاكلة التي خلقهم بها اللهُ في أحسن تقويم..

في فترة وجودي في المستشفى بقينا مهدَّدين بالقذائف والكوادكابتر. هذه الأخيرة مروحيَّاتٌ مسيَّرة، صغيرة الحجم، أسمِّيها القاتلة الطائرة. كنت أشعر أنَّها تعيش بيننا. ليس صحيحًا أنَّها للتصوير والمراقبة فقط، كانوا يقتلوننا بها. هي التي قتلت عمَّة زوجي وخالته، هي التي قتلت بعض أصدقائنا. كائناتٌ مرعبة، قتلةٌ آليُّون، وحوشٌ صمِّمت للقتل، يصطادوننا بها كذا بكلِّ بساطة. ماذا يريدون؟ أعرف ما لا أريده: لا أريد التشرُّد، ولا أريد العيش في خيمة، لذلك بقينا. أكان ممكنًا لو خرجنا أن نعود؟ نعرف عائلاتٍ خرجت منذ عشرات السنين بعد أن طردها الإسرائيلِيُّون، ولم تعد إلى الآن. ولأنَّنا تمسَّكنا بأرضنا قرَّروا قتلنا. قصفوا كلَّ شيْء: البيوت، المدارس، المشافي، خزَّانات المياه، خزَّانات الوقود، كلَّ شيء. قتلُوا كثيرين، أغلبهم نساء وأطفال، ولا أصدِّق الأرقام الرسميَّة، الأرقام الحقيقيَّة ستتكشَّف مع الأيَّام وستكون أكبر بكثير. وما أقوله لم يَرْوِهِ لي أحدٌ ولم

أسمعه في نشرات الأخبار، رأيته وعشته بنفسي. يقولون إنَّهم يريدون القضاء على حماس، ثم ترينهم يقصفون سيَّارات الإسعاف والخيام ومراكز إيواء النازحين والمدارس والمستشفيات. وهم في ذلك يستخدمون كلَّ ما أُتيح لهم من أسلحة: الطائرات تُلقي حمولاتٍ تمسح مربَّعاتٍ سكنيَّةً كاملةً في لحظات، الدبَّابات تقذف قذف عشواء، الفسفور، الصواريخ المزوَّدة بسمومٍ نجهل ما تكون لكنَّنا نُعاني من آثارها ونرى أعراضها علينا.

أريد للعالم كلِّه أن يعرف؛ ابنتيّ. ميرا العرقان، عمرها سنةٌ وسبعةُ أشهر، وشام العرقان، عمرُها أسبوعان، وهما الآن عصفورتان في الجنَّة. اسم زوجي، يعقوب العرقان. الإسرائيليُّون قتلوا يعقوب وطفلتَيْه. الإسرائيليُّون قتلُوا ألطفَ رجلٍ في العالم وأجمل زوجٍ على وجه الأرض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عبدَ الله يوسف عكيلة

13 سنة، الصفُّ الثامن الإعداديّ

شمال غزَّة، مخيَّم الشاطئ

يعملُ أبي موظَّفًا إداريًّا في مطعمٍ إضافةً لعمله كمصوِّرٍ صحافيّ، أمَّا أمِّي فقد أنهت دراستها الجامعيَّة في اللغة العربيَّة. لديَّ أخٌ صغيرٌ يبلغ من العمر 6 سنوات، وأخي الأكبر عمره 22 عامًا وأختي 19 عامًا. كنَّا نعيش بسعادةٍ وكرامةٍ معًا كعائلة. في فجر السابع من أكتوبر، سمعت الصواريخ تنطلق من غزَّة. اعتقد الناس أنَّ فلسطين ستتحرَّر، أنا أستمعُ إلى أحاديثهم رغم أنِّي لا أفهم تمامًا. ومن ثم اندلعت الحرب، بدأ الإسرائيليُّون قتلنا وتهجيرنا. بقيت عائلتي في البيت، لم نغادر رغم القصف المستمرّ. وصل الإسرائيليُّون إلى شارعٍ قريبٍ منَّا، كانوا يقصفون

البيوت دون توقُّفٍ ويرمون مناشير تطالبنا بالرحيل من الشمال إلى الجنوب. في النهاية، قرَّرنا النزوح إلى منزل عمِّي في حيِّ الصحابة شرق غزَّة. نزحنا إلى هناك، لكنَّ القصف لم يتوقَّف، ولم يختلف الوضع كثيرًا. ولأنَّ بيتنا كان قريبًا من الحدود مع الإسرائيليِّين، فضَّل أهلي الانتقال إلى بيت عمِّي. الحياة هناك صعبةٌ جدًّا، كنت أمشي لمسافاتٍ طويلةٍ للحصول على الماء للشرب. أحمل الماء لأهلي يوميًّا. في بيت عمِّي، هناك أكثر من خمسةٍ وأربعين شخصًا في مبنى واحد، مع نقصٍ في الطعام والماء، وانعدام الكهرباء. مرَّت الأيَّام بصعوبة، حتى عندما أعلنوا عن هدنةٍ لمدَّة سبعة أيَّام؟ هل استمرَّت الهدنة لفترةٍ أطول! لا أذكر تمامًا تفاصيل تلك الفترة.

كان ذهني مشوَّشًا، وما أذكره بوضوحٍ هو أنَّ القصف لم يتوقَّف. رأيت الأبنية تنهار من حولي، عشنا تحت هذا الخوف المستمرّ. لم يكن القصف عاديًّا، بل استخدموا الأحزمة الناريَّة، مشاهد الدمار مرعبة. شعرت بالخوف، لكنِّي لم أكن أُعبِّر عن ذلك أمام عائلتي حفاظًا على هدوئهم. مع بداية الهدنة، قرَّر أبي أنَّنا لن نخرج من المنزل مهما حدث، حتى لو اقتحم الجيش الإسرائيليُّ المنطقة برًّا. أختي خائفة، كانت تبكي وتريد النزوح، وفي النهاية استجاب أبي لأنَّ الأخبار كانت تؤكِّد أنَّ الاقتحام البرِّيَّ قادم، وأنَّ الإسرائيليِّين يقتلون كلَّ من يصادفونه. قرَّرنا المغادرةَ في آخر يومٍ من الهدنة، عند الساعة السابعة صباحًا بدأ القصف، فخرجنا من المنزل.

أخي الأكبر بقيَ مع عمِّي في معسكر الشاطئ، حيث أصرَّ

عمِّي على البقاء في داره حتى الموت، ورفضَ أخي الأكبر تركه. أمِّي مصمِّمةٌ على الخروج، لكنَّها في الوقت نفسه خائفةٌ جدًّا. أنا رغبت في البقاء مع أخي، لكنَّني لم أتحدَّث ولم أقل. أنا الابن الأصغر، نظراتُ أمِّي كانت ستكفي لجعلي أصمت وأمشي معهم. وفي كلِّ الأحوال، كنَّا سنخرج، لأنَّ الإسرائيليِّين أرسلوا أوامر واضحةً بأنَّ من يبقى سيُقتل. حملنا أمتعتنا، أنا وأعمامي وعمَّاتي، وركبنا في حافلةٍ تابعةٍ للأونروا. كنَّا ستَّة عشر شخصًا في حافلةٍ تحمل شعار الأمم المتَّحدة وعلمها. فضَّل أبي البقاء مع جدَّتي المقعدة، وقال لنا إنَّه سيلحق بنا في الدفعة الثانية. هكذا، تركنا أبي وذهبنا وحدنا.

ركبنا الحافلة وانطلقنا، القصف مستمرٌّ حولنا. قالوا لنا إنَّ الحافلات التابعة للأونروا لن تُقصف، وكنت أرى وأسمع القصف من حولي. أذكر أنَّني كنت أرتجف من الخوف، الحرب تحاصرنا من كلِّ جانب. عندما وصلنا إلى ملعب فلسطين، تعرَّضنا للقصف، أطفالٌ ونساءٌ داخل الباص. وكان السائق موظَّفًا من الأونروا. لم تكن قذيفةً واحدةً التي سقطت علينا، بل عدَّة قذائف! الجميع احترق، أعمامي، أمِّي، وكلُّ أهلي! كنت في قلب الباص عندما سقط الصاروخ، رأيت لونًا أحمرَ يغمرُ كلَّ شيء. أذكر أنَّني بدأت أضرب جسدي، لم أفقد الوعي، أخذت أضرب وجهي المحروق، معتقدًا أنَّني في كابوسٍ وأردت أن أستيقظ، ولم يكن كابوسًا. حدث كلُّ شيءٍ في رمشةِ عين، كان الاحتراق كبيرًا والانفجار هائلًا!

كنَّا قد حملنا معنا بعضًا من أثاثنا من البيت، بما في ذلك

جرَّة غازٍ وعبوة بنزين، وعندما قصفونا، انفجر الباص بأكمله. رأيت أمِّي تحترق أمام عينيّ! سمعتها تنطق الشهادة، وأختي كذلك ماتت أمامي، رأيتها تحترق. زوجة عمِّي وابنتها احترقتا أيضًا، مُتْنَ احتراقًا داخل الباص. كان هناك قنَّاصٌ خلفنا، وطائرة «الكوادكابتر» فوقنا، القنَّاص أطلق النار على الباص المحترق، وقصفتنا الطائرة. ستَّة عشر شخصًا في الباص، مات أربعة، وخرجنا نحن الاثنا عشر الباقين أحياء، أحياء ولكن محترقين.

أذكر أنَّنا مشينا ونحن نعاني من الحروق الشديدة حتى وصلنا إلى سيَّارة الإسعاف. لم أشعر بالآلام فورًا من شدَّةِ الضربة، لكنَّ الألم بدأ عندما صعدنا سيَّارة الإسعاف. كان ذلك في يوم الرابع من ديسمبر. حاولت أن أواسي أخي الصغير الذي يبلغ 6 سنوات، كنت أقول له: «هذه لعبة»، محاولًا التخفيف عنه. أخذونا إلى مستشفى المعمدانيّ، لكن لم تكن هناك أدويةٌ ولا أيُّ شيءٍ يساعدنا. وجهي احترق وانتفخ وصار لونه أسود، وأخي كان غائبًا عن الوعي، المستشفى لم يكن يبدو كمستشفى. وجهي يؤلمني بشدَّة، وعندما رأيت شكلي شعرت بالرعب. أخي جاد، حالته أسوأ، لديه ثلاثة كسورٍ في رجلَيْه وحروقٌ شديدة. عندما وصلَ أبي إلى المستشفى، لم يتعرَّف عليَّ في البداية. قالوا له: «هذا ابنك!»، أخذ ينظر إليَّ مذهولًا. ثم ذهب ليرى أخي، وعاد يبكي. أخبرني بذلك لاحقًا. كنت أسمع ما يدور حولي بصعوبة، والألم ينهشني. أخي الصغير كان يطلب الماء باستمرار، وأبي ينظر إليه بعينَيْن مليئتَيْن بالأسى. من طرف عيني، رأيت ما

يحدث. أخي جاد كان كتلةً لحميَّةً محترقة، سمعته يطلب أن يرى أمَّه. لم أكن أفهم ما يجري حولي بوضوح. في اليوم التالي، شعر أبي وهو يمسك بيدي أخي أنَّ يدَيْه باردتان، قال الطبيب إنَّ أخي قد مات. بالكاد كنت أستطيع سماع ما يحدث، الآلام تقتلني، حروق وجهي وجسدي والشظايا المؤلمة تعيقني عن التفكير، لم أستطع أن أودِّع أخي كما كنت أتمنَّى. بعد وفاة أخي ودفنه، عاد أبي إلى موقع الباص المحترق، حيث بقيت أمِّي وأختي وزوجة عمِّي وابنتها طوال الليل يحترقن. لم يتمكَّن أحدٌ من الاقتراب من الباص المحترق بسبب استمرار القصف والقنص. ومع ذلك، عندما مات جاد ودفنوه، قرَّر أبي، كما أخبرني لاحقًا، أن يعود إلى الموقعِ رغم القنص والقصف لانتشال جثث أمِّي وأختي والعائلة. وجدهم قد تفحَّموا بالكاملِ. دفنوا أمِّي وأختي وزوجة عمِّي وابنتها في كفنٍ واحد. أخبرني أبي أنَّهم كانوا حتى أقلَّ من كفن، مجرَّد كتلٍ محترقةٍ صغيرة. هكذا دفنوهم معًا، أشلاءً متفحِّمةً بفعلِ النيران والدمار.

عادَ أبي إليَّ بعدَ دفنهم، الألم يشتدُّ عليّ، وليس هناك مسكِّنات، ولم أكن قد رأيت وجهي بعد. لاحقًا اكتشفت أنَّني مشوَّهٌ لهذه الدرجة. الحروق شديدةٌ وصعبة، والوجع لا يُحتمل. أصعب شيءٍ في الحياة هو الحروق، ودرجة حرقي كانت ثلاثة درجاتٍ ونصف الدرجة. ظلَّ أبي لأيَّام يبحث عن أدوية الحروق، كنَّا تسعة مُصابين بحروقٍ شديدة، لكن تمَّ إخراجنا من المستشفى، لأنَّه ليس هناك أيُّ فائدةٍ من بقائنا. لا توجد أدوية، ولا مسكِّنات، ولا حتى أسِرَّةٌ لنا، ولا مكان نستطيع البقاء فيه.

استمرَّ أبي في البحث حتى وجد شاشًا ومحاليل طبِّيَّةً بصعوبة. بدأنا نشمُّ رائحة أجسادنا المتحلِّلة، كان ذلك عذابًا لا يُطاق. عدنا إلى معسكر الشاطئ، إلى بيتنا! ليس لدينا مكانٌ آخر نذهب إليه، فعدنا إلى المكان الذي هربنا منه. حاول أبي معالجة جروحنا، لكن مع استمرار القصف وغياب الأدوية والطعام والشراب، شعرنا بأنَّنا سنموت جميعًا. لكنَّ الخوف الأكبر كان من العفن، أن تتعفَّن أجسادنا. تمنَّيت الموت حينها، وصرت أدعو اللهَ أن أموت.

اعتقدتُ أنَّ القصف سيقتلنا، انتظرت الموت، لكنَّه لم يأت. قرَّر أبي في النهاية أن نذهبَ إلى معبر رفح في محاولةٍ لإنقاذي. قال إنَّ علينا أن نمشي إلى المعبر، لديه صديقٌ صحفيٌّ يريد مساعدتي في العلاج. أخبرنا هذا الصديق أن نخرجَ بين التاسعة صباحًا والثانية ظهرًا، لكنَّ الناس من حولنا حذَّرونا، وقالوا إنَّنا سنموت تحت القصف أو القنص. ومع ذلك، أصرَّ أبي. خرجنا مشيًا، وأوصلونا إلى جامع الشيخ عجلين باتِّجاهِ الجنوب. ذهبنا أنا وأبي مشيًا، نحمل علمًا أبيض. كنت ملفوفًا بحروقي، لا أستطيع فهم كيف تمكَّنت من المشي! كنت خائفًا من الشمس، لكنَّ السماء كانت غائمة، فتابعنا السير. مررنا بحاجزٍ إسرائيليّ، ومشينا ساعاتٍ طويلة، استمرَّ القصف من حولنا. رأينا أشياء مرعبة، وأبي كان يحمل أربع حقائب والعلم الأبيض. في النهاية، وصلنا بعد عبور وادي غزَّة، وجاءَ ابن عمَّتي ليأخذنا إلى المعبر.

ما زلت لا أفهم ما حدث لنا! كان علم الباص أزرق، علم

الأونروا، اعتقدت أنَّهم لن يقصفوا باصًا تابعًا للأمم المتَّحدة. لكنَّني كنت مخطئًا. لماذا كان القنَّاص يصوِّب إلى الجثث المحترقة! لماذا كانت الطائراتُ «الزنَّانة» تعاود قصف الباص! أنا ما زلتُ صغيرًا كما يقولون، عمري 13 عامًا ونصف الآن، لكنَّني أفهم الكثير. رأيت الموتى والجرحى، الأصعب رؤية من فقدوا أطرافهم، لا يمكنني وصف الألم الذي شعرت به. أنا لم أعد طفلًا. ماذا يعني أن أفقد أهلي؟ ماذا يعني أن يموت أخي جاد محترقًا هكذا؟ رأيت أمِّي بعينيَّ وهي تحترق. حاولت إنقاذها، لكنَّ الباب الكهربائيَّ لم يُفتح! السائق هرب من الباص، ولم أتمكَّن من فتح الباب. عمِّي رمى ابنه من الشبَّاك، وأنا نجوت لأنَّ عمِّي فتح الباب في النهاية، لكنَّ الصاروخ كان قد سقط على أمِّي وأختي واحترقتا، لقد كانتا في الجهة التي سقط فيها الصاروخ.

وُلدت في الحرب، وكان ما نعيشه من قصف يبدو «عاديًّا» بالنسبة إليّ. لم يخطر في بالي أبدًا أنَّهم سيحرقوننا هكذا! لقد شهدت حربًا قبل هذه، اعتقدتُ أنَّني معتادٌ على القصف. في غزَّة، لا يوجد أطفال؛ نكبر قبل أواننا. وجهي محروق، جسدي كلُّه مليءٌ بالشظايا. لا أستطيعُ الحديث عن الألم، هو غير قابلٍ للوصف! لا يوجد تخدير، عشتُ كلَّ الألم، أنا أعرف الآن تمامًا ما هي «جهنَّم». تمنَّيتُ الموت، لكنِّي لم أمت. يقولون إنَّني طفل! أنا لا أفهم ما يعنيه ذلك. أفكِّر الآن في أخي الباقي في غزَّة، وأعرف أنَّ وجهي المحترق لن يعودَ طبيعيًّا أبدًا. لقد كنتُ ولدًا جميلًا سعيدًا.

هدى سفيان سعيد البغداديّ

33 سنة،

تلُّ الهوى، غزَّة

يوم الجمعة، السادس من أكتوبر، كنَّا في منزلنا في تلِّ الهوى نُقيم حفلةً بمناسبة تخرُّج أخي. مضت العائلة بعدها إلى النوم، أمَّا أنا فكان عليَّ العودة للعمل على مشروعٍ جامعيّ. صحيحٌ أنَّ لديَّ شهادة معلِّم صفّ، لكنِّي أدرس الهندسة المعماريَّة. السادسة والنصف صباحًا صحا الجميع على صوت الصواريخ التي أطلقتها حماس، وبقي علينا أن ننتظر الردَّ الإسرائيليّ. حسبنا أنَّه سيكون قصفًا لن يتعدَّى بضعة أيَّام، لم نتخيَّل ما يُخبَّأ لنا، لذا قرَّرنا البقاء. ثم إلى أين سنذهب؟ كيف نترك بيوتنا؟ لمن نتركها؟ اشتدَّ القصف، أحاطت بنا الأحزمة

الناريَّة التي جعلت بيتنا يهتزُّ ونهتزُّ معه، نزحت أختي مع زوجها وأولادها الأربعة من منطقة أبراج المخابرات وأتوا ليُقيموا معنا، ولم نكن لنغادر لولا اتِّصالٌ جاءنا من أخي. هو يُقيم في تركيا، اتَّصل بنا وأصرَّ علينا أن نخرج، قال إنَّ الأمر لن يقف عند القصف، سيكون اجتياحًا برِّيًّا، سيقتحمُون، لذا لا بدَّ أن نغادر. لم يعد لدينا خيار، تركنا البيت في عشرِ دقائق، جهَّزنا حقيبةً صغيرةً للجميع وضع فيها كلُّ واحدٍ منَّا قطعتَيْن من ثيابه الداخليَّة وخرجنا. لم نكن الوحيدين، الناس يملؤون الشوارع والقصف مستمرٌّ وأربع سيَّاراتٍ تابعةٍ للصليب الأحمر موجودةٌ في المكان. اكتشفنا أنَّهم يريدون منَّا الخروج في قوافل صوب الجنوب وفق أوامر الإسرائيليِّين. لم يكن الناس راغبين في ذلك، لكن ما العمل والقصف لا يتوقَّف وبيوتنا تتهدَّم أمام عيوننا والمجازر في كلِّ مكان؟ الموت ينزل علينا من السماء، وقريبًا سيأتينا من الأرض مع بدء الاقتحام البرِّيّ. وماذا عن الأطفال؟ أرغمَنا الإسرائيليُّون على الخروج. لي أختٌ تسكن في خان يونس، وجدَّةٌ في رفح. لي ستَّةُ إخوةٍ وأربعُ أخوات، منهم من هو مُتزوِّجٌ ولديه عائلة، ومنهم من هو مسافر. مضينا إلى دار الجدَّة في رفح. هناك وجدنا أنفسَنا تحت الخطر نفسه. بتنا في رفح ننام ونصحو على أصواتِ القصفِ وأسماءِ المجازرِ وأعدادِ الشهداء. أين نهرب؟ نرمي أنفُسَنا في البحر؟

في دار جدَّتي أقمنا في الطابق الأرضيِّ من مبنًى من ستَّة طوابق. لم يكن الوضع سهلًا في رفح، لا ماء، لا كهرباء، الأسعار مرتفعة، لكنَّنا تدبَّرنا أمورنا ولله الحمد. لا أزال أذكر

حالنا ليلة قصف المبنى، ليلة الحادي والعشرين من أكتوبر. في البداية فرشت لي ولابني ذي السنوات الأربع في صالة البيت محاولين النوم. بعدها أتت أختي مع أولادها للانضمام إلينا. بعد ذلك حملت ابني وذهبت إلى غرفةِ جدَّتي. كلٌّ واحدٍ منَّا أخذ ينام قليلًا في غرفةٍ قبل أن ينتقل إلى غرفةٍ ثانية، كأنَّنا نهرب من الموت. في غرفة جدَّتي دعوت بدعاء سيِّدِنا يونس عليه السلام لمَّا كان في بطن الحوت، وكرَّرت الدعاء حتى صارت الساعة الثالثة فجرًا ولم أنم. ذهبت لأطمئنَّ على إخوتي في غرفتهم ووجدتهم نيامًا. جلست على كرسيّ، قلت سأبقى كذا وأقرأ القرآن. اعتقدت أنِّي أحميهم بدعائي وقراءتي. يبدو أنَّني غفوت قليلًا دون أن أشعر، وحين صحوت وجدت نفسي وسط الركام. لم أشعر بشيءٍ ولم أسمع صوت قصف. صحوت ووجدت نفسي بين ركامٍ في ظلامٍ يحمل صراخ إخوتي ورائحة بارودٍ خانقة. لعلَّ الساعة كانت الرابعة. دائمًا يقصفون حين يكون الناس نيامًا. سقط السقف على أولاد أخي الثلاثة وقتلهم فورًا.

لمحت أخيلة إخوتي جالسةً على الكنبة، وبدأت البحث عن ابني. أتى رجلٌ ليسعفني، كانت الشظايا في كلِّ جزءٍ من جسدي. أخذت أصرخ: لا تسعفوني! أسعفوا أهلي! في الشارع لم أشاهد إلَّا جثث الناس مرميَّةً في كلِّ مكان. أخرجوا من المبنى أشلاءً وجثثًا ممزَّقة، رأيتهم يُخرجون خالي وقد استشهد، رأيت ابنة أختي وابنة خالي أحياء. انشغل فكري بإحصاء الخسائر. كنَّا أربعةً وعشرينَ شخصًا، وبقيتُ أتلفَّتُ حولي بحثًا عن ناجين من العائلة، وحين رأيت ابني ضممته وأسعفونا إلى

مستشفى أبو يوسف النجّار. نُسمّيه مستشفى، لكنَّهُ في واقع الأمر أقرب إلى مستوصف. هناك نظروا إلى جروحي وتبيَّن لهم أنَّها غير خطرة، ومن شعوري بالعطش شربت الماء كأنّي لم أشربه منذ سنوات. رأيت أمّي. بدت لي في حالٍ من الصدمة شديدة. بدت مثل تمثالٍ حجريٍّ بعيْنَيْنِ جامدتَيْن. رأيت أختي، كان رأسها مُصابًا وينزف وهي تظلُّ تسأل عن أولادها. همس لي زوجها محمود العرعير: الأولاد ماتوا. قالها وسكت. لانا، 12 سنة، محمَّد، 10 سنوات، زيد، 6 سنوات، أولاد محمود العرعير وهلا البغداديّ قتلوا جميعًا على إثر القصف. كذبت على أختي هلا وقلت لها: هم بخير. أين هم؟ أنقذتني ممرِّضةٌ من مأزق الإجابة، جاءت لتقول لي إنَّ أخويَّ وضعهما صعبٌ وسيتمُّ نقلهما إلى المستشفى الأوروبيّ. قلت: أذهبُ معهما. خرجنا في ثلاث سيَّاراتِ إسعاف، كانت تحمل مع أخويَّ كُلًّا من خالي وابن خالي وأُختي. كانت زوجة خالي في حالةٍ جنونيَّة، ظلَّتْ تقول إنَّها كانت تكشط اللحم، تُزيله عن الحجارة، كانت تلملم الأشلاء واللحم والدم المتخثِّر من بين الركام ولا تعرف مَنْ أصحابها ولمَنْ يعود كلُّ جزءٍ منها. صرخت: مستحيل! مستحيل أن يكونوا تحوَّلوا إلى أشلاء! مستحيل أن نموت هكذا!

فور وصولنا إلى المستشفى الأوروبيِّ أدخلُوا خالي وأخي عبد اللهِ إلى غرفِ العمليَّات، وظلَّ البقيَّةُ في قسم الاستقبال. المستشفى يُعاني من نقص الأطبَّاء والمعدَّات والأدوية. حالة أخي الآخر براء كانت مزرية: اختفى الجزء الأيمن من وجهه، طارت أصابعُه، انزرعتِ الشظايا في أنحاء جسدِه، برزت عظامُه،

انهرست يداه، تمزّق وهو حيّ. حين رأيته قال بهدوء: «إيدي بتوجعني». كلمتان أثبتتا لي أنّه حيّ. سيظلُّ هكذا ثلاثة أيّام، كان وضعه صعبًا، لكنّهُ أخفُّ ـ كما أكّد الأطبّاء ـ إنْ قورن بمصابين آخرين، بوسعه الانتظار إذن. في ظروف شُحّ الموارد البشريَّة والطبّيَّة يضطرُّ الأطبّاءُ إلى الفرز والمفاضلة، أي اختيار الحالات الأكثر حرجًا وحاجةً إلى تدخُّلٍ فوريّ. شيءٌ صعب. أمّا إبراهيم، وهو ابنُ خالي الآخرِ وعمره 12 سنة، فقد صار وحيدًا بعد أن استشهدت عائلته كلُّها. بلغ عددُ شهداء عائلتنا 9.

أخرجوا أخي عبد اللهِ من غرفة العمليّات مسرعين به إلى العناية المشدَّدة. رأيتهم يركضون به وقد تدلّى لسانه من فمه وضمّاداته ترشح دمًا، سقطت على الأرض.

بقيت بجانبِ أخي براء. ارتفعت درجة حرارته إلى أربعين، استمرَّتْ كذا طيلة شهر. كان جسمه ممزَّقًا كما أخبرتك، وأصيبت جروحه الكثيرة بالتهابات، وخسر الكثير من دمه. ومع قلّة الأدوية يصبح من الطبيعيِّ أن تظلَّ حرارتُهُ مرتفعة. كنت أنظر إليه ولا أصدِّق ما تراه عيناي، لا أكاد أميِّز فيه أخي الذي أعرفه. سقط الصاروخ قريبًا منه على ما يبدو، فمزَّقه ولم يقتله. ذهبت إلى الطبيب سعد السّلوت، أخبرتُهُ أنَّ أخي يضيعُ من بين أيدينا، حرارته مرتفعةٌ ولونه بات أزرقًا. نقلُوا له أربعَ وحداتِ دمٍّ وأعطوه حقنة سيتامول في الوريد لخفض حرارتِه. يستغرق نقل وحدة الدم ساعتَيْن، وقد بقيت تلك الساعات بجانبه أضع له الكمَّادات. في مرَّةٍ هدَّني التعب وأنا بجانبه فغفوت قليلًا لأصحو من كابوسٍ مفزع جعلني أهرع إلى قسم العناية لأتفقَّد أخي عبد اللهِ. هكذا

كنت في المستشفى، أتنقَّل بين أخويَّ اللذينِ صرت ممرِّضةً لهما بسببِ نقص الطاقم التمريضيّ. وكنت طيلة الوقت في حالة قلقٍ دائم على أولادي، أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره. بقوا في مخيَّم المواصي في رفح مع أبيهم. هم بخير، أقول لنفسي، سيكونون بخير، ولا أستطيع أن أترك المستشفى. أمِّي التي لم أخبرها باستشهاد خالي وزوجته احتفظت بصمتها الحجريّ، أدركت ذلك وحدها. عرفت ذلك لمَّا رأيتها تنزل حين أرادوا دفن شهداء العائلة. نزلت وصلَّت عليهم وودَّعت أخاها في صمت.

أخيرًا، بعد طولِ انتظار، أُدْخلَ براء غرفة العمليَّات. قاموا بتنظيف جروحه، واستخراج الشظايا من جسمه، وبتر أصابعه. في البداية شعرت بالفرح لأنَّه لم يخسر طرفًا كاملًا، وأنَّ المسألة اقتصرت على الأصابع، لكنْ بعد ذلك توالت عمليَّاته، إذ كانت لديه عمليَّةٌ جديدةٌ كلَّ يوم. بينما القصف مستمرّ، وتوافُد المصابين إلى المستشفى لا يتوقَّفُ، وصار علينا أن ننتظر دوره في كلِّ مرَّة. امتلأَ المستشفى بالجثث، بالنازحين، بالجرحى ومرافقيهم، تكوَّمنا فوق بعضنا بعضًا، بل جاءت أيَّامٌ كنت أنام فيها مع أمِّي تحت سرير براء.

تدهورَت صحَّةُ براء فجأة، تعفَّنت جروحه، وصارت ضماداته سوداء، وفي كلِّ يوم أغيِّر مفارشه فأجدها مشبعةً بالدم. بل إنِّي في إحدى المرَّات استيقظت على قطرات دم تنقط من سريره على الأرض، كان براءُ ينزفُ بغزارة، كان غارقًا في دمه. لم تعد وحدات الدم متوفِّرة، وصار عليَّ البحث عن متبرِّعين، ولا تزال أمِّي مثل تمثالٍ حجريٍّ بعينَيْنِ جامدتَيْن. كما أنَّني لم أستطع

الاكتفاء برعاية أخي متجاهلةً المرضى الآخرين. كيف بوسعي أن أرى مصابين لا يوجد من يرافقهم أو يعتني بهم وأقف مكتوفة اليدَيْن؟ وجدتُ نفسي أتنقَّلُ بين هذا وذاك. صرتُ ممرِّضةً للجميع، وهذا العمل مع قلَّةِ النوم والقلق جعلني في إنهاكٍ دائم.

في يوم التاسع والعشرين من أكتوبر ذهبت إلى قسم العناية لتفقُّد عبد الله منقبضة القلب. لعلَّ انهماكي الدائم ببراء وبتأمين وحدات الدم شغلني قليلًا عن عبد الله. سلَّمت عليه وكلَّمته، ثم طلبت منِّي الطبيبة الخروج. رفضت ذلك، كنت مُصرَّةً على البقاء بجانبه. بقيت أقرأُ القرآنَ بجانبه وأسأل اللهَ أن يرحمه بالموت. تخيَّلي! واللهِ إنِّي أُحبُّهُ حبًّا كبيرًا لكنِّي تمنَّيت له الموت. كان موضوعًا على جهاز التنفُّس الاصطناعيّ، وضغط دمه ينزل، ولونه يزرقُّ شيئًا فشيئًا. لم يعد يشبه أخي الوسيم زين الشباب. أصرَّت الطبيبة مجدَّدًا على خروجي. فهمت من إصرارها أنَّه يُحتضر لكنِّي رفضت بشدَّة. بقيت بجانبه أراقب شاشة المونيتور إلى أن أطلق الجهاز صفيره. حين أتى الطبيب ليغطِّي وجهه صرخت فيه: لا تخنق أخي! كان مات وكلُّ الذي أفكِّر فيه هو أنَّه سيخنقه. كنت أفقد عقلي! بقيت واقفةً أُدلِّكُ لهُ جسمه وأنا أُردِّد: الحمد لله، الحمدُ لله.

لم تكن المستشفى مكانًا آمنًا، ولا المدرسة. خرجت مرَّةً لشراء البُنّ، ملعقةٌ منه بعشرة شيكلات، ورأيتهم يأتون بضحايا القصف على مدرسةٍ تُؤْوِي نازحين. وقفت عند مدخل قسم الطوارئ أراقبهم يأتون بالجرحى، والقتلى، والأشلاء البشريَّة الموضوعة في أكياسٍ ورقيَّة. كان المشهد فظيعًا، في ذلك

القصف قُتل خمسة عشر شَخصًا، وأُصيب العشرات. من سوء حظِّي أنَّ امتلاءَ المستشفى جعل الأطبَّاء يضعون أخي براء في قسم الأطفال. كان من القاتل أن تجدي نفسكِ مع بقايا أجساد الأطفالِ تعيشين مأساتهم عن قرب. أذكر بِنتًا من آل الكدْريّ، كان جسمها محروقًا بالكامل، ترشحُ منه إفرازاتٌ خضْراءُ وبيضاء. كلُّ ذلك من القصف، يقصفوننا بسمومٍ جديدةٍ لا نعرف طَبيعتها. بيسان ذات السنوات الثمان بُتر طرَفاها السفليَّان. جلست مرَّةً على سريرها أواسيها، فما كان منها إلَّا أن طلبت منِّي النهوض لأنَّني أجلس على رجلها وأزيد بذلك من ألمها. أصابني الذعر. كانت ساقها مبتورة! شعرت بدوارٍ شديدٍ وارتجف جسمي كلُّه وأنا أنظر إليها. أعادت طلبها بتهذيب: «خالتي، قومي عن رجلي، أنت بتوجعِيني!». نهضت واعتذرت منها. صرت ممرِّضةً وداعمةً نفسيَّة، جعلني وجودي في قسم الأطفال قريبةً منهم، صرت أحاول تعليم الأطفال كيفيَّةَ التعامل مع أجسادهم الجديدة الناقصة.

عدد القتلى والجرحى من الأطفال كان كبيرًا، ربَّما يُشكِّلون النسبة الأعظم. وكان من المفاجآت لي أنَّهم كانوا أقوياء، يتعاملون مع كلِّ ما يحدث بثباتٍ وصرامة. رأيت هذا بأُمِّ عيني، كان شيئًا عجيبًا. من أين لهم هذه الشجاعة؟ من علَّمهم هذا الهدوء؟ كيف لا أرى منهم ردود أفعالٍ تناسب أعمارهم أو ما يفترض أن تناسبها؟ أيُعقلُ أنَّهم كبروا قبل الأوان؟ شاخوا وهم أطفال! كنت أراهم هادئين في معظم الأحيان، ممدَّدين على سررهم عاجزين عن الحركة بأجسادٍ فقدت أطرافها، لكنَّهم ظلُّوا

هادئين في غالبِ الوقت. أذكر أنَّ إبراهيم الصَّوالحي، وهو طفلٌ في الثانية عشرة، حين عرف بموت أهله اكتفى بقوله: الحمد لله. عبد الرحمٰن رضوان كان أيضًا الناجي الوحيد من عائلته. في القصفِ الذي طال دار أهله استُشهد خمسون شخصًا وبقي هو. وصل إلى المستشفى في الثاني عشر من كانونَ الثاني أذكر ذلك لأنَّه اليوم الذي كان يفترض أن ننقل فيه براءً من المستشفى. حين سمعت بقصَّته أسرعت إلى الغرفة المجاورة التي وضعوه فيها. كان يصيح من الألم، جسمه محروقٌ وبطنه مفتوحٌ مع إصابةٍ في رأسه. أتيت له بأغطيةٍ وبقيت يومَيْن أرعاه. في اليوم الثالث قال لي: «بدِّي بيض». يا اللهِ كمْ فرحتُ! سألتُ الطبيب وأخبرني أنَّ بوسعه الأكل. كان الطعام قليلًا، ونحن جياع، لكن كان بحوزتي بيضتان. يصعب أن أصف الأمر لك. هما آخر بيضتَيْن معنا، ونحن جياع، وأمِّي قالت لي: وأخوك؟ قلت لها: لكنَّهُ طفل! وأكل البيضتَيْن، ابتسمت لأوَّل مرَّةٍ منذ وقتٍ طويلٍ وأنا أراه يأكلهما. هذا ما أظنُّه، ففي أعماقي شعرت بالألم والحزن لأنَّنا سنتركه في اليوم نفسه. رأت مرافقة أحد المرضى مقدار اعتنائي بعبد الرحمٰن فسألتني: هذا قريبك؟ أجبتها: لا، ليس قريبي. قال عبد الرحمٰن: بلى! هذه خالتي. لا أزال أفكِّر فيه، ولدٌ وحيدٌ بلا أمٍّ ولا عائلة.

أكثر ما يثير استغرابي هو أنَّني لا أزال أحتفظ بعقلي على الرَّغم من كلِّ ما رأيت. رأيتُ أشياء رهيبة، كثيرٌ من الناس فعلوا أشياء لا أستطيع الحديث عنها، بل لا أريد أن أفعل في يوم من الأيَّام، أفضِّل أن أنساها. قد تكون إصابة «إيمان مسلِّم» أسوأ

إصابةٍ رأيتها. هي امرأةٌ ممتلئة، في الثالثة والثلاثين، أتى بها أخوها إلى المستشفى. أذكرها وأذكر اسمها لأنَّ ما رأيتُهُ عندها لم أره في حياتي. كانت يدها اليمنى محفورة، مثقوبةً على شكلٍ دائريٍّ كأنَّ آلةً حادَّةً اقتطعت ذلك الجزء من كفِّها. رجلاها أيضًا، بل إنَّ جسمها كلَّهُ كان مخرومًا بدوائر وأنصافِ دوائر. شيءٌ غريب. أيُّ سلاحٍ هذا الذي يفعل مثلما يقرض فأرٌ جوانب رغيف خبز؟ في كلِّ حربٍ جديدةٍ يُجرِّبُ فينا الإسرائيليُّون أسلحةً جديدة. قمت بتمريضها، ساعدت أخاها الذي يعمل مسعفًا. كنَّا ننظِّف لها جروحها التي تنزُّ قيْحًا ونغيِّر ضماداتها دون تخدير. أخوها رجلٌ جبَّار، أصرَّ على العناية بها وتعقيم جراحها بنفسه، وكنت أساعده في ذلك. قال الجميع إنَّها ستموت خلال ساعات، لكنَّ اعتناءنا بها جعلها تصمدُ ثلاثة أشهرٍ إلى أن أصابها إنتان دم شديد وماتت. أكان فعلنا هذا إنسانيًّا؟ ألم يكن من الأفضل أنْ نتركها تموت بسرعةٍ ولا تعاني هذه الآلام الشديدة طيلة ثلاثة أشهر؟ لكن أكان بوسعنا ترك جراحها تتعفَّن دون أن نفعل شيئًا؟ لا أعرف، حقًّا لا أعرف، ماتت في النهاية وارتاحت من عذاباتها. كذلك عانى أخِي عبد الله ثم مات.

نعم! صرت ممرِّضةً فجأة، أغيِّر الضمادات وأزيل القيح وأُعقِّم الجروح متنقِّلةً من جريحٍ إلى جريح. جعلتني تلك التجربة قريبةً من الجسد البشريِّ حين يكون في وضعٍ مغايرٍ للوضع المعتاد المألوف، فاكتسبت بذلك وجهة نظرٍ مختلفةً، صرت أرى وجودنا مختلفًا، لن أعود أبدًا كما كنت. لا أدري أهذا شيءٌ جيِّدٌ أم لا، كلُّ الذي أعرفه أنَّنا كنَّا سنصابُ بالجنون لولا إيماننا بالله.

عبد الرحمٰن إياد أبو حامدة

17 سنة

مخيَّم المغازي

يوم 7 أكتوبر بدا غريبًا وصادمًا. بدأنا نسمع أصوات الصواريخ، كنت في البيت، لديَّ امتحانٌ وموعد اختباراتٍ في المدرسة. رأينا الصواريخ تُطلق، وصوَّرناها معتقدين أنَّها مثل جولات القصف السابقة التي اعتدنا عليها منذ سنوات. لكنَّنا سرعان ما علمنا أنَّ حماس شنَّت هجومًا، وسمُّوه «طوفان الأقصى» بغرض تحرير فلسطين. لم أفهم ما يجري حينها، وكنت لا أزال في ملابس المدرسة. في اليوم ذاته، بدأ الاحتلال الإسرائيليُّ بقصفنا مباشرة. قصفوا الأبراج، ومع انتقالي مع عائلتي إلى محافظات الوسطى، رأيت كيف دمَّر القصف مربَّعًا

كاملًا أمامي في 5 نوفمبر 2023 في «ضهر العلول»، حيث نزحنا إلى بيت سيدي محمَّد الحاج أحمد، مجتمعين هناك جميعًا مع خالاتي وأخوالي، نحو عشرين شخصًا. كانت حياتنا بين أصوات القصف والبحث عن فرصةٍ للنوم. وفي إحدى محاولات الغفوة، قصفوا المنزل بصاروخ، حاولت التحقُّق من سلامة عائلتي، فتحت الباب، فوجدت أنَّ الجدار والسطح مائلان، رأيت أهلي تحت الجدران المهدَّمة، والشظايا تتساقط فوقهم، ركضت لأنقذهم! وإذ بنا نكتشف أنَّ القصف على غرفة النساء، أُصيبت خالاتي، السقف والجدران انهارت فوقهم، وبينما الشظايا تتساقط، والجميع محاصرون تحت الأنقاض، رأيت طفلةً صغيرة، لم أتعرَّف عليها، كانت بعمر سنةٍ ونصف مقطوعةً إلى نصفَيْن، حملتها وأعطيتها لزوج أختي. كلُّ الأبراج في المغازي هُدمت وسقط معها البشر، عشت حالة ذهول، أنظر حولي ولا أصدِّق ما أراه. مات في ذلك اليوم أكثر من 150 شخصًا. جميع سكَّان هذا الحيِّ من المدنيِّين ومع ذلك رموا علينا الكثير من القنابل. بدأت أُساعد في جمع الأشلاء وتقديم الإسعاف للجرحى، لكنَّ كثيرًا من الجثث لم نجدها، فقد دُفنت تحت الأنقاض، اختلطت بالحديد والحجارة، وحين فقدنا الأمل بالعثور عليها، ركَّزنا على إسعاف الأحياء. بعدها أعلنوا هدنة، فعدنا إلى بيتنا، القريب من منطقة المجزرة في حيٍّ آخر بالمغازي، ورمَّمناه وعاد أفراد عائلتنا الكبيرة للالتقاء فيه. أنهينا تنظيف البيت وترتيبه، وفي مساء أحد الأيَّام بعد الهدنة، قرابة الساعة السابعة مساء، ونحن نعدُّ العشاء، قصفونا من جديد؛

قصفوا خمسة بيوتٍ دفعةً واحدة؛ بيتنا وبيوت نواصرة وأبو رحمة، ليخلِّف القصف مجزرةً جديدة حصدت أكثر من 150 ضحيَّةً أخرى في 24 ديسمبر.

كنت في البيت لحظة الانفجار، شعرت وكأنَّ العالم حولي انفجر بلونٍ أحمر، قذفت إلى بيت الجيران، ولم أستيقظ إلَّا في المستشفى. حينها، لم أعرف ما حدث. تعرَّضت لإصاباتٍ في رأسي وقدمي؛ جسدي مليء بالجروح والكسور والشظايا. خلال الانفجار، أذكر أنَّني كنت واعيًا وأنا أطير في الهواء من شدَّة الضربة حتى ارتطمت بجدارٍ إسمنتيّ، ثم وقع بابٌ حديديٌّ فوقي، لم أستطع الحركة، ولم أتمكَّن من الوقوف. في هذا القصف فقدت كلَّ عائلتي؛ جميعهم استشهدوا، أمِّي وأبي وأخوالي وجدِّي وجدَّتي وخالاتي وأبناؤهم. كانوا قرابة 45 فردًا في القصف نفسه، ولم ينجُ أحدٌ سواي، لم يبق أحدٌ من عائلة أبو حامدة وعائلة أمِّي الحجّ أحمد.

والدي، إياد أبو حامدة، يعمل موظَّفًا في السلطة الفلسطينيَّة، وأمِّي، رندة الحجّ أحمد، معلِّمةٌ ومديرة مدرسة، وجميع من حولنا مدنيُّون؛ أنا أعرفهم جميعًا، أُناس طيِّبون ومسالمون. أختي الكبرى، دانا أبو حامدة، وابنتها الصغيرة بانة، توفِّيتا أيضًا في القصف. كنت طالب مدرسةٍ أدرس في الفرع الأدبيّ، حلمت بأن أصبح مصوِّرًا فوتوغرافيًّا، لكنَّ الآن كلُّ شيء قد تغيَّر. في اليوم التالي، أخبرني خالي بموت عائلتي بأكملها. لم أستطع استيعاب الأمر؛ لماذا قصفونا بالطريقة هذه؟ كمِّيَّة الصواريخ كانت هائلة، كأنَّ برميلًا متفجِّرًا سقط فوقنا. دارنا المكوَّنة من أربعة طوابق

هُدمت تمامًا، وسُحقت كبقيَّة المباني حولها. دفنوا الجميع، لكنَّ أمِّي لم يجدوها حتى الآن، كأنَّها اختفت تحت الأنقاض. ليس أمِّي فقط، بل العديد من أفراد عائلتي ظلُّوا هناك، لم يتمكَّنوا من استخراج أجسادهم لدفنها.

بقيت في المستشفى 22 يومًا، والقصف مستمرٌّ حولنا. المسيَّراتُ تقصف أثناء عبورنا. رأيت بعيني كيف دمَّروا الطريق أمامنا، استعنَّا بمنظَّمة «أطبَّاء بلا حدود» للعبور، ورغم أنَّهم يعرفون أنَّ هذه منظَّمةٌ طبِّيَّة، إلَّا أنَّهم أطلقوا النار علينا حتى ونحن في المستشفى. لم يتوفَّر لنا طعامٌ أو ماء أو كهرباء، والمكان كان مكتظًّا، حيث نزح العديد من الأهالي إليه، وامتلأت الأرض بالجرحى والجثث والنازحين؛ الجميع متداخلون في مشهدٍ خانق. في خضمِّ هذا الظلام، تعرَّفوا على جثَّة ابنة أختي الصغيرة المدلَّلة من خلال ثوبها، لم يجدوا رأسها. كانت طفلةً في السنة والنصف، أحببتها كثيرًا.

بعد أيَّام من العذاب في مستشفى الأقصى، انتقلنا إلى رفح، ظنًّا منَّا أنَّها ستكون منطقةً أكثر أمانًا، لكنَّ القصف استمرَّ هناك أيضًا. سكنت في خيمةٍ مع زوجة عمِّي، ختام أبو حامدة، في محاولةٍ للابتعاد عن قصف المسيَّرات. العيش في الخيمة كان جحيمًا؛ تغيير الضمادات عمليَّةٌ مؤلمة. كنت أتنقَّل في عربة حمار، وذات مرَّةٍ سقطت فانفتحت جراحي من جديد. لم أكن قادرًا على المشي، وكانوا يحملونني عبر رمال المخيَّم، حيث لا توجد مرافق ولا ماء. الوصول إلى الحمَّام رحلة عذاب، لأنَّ الكرسيَّ المتحرِّك لم يكن يتحرَّك على الرمال. كنَّا نعتمد على

كرسيٍّ يستعيرونه من الناس لحملي إلى هناك. الحياة في الخيمة تفتقر لأبسط الأساسيَّات، الحرارة لا تُطاق، والذباب والحشرات تغزو المكان، وفي الشتاء يشتدُّ البرد حتى يصعب تحمُّله، والجروح تحرقني، وتؤلمني ليلًا فلا أستطيع النوم.

الطريق من المستشفى إلى رفح كان مشهدًا من الرعب المحض. خرجنا من المنطقة عبر البحر، ولم نر إلَّا الدمار في الطريق. المنطقة بين دير البلح ورفح اختفت تمامًا، الأبنية مُسحت عن وجه الأرض، الطرق مدمَّرةٌ تمامًا، وكلُّ شيء سوِّي بالأرض، كأنَّنا ندخل عالمًا غريبًا غير مألوف. لولا أنِّي أعرف طريق الرشيد لما استطعت التعرُّف على المكان، فقد صار ركامًا مُحاطًا بجثث، جثثٍ لم يسلم بعضها من السرقات، رأيت الإسرائيليِّين وهم يأخذون الجثث من المنطقة. في شهر أكتوبر قبل إصابتي وقبل مجزرة عائلتي، كنت أعمل متطوِّعًا، أساعد الناس وأوزِّع عليهم الماء والطعام. كنَّا نقف أمام حاجز نتساريم، والدبَّابات تصطفّ، ورأيتهم هناك يقتلون شابًّا أمامي، شابًّا عاديًّا يقف وسط الجموع، بلمح البصر أطلقوا عليه النار وتركوه. تكرَّر ذلك أمامي مرَّات، الأطبَّاء قُتلوا، الجامعات هُدمت. لم أستوعب لماذا استهدفوا التعليم، لقد دمَّروا جامعة فلسطين وكلِّيَّة الطبِّ بالكامل، لم يتركوا أثرًا للحياة الأكاديميَّة. مدرستي، «مدرسة المغازي الإعداديَّة للذكور»، لم تسلم من المجازر أيضًا، أصبحت ضحيَّةً لقذيفة مدفعيَّة دبَّابة. مات عشرةٌ من الطلَّاب في لحظة، ومرَّةً تلو الأخرى كنَّا نجمع أجساد الشهداء المقطَّعة من زملائي وأصدقائي. المدرسة هُدمت بالكامل. رغم كلِّ هذا، أريد

أن أعود إلى غزَّة، لا أرى حياةً لي خارجها، حيث عشت حياتي مع أهلي وأخوتي. كنت أصغرهم، مدلَّلهم، ومحاطًا بحبِّهم واهتمامهم، أبي لم يردَّ لي طلبًا أبدًا. حياتي قبل 7 أكتوبر هي أقرب لحياة الجنَّة. أختي دانة بئر أسراري، كانت لي بمثابة الأمِّ الثانية، ابنتها الصغيرة قطعةٌ من قلبي، أوَّل حفيدةٍ للعائلة، رؤيتها سعادة يومي، لا ننام دون أن نطمئنَّ عليها، قُتلت بالقصف وهي بين ذراعي والدها. أخي الأكبر، كان ممثِّلًا مسرحيًّا على وشك الزواج من فتاةٍ يُحبُّها «شهد الحجّ أحمد» لكنَّها رحلت معه، ماتت في البيت نفسه وفي المجزرة نفسها. لم يبقَ أحدٌ من عائلتي، لم يبق أحد!

وفاء أسعد أبو سمعان

28 سنة

بيت لاهيا، غزَّة

كنت حاملًا في الشهر الثامن عندما بدأت الحرب، أعيش مع زوجي وابنتيَّ مريم وشهد. في يوم السابع من أكتوبر، كنَّا في البيت، أخذت أُجهِّزُ نفسي وبناتي للمدرسة. طلبت من زوجي أن يأخذ شهد معه وهو ذاهبٌ إلى العمل. ولكن عندما سمعنا الصواريخ والصراخ، أدركت أنَّ الحرب قد بدأت. زوجي قال إنَّها مجرَّد مناورات، لكنِّي كنت متأكِّدةً أنَّها ستكون حربًا، لقد عشنا الحروب من قبل ولذلك اعتقدت أنَّها ستمرُّ مثل باقي الحروب. أراد زوجي الخروج، لكنَّني منعته وأقفلت الباب وقلت له إنَّه لن يذهب. بقينا في المنزل، شعرت بخوفٍ هائل. الصراخ

وأصوات الصواريخ مرعبة، من الواضح أنَّها ليست مناورات. بعد عدَّةِ ساعات، بدأ القصف الإسرائيليُّ بشكلٍ جنونيّ، أحزمةٌ ناريَّةٌ متتاليةٌ تنهمرُ من السماء دون توقُّف. كنت في الشهر الثامن من حملي ونعيش في الطابق الأخير، وظهرت عليَّ بوادر ولادةٍ مبكِّرة. قال لي الطبيب إنَّه يجبُ ألَّا أتحرَّك لأنَّني قد أفقدُ الجنين. زوجي خاف وطلب منِّي أن أذهب إلى بيت أهلي في جباليا، لأنَّ الوضع أصبح خطيرًا هنا. ذهبت وبقيت عشرة أيَّام، لكنَّ القصفَ هناك كان كثيفًا جدًّا، لقد دمَّروا مربَّعاتٍ كاملةً من المنازل. أنا حاملٌ ومريضةُ سرطان، رؤية الجثث المقطَّعة زادت من خوفي وإرهاقي. من شدَّة القصف سقط زجاج المنزل والردم علينا. بيتُ أهلي كان مليئًا بالنازحين، لذلك قرَّرَ زوجي أن نعود إلى بيتنا فالقصف في كلِّ مكان، ولا يوجدُ حيٌّ أكثرَ أمانًا من غيره. فقدت اثنَيْن من أخوالي خلال القصف، سامي وهاني حرب. أنظر دائمًا إلى ابنتيَّ مريم (8 سنوات) وشهد (5 سنوات) وأشعر بالحزن الخانق وبالخوف الشديد.

توقَّفتُ عن النوم في شقَّتِنا في الطابق الأخير عندما عدت من بيتِ أهلي، وأصبحتُ أنامُ مع بناتي في بيتِ حماي مع عمَّتي وأخوات زوجي في الطابقِ الأرضيّ. في الواقع، لم أكن أستطيعُ النوم قلقًا على زوجي الذي كان ينام وحده في شقَّتنا. وضعي الصحِّيُّ صار صعبًا، فقد توقَّفتُ عن تلقِّي علاج السرطان، إذ توقَّفت الأدوية عن الوصول لغزَّة بسببِ الحرب. لم يكن يهمُّني ذلك، كلُّ تفكيري كان منصبًّا فقط على حياة زوجي وبناتي وعلى جنيني. حماي كان طبيبًا في مستشفى كمال عدوان، وكان يأتيني

أحيانًا ببعض الأدوية، لكنَّها لم تكنْ كافيةً دائمًا. اعتدنا على تجهيزِ حقيبةٍ دائمةٍ تحتوي على أوراقِنا الرسميَّة وأدويتي، نحن في غزَّة نعيش على أهبة الاستعداد لأيِّ حرب. لا أزال في حالة حدادٍ على خالَيّ، أنا متعلِّقةٌ بهما جدًّا. ومن شدَّةِ الحزن، فقدت القدرة على الحركة، وبدأت أشعر بألمٍ في بطني، أبكي بلا توقُّف. أنا عانيتُ كثيرًا قبل الحرب، عندما أصبت بالسرطان. قال لي الأطبَّاء إنَّني لن أستطيع الإنجاب مرَّةً أخرى، ورغم أنَّ لديَّ ابنتَيْن، فكَّرت في زوجي وبناتي، وقلتُ له أن يتزوَّج. لكنَّ زوجي رفض، وقال لي إنَّ البنات مثل الصبيان بالنسبة إليه، وأنَّه ليس مهمًّا أن أنجبَ صبيًّا، مُؤكِّدًا «ما في أحلى من البنات!». كنت أشعر بنقصٍ لأنَّني لم أنجب صبيًّا، تألَّمت كثيرًا، لكن حدثت معجزة، وحملت أثناء مرضي. أصبحت خائفةً من فقدان جنيني، لديَّ يقينٌ أنَّه صبيّ. في الليالي، كنت أدعو الله أن يحفظه، حتى لو كانت ولادته ستجعل حياتي في خطر. أريد إسعاد زوجي، هو ليس مجرَّد زوج، كان صديقًا وحبيبًا وأخًا. اسمه سعيد رأفت أبو فول، يعملُ في البلاط. فرح كثيرًا عندما علم بحملي، لا أنسى وجهه المضيء! العائلة كلُّها لم تصدِّق الخبر، كنت فقط أريده أن يرى ابنه. لقد جهَّز له كلَّ شيء، اشترى كلَّ ما يحتاجُه طفلنا المنتظر.

في ذلك اليوم ـ التاسع عشر من أكتوبر ـ شعرت بالرغبة بالبقاء مع زوجي وبناتي كعائلةٍ تحت سقفٍ واحد، شعرت بالضيق لأنَّنا نتركه وحده، فصعدت من بيت عمِّي في الطابق الأرضيِّ إلى بيتنا، فرشت لبناتي على الأرض بجانب أبيهنَّ في الصالون، بعيدًا

عن النوافذ. كنت قد جهَّزت البيت ودهنتُ الجدران وأعددتُه لاستقبال الطفل. للحظة، شعرت بالسعادة وأنا بجانب زوجي وبناتي في بيتي النظيف. جلسنا نتابع الأخبار ونرصد مناطق القصف. طلب منِّي زوجي أن أنام، ولكن كيف ننام والقصف مستمرّ؟ قال لي حينها فجأة: «تشاهدي ونامي، أشعر أنَّني سأستشهد اليوم، إن حصل ذلك، أعرف أنِّي سأترك امرأةً قويَّةً تعتني بأولادي». عندما قال ذلك، بكيت. لم تمرَّ نصف ساعةٍ حتى سقط الصاروخ الأوَّل علينا، لكنَّه لم ينفجر. قفزنا من أماكننا، رميتُ نفسي فوق بناتي لحمايتهما. كانت لحظةً مرعبة. نهض زوجي من الفراش يريد أن يحضننا عندما سقطَ الصاروخ الثاني وانفجر، انهار البيت بأكمله فوقنا. كنت واعيةً ورأيت كلَّ شيء. طرنا في الهواء، وكلُّ واحدٍ منَّا وقعَ في مكانٍ مختلف. كنت أسمعُ بناتي يصرخن، وأنا أصرخ: «يا ناس... الحقوني!». سمعت صوت زوجي يتشهَّد، وكانت البنات يبكين. رأيت نفسي أجاهد لرفع الأحجار الثقيلة والصخور التي وقعت على بناتي، البنات يصرخن: «يا ماما!»، وأنا أرفع الأحجار وفجأةً هُيِّئ لي أنَّني أشعر بسائلٍ حارّ، وأسمعُ صوتَ مولودٍ يصرخ. ظننت أنَّني أفقدُ جنيني، وقلتُ في نفسي هل مات؟ لقد شعرت حقًّا بألم الولادة وأحسست بسخونة سائل «طقّ الراس». لكنَّ كلَّ تفكيري في ذلك الوقت كان في إنقاذ بناتي. بدأت أنبش الردم بأصابعي لأصل إليهما. سمعت أصوات الناس من حولي، وصرخت: «أنا عايشة! الحقوا بناتي!»، لكنَّ صراخ بناتي بدأ يخفّ، وعرفتُ أنَّهم أنقذوهما من خلال أصوات الناس من

حولي. سمعتهم يقولون: «وفاء وزوجها استشهدا!»، فصرخت من تحت الأنقاض: «زوجي عايش! أسعفوه... أسعفوه!»، وسمعتُ صوته يقول: «لا إلٰه إلَّا الله...» سمعتهم يقولون: «هاتوا الشيَّالة»، وفجأةً صرخت: «انتبهوا، رجلي مبتورة!»، لقد رأيتها كيف وقع السقف عليها، لم أشعر بألمٍ حينها، رأيت جلدًا رقيقًا فقط يفصل رجلي عن باقي جسدي. طلبت منهم أن يحملوني بهدوء، كلُّ تفكيري كان منصبًّا على جنيني الذي كنت أظنُّ أنَّني فقدته. لاحقًا، أدركت أنَّ صوت البكاء الذي سمعتُه والماء الحارَّ المتدفِّق كانا مجرَّد هلوسات. لم أفقدهُ كما ظننت، لكنِّي لحظتها كنت واثقةً أنَّني سمعت صوت جنيني! في سيَّارة الإسعاف بدأت أشعر بأنَّني أتهاوى وأغيب عن الوعي. أحاول لمس رجلي المبتورة، والمسعفُ يصرخ: «يا أختي، ما تناميش!». وعندما تحرَّكت سيَّارة الإسعاف، أخذت ثانيةً أفكِّرُ أنَّني تركت جنيني هناك، تحت الأنقاض. ثم غبت عن الوعي تمامًا، ولم أعد أتذكَّر متى تحديدًا حصل ذلك، ولكنَّني كنت متأكِّدةً حينها أنَّني فقدت طفلي. أخذت أفكِّر: أين ذهب حبلُ السرَّة، وفكَّرت بأشياء غريبةٍ أخرى.

كنت أعرف أنَّني سأموت، لكن يجب عليَّ الحفاظ على حياتي حتى أضع جنيني قبل ذلك.

استيقظت بعد خمسة عشر يومًا في المستشفى الإندونيسيِّ على صوت عمِّي، ولم أكن قادرةً على الرؤية. أعمامي كانوا يبكونَ حولي، كنت أسمع أصواتًا ثم أغيب عن الوعي مجدَّدًا. لم أعرف نفسي للوهلةِ الأولى وسألت من حولي: «أنا مين؟». فترة الغيبوبة

المطلقة استمرَّت خمسة عشر يومًا. عمِّي سعيد أبو سمعان، الذي كان يعمل في مستشفى الشفاء، كان يزورني باستمرار. أخبرني أنَّ جنيني حيّ، وصوَّر لي المولود. أُصبت بصدمة، فقد كنت متأكِّدةً أنَّني تركته تحت الأنقاض! لم أستطع فهم الواقع من الخيال. أوهامي كانت تبدو لي أكثر واقعيَّةً من الحقيقة. وكنت أتخيَّل عمِّي يقول لي: «سأنقذ طفلك!»، ثم أغيب عن الوعي مرَّةً أخرى. بعد أن صحوت من الغيبوبة، نقلوني إلى الطابق الأعلى حيث كانت بناتي. رأيتهما لأوَّل مرَّةٍ بعد الحادث. كنت في سرير، ومريم في سريرٍ آخر، وشهد في سريرٍ ثالث. رأيت بناتي وارتحت قليلًا، رغم إصابتهما. مريم كانت مصابةً بحروقٍ وشظايا، وفقدت إصبعًا من يدها، كما تعرَّضت لجروحٍ عميقةٍ وكسرٍ في الحوض. شهد كانت أسنانُها مكسورة، وتعاني من إصابةٍ في العين، كُسرت رجلها، ولديها جرحٌ كبير من شظيَّةٍ ممتدَّةٍ على طولِ ظهرِها من الرقبة حتى أسفل العمود الفقريّ. جاؤوا وأخبروني أنَّ زوجي استُشهد. كنت داخليًّا أعرف ذلك، لكنِّي لم أتفوَّه بحرف. قلت لهم فقط: «سمعته بيتشهَّد حتى آخر نفس». نعم، تذكَّرت صوت زوجي وهو يتشهَّد ونحنُ تحت الأنقاض.

بقيت في المستشفى الإندونيسيِّ خمسةً وأربعين يومًا. رأيت كلَّ شيء. أُجريت لي عمليَّاتٌ دون بنج، ولأنَّني كنت حاملًا لم يكن مسموحًا أن أتناول أدويةً بكثرة، دواء السرطان لم يكن متوفِّرًا. كان الأطبَّاء يتوقَّعون أنَّني سأموت، وأنا حقًّا صدَّقتُ ذلك. الموت كان حتميًّا في ذهني وفي ذهن مَنْ حولي. بُترت يدي ورجلي، والرِّجل الثانية تضرَّرت بشكلٍ كبير، الشظايا

والحروق تغطّي جسدي. شهدتُ كلَّ شيء؛ الحصار، المجازر، كلَّ ما لا يمكن وصفه. كنتُ أعلم أنَّهم قصفوا حيَّ أهلي، وسمعت الأحاديث عن الدمار، بينما كانت حالة ابنتي مريم تزدادُ سوءًا. القصف مستمرٌّ فوق المستشفى، وأنا في الطابق الثاني بقسم الجراحة. الشظايا والزجاج تتناثر علينا، والأحجار تتساقط، ولا أذكر أنَّني نمت، فقط أذكر الجوع والعطش. في كلِّ لحظةٍ كنت مقتنعةٌ أنَّ نهايتي قريبة، لم أتمكَّن حتى من وضع يدي على بطني لأشعر بحركة جنيني. حولنا طاقمٌ طبِّيٌّ فقط، مرضى، نازحون، ومرافقون. الشظايا كانت تتناثر في كلِّ مكان. رأيتُ الأطفال ممزَّقين على الأرض بعيني، رغم أنَّني لم أكن قادرةً على الحركة. أطرافُ عيني كانت تلتقطُ المشاهد، رأيت كلَّ الجثث. أهلي كانوا يقطِّرون لي المحاليل في فمي بنقاطٍ قليلة لأبقى على قيد الحياة. جاء أخي ذات يوم ليقول لي إنَّهم سيأخذونني معهم، لقد نجوا بأعجوبةٍ بعد قصفٍ بيتنا. لم أعارض، وقلتُ له: «افعلوا ما ترونه مناسبًا». وضعني على الكرسيِّ المتحرِّك وهو يبكي، وأنا أنظرُ إليه بخوف. نقلوني إلى بيت سيدي تحت القصف، ومع أنَّني نجوت إلَّا أنَّ وجهي ما زال يحمل آثار الحروق. عيني كانت مغلقة، والآن فتحت قليلًا. كانت نعمةً من الله أنَّني لم أَرَ كلَّ شيءٍ بوضوح، الجثث والأشلاء كانت في الطريق تُحيط بنا من كلِّ اتِّجاه.

وصلنا إلى بيت جدِّي تحت قصفٍ عنيف. عندما وصلنا، وضعوني على السرير، ومع استمرار القصف، كانت الشظايا والزجاج تتساقط علينا، لكنَّنا نجونا بطريقةٍ لا تصدَّق. أختي

الممرِّضة وعَمِّي الطبيب اعتنوا بي، رغم كلِّ ما كان يحدث حولنا. لكن مع تزايُد القصف، كان عليهم المغادرة. طلبت منهم أن يتركوني خلفهم وينقذوا أنفسهم ويأخذوا معهم بناتي. كان من الصعب نقلي، فقلت لهم: «هذا قدري، اتركوني واهربوا». لكنَّهم رفضوا، وأصرُّوا على البقاء معي، قائلين: «سنبقى معك، نموت أو نحيا معًا». توسَّلت إليهم أن يتركوني للموت، كنت قد وصلت لمرحلة الرضا بالموت، لكنَّهم رفضوا وأخبروني أنَّ هناك طريقًا آمنًا سنخرج منه جميعًا. في النهاية، وافقت على الرحيل مرغمة، وأخذوني معهم إلى الجنوب. ذلك اليوم كان الأقسى في حياتي. الطريق الذي قالوا إنَّه آمِنٌ كان مليئًا بالقتل والدمَار. رأيت الجنود الإسرائيليِّين يقصفون الجثث، والكلاب تأكل بقايا الأجساد. كان ذلك يوم الواحد والعشرين من نوفمبر، وبقينا من السابعة صباحًا حتى الرابعةِ مساءً على الحاجز. المشهد كان مرعبًا: جثثٌ على جانبي الطريق، القطط والكلاب تسير بفمها الملطَّخ بدماء البشر، بشرٌ ممزَّقوا الأجساد وأغراضهم متناثرةٌ حولهم. كان اليوم ممطرًا، ومع ذلك، لم يتوقَّف القصف. أخي كان يجرُّني على الكرسيِّ المتحرِّك وسط جموعٍ كبيرةٍ من الناس الهاربة، كلَّما تحرَّكنا، كنت أصرخ من الألمِ، وأتمنَّى أن تسقط قذيفةٌ عليَّ لتُنهي معاناتي. كلُّ اهتزازةٍ في الطريقِ كانت تزيد من آلامي الرهيبة. الجنود الإسرائيليُّون كانوا يأخذون الشباب عند الحاجز ويقتلونهم مباشرةً أمامنا. رأيتهم يقتلون الشباب بدمٍ بارد. أخي قال فجأة: "إذا أخذوني أو قتلوني، ابن عمِّنا سيجرُّ كرسيَّك، اصبري». كنت أبكي وأقرأ القرآن، وأثناء التفتيش، طلبوا منَّا رفع

أيدينا. رأيت أيدٍ مقطوعة، ومرضى مبتورين، وخشيت أنَّهم قد يأخذونني أيضًا. لكنَّني واصلت قراءة القرآن بصوتٍ مسموع.

أمرنا الجنود الإسرائيليُّون أن نجلس على الأرض خافضي الرؤوس، أنا مقطَّعة الأطراف ولا أستطيع الحركة. كانوا يصرخون بالجميع ليخفضوا رؤوسهم وأخفضت رأسي إلى الأمام، حتى التصق ببطني، لم أستطع إنزاله أكثر. الناس من حولي كانوا ممرَّغين بالوحل والطين، كنَّا جميعًا مهانين، وهم يصرخون علينا قائلين: «أنتم يا أهل غزَّة، يا كلاب! نزِّلوا رؤوسكم يا حيوانات! أنتم كلُّكم تستحقُّون الموت! نزِّلي راسك يا إرهابيَّة!»، ولم نكن سوى أطفالٍ ونساءٍ وحوامل وشيوخ. بقينا على هذه الحال ثلاث ساعات، وهم يصرخُون: «ديروا يسار، ديروا يمين». كنَّا نمشي قليلًا ثم يغلقون الطريق، وإذا سقط منك شيء، يمنعونك من الالتفات إليه، وإن فعلت يطلقون النار عليك. كانوا يطلقون النار بشكلٍ عشوائيّ. خفت أن يقتلوني في بطني، فقد أطلقوا النار في الساعة العاشرة من اليوم نفسه على امرأةٍ حامل. شعرت بالخوف وبدأت أخفي بطني واضعةً كيسًا أمامه لأغطِّي حملي، وكان الجميع يطلبون منِّي أن أخبِّئَ حملي. كنت قد رأيت قبلًا امرأةً حاملًا أطلقوا النار عليها في بطنها في مستشفى العودة. أطلق الجنود النار نحو ابن عمِّي حين وضع أغراضه على الأرض محاولًا مساعدة أخي، أطلقوا النار بين رجلَيْه وهم يصرخُون: «امش، وإلَّا سأطلق النار عليك!». تجمَّد ابن عمِّي في مكانه، لقد نجا بأعجوبة، كنت أصرخ وأبكي طالبةً منه الإسراع. مشينا قليلًا ثم أمرونا بالتوقُّف، تحدَّثوا معنا من خلف ساترٍ صنعوه من

الرمال. لم يواجهونا مباشرة، بل كانوا يختبئون خلف ذلك الساتر، ويحدِّثوننا بالعربيَّة عبر الميكروفونات. كنَّا محاطين بالدبَّابات والكاميرات.

بعد ذلك، حملني أخوتي على كرسيٍّ متحرِّكٍ وضعوه على عربةٍ يجرُّها حمارٌ ليأخذوني إلى خالتي، هي ممرِّضةٌ وتعيش في النصيرات. ثبَّتوني جيِّدًا على العربة، كانت الطرق غير معبَّدة، والعربة تهتزُّ مع كلِّ خطوة، أخذت أصرخ من الألم الذي لا يوصف، وكأنَّني أموت ذبحًا ألف مرَّةٍ مع كلِّ اهتزاز. جروحي كانت تنفتح وتنزف دمًا، وأصرخ حتى وصلنا إلى النصيرات، منهكةً ومتعبة، كدت أغيب عن الوعي. وضعوني على فراشٍ على الأرض، كنَّا بلا طعامٍ أو شراب، ضغطي كان منخفضًا. ثم انتقلنا من النصيرات إلى رفح إلى بيت أقربائنا. ارتفعت حرارتي وكان هناك ألمٌ رهيبٌ في بطني، فأخذوني إلى المستشفى الأوروبِّي. كانت جروحي ملتهبة، وأعادوا تغيير الضمادات. بعد أسبوعَيْن بدأت علامات الولادة تظهر عليّ، وأخبروني أنَّ الولادة الطبيعيَّة مستحيلة، وأنَّه يجب إجراء عمليَّةٍ قيصريَّة، لأنَّ جسدي كان مقطَّعًا بالشظايا، ورجلي المتبقِّية بلا لحم، مشلولة، وكأنَّني بلا ساقَيْن. أثناء الطلق، نقلوني إلى مستشفى ناصر في خان يونس، إلى قسم الولادة. الطريق مليئةٌ بالحفر، الخبط والقصف أصبحا أمرًا طبيعيًّا. عندما وصلنا إلى المستشفى، فوجئوا بأنَّني مريضة سرطان، وكان لا بدَّ من إجراء تحاليل إضافيَّة، فانتظرت عودة أبي وأخي من مختبرٍ في خان يونس. كنت أستمرُّ في الطلق، وبعد أربع ساعاتٍ عاد أبي، وقال الأطبَّاء إنَّ الولادة قد تكون مستحيلة، وهم

مضطرُّون أن يختاروا بين حياتي وحياة جنيني.

قال الطبيبُ لأبي: «عليك الاختيار بين حياتها وحياة جنينها». فردَّ أبي قائلًا: «لا أريد أن أخسرها!». كان أبي يحبُّني كثيرًا، كنت مدلَّلَتُه. «أختارُ ابنتي»، قال أبي. قلت: «لا أريد أن أخسر ابني! أنا أختار ابني!».

الطبيب كان رائعًا، لم أعد أذكر اسمه، ولكن أعرف أنَّهم قصفوه لاحقًا هو وزوجته وأطفاله، وماتوا جميعًا. حينها حاول ذاك الطبيب إقناعي بأن أراهن على حياتي وحياة ابني. كان عطوفًا ورحيمًا كأب. ومن ثم لم أعرف ما حدث معي، فجأةً اختفى الطلق، ولم تكن ماء الرأس قد نزلت بعد، والرحم قد انغلق تمامًا. احتار الأطبَّاء، بقيت بعدها أسبوعًا كاملًا دون أن أَلد! في تلك الفترة الحرجة، ومع حالتي التي ظنُّوا أنَّها ميؤوسٌ منها، قرَّروا تحويلي إلى مصر. في ذلك اليوم، وصل الخبر أنَّ اسمي أُدرج في قائمة الجرحى. كنتُ أشعر وكأنَّ يومي يمرُّ وكأنَّه سنة! كلُّ ما أردته هو إنقاذ ابني. شعرت باليأس لأنِّي حتى لو استطعت ولادته، لم يكن هناك حليبٌ أو حفاضاتٌ أو طعام، وأنا لم أكن قادرةً على إرضاعه بسبب السرطان والتهابات جروحي المتفاقمة.

عبرت معبر رفح، نقلوني من الإسعاف الفلسطينيِّ إلى الإسعاف المصريّ. الألم كان مستمرًّا. سألني المسعف: «هل أنت حامل؟»، فأجبت: «نعم، وهذا آخر يوم في الشهر التاسع». كانت الآلام تجتاح جسدي من كلِّ مكان، اختلطت آلام المخاض مع آلام الجروح، ولم أكن أدرك أنَّني في حالة ولادة! كنت أصرخ من الألم، معتقدةً أنَّ ما أشعر به هو آلام جروحي

فقط. وعندما وصلنا إلى مستشفى العريش، قال لي المسعفُ: «أنت في حالة ولادة! أنت تطلقين!»، فأجبته: «لا، هذه آلام جروحي!». كنت أشعر وكأنَّ كلَّ خليَّةٍ في جسدي تُقطَّعُ بسكاكين. وفي نصف ساعة، ولدت ابني! لقد نجا، أسميته «رأفت». ولدتُ في الرابع من ديسمبر.

بعد ولادة رأفت، استشهد عمِّي الدكتور أبو سمعان في جباليا. كان مثل والدي، مليئًا بالحنِّيَّة والشهامة. جاء رأفت ورحل عمِّي الحبيب. الآن ابنتي لا تزال تعيش في خيمة، ولا تجد ما تأكله! وهي مصابة. كنت أعيش مع أطفالي، وكان من المفترض أن تكون ابنتي في مدرستها، لكنَّها الآن جائعة، ولا يوجد لديها دواءٌ أو حتى ماءٌ صالحٌ للشرب، هي مريضة. أخشى أن أفقدها. لا أعرف ماذا أروي وماذا أترك. في قصفٍ واحد، قُتل مئة شخصٍ من عائلتنا. كنت في المستشفى عندما سمعت الخبر بين الغياب والوعي، لكنَّني كنت أسمعُهم يتحدَّثون. قنصوا ابن عمِّي! استُشهد حماي وعمِّي وزوجي! حتى عمَّتي غادة لم تنج. لم يبق الكثير من عائلتي.

بعد ولادة رأفت، بدأت سلسلةً من العمليَّات في جسدي الممزَّق والمقطَّع. ما زلت أذكر أنَّهم قالوا لأمِّي: «اتركيها تموت بسلام واذهبي». لم يعتقدوا أنَّني سأعيش، لكنَّني عشت، أنا وابني! أرجوك، اذكري كلَّ هذا! عشتُ ولكنَّ قلبي مات! اذكري أنَّ زوجي بعد مجزرة المعمدانيّ، عندما رأى الأطفال الممزَّقين ورأى أشلاء أصدقائه تمنَّى الموت وأراد الرحيل، كان راضيًا بمصيره، لم يكن يحتمل هذه الحياة!

إسراء مهنَّا

33 سنة

مدينة الزهرا ـ الزهراء ـ وسطَ غزَّة

«شو كنت بسوِّي يوم سبعةَ أكتوبر»؟ «كنت بحاول أَصحِّي ولادي، لمَّا سمعْنا صوت الصواريخ». في البداية، اعتقدنا أنَّها كالعادة صواريخ إسرائيليَّة، ضربةٌ أو اثنتانِ أو ثلاث، وستنتهي كما يحدث بين فترةٍ وأخرى. لكن سرعانَ ما اكتشفنا أنَّ هذه الصواريخ تنطلق من هنا، من غزَّة. اعتقدنا أنَّها ربَّما تكون ردًّا على قصفٍ إسرائيليٍّ جديد، فقد اعتادت إسرائيل على استهداف شخصيَّاتٍ بعينها، نحن في الحقيقة، أُناسٌ بعيدون عن السياسة، نعيش تحت حصارٍ خانقٍ في غزَّة منذ سنوات، ولهذا كان الارتباك سيِّد الموقف. طوال سنوات، كنَّا نشعر بأنَّنا سجناء في

غزَّة، تفرض علينا الغارات، فما الذي يمكنُ أن يفعلوه الآن؟

لديَّ ثلاثةُ أطفالٍ مثل القمر. كانت مدينة الزهراء في الماضي تقع بالقرب من مستوطنة نتساريم، مدينةٌ منظَّمة، جميلة، مكتظَّةٌ بالأبراج السكنيَّة. بدأت عمليَّات القصف تستهدف المدينة بعد خمسة أيَّام، أخذوا يقصفون الأبراج العالية، وكنت أسكن في أحدها. بدأوا بتدمير أبراج الشمال، ثم أبراج الكرامة. في البداية، كان الإسرائيليُّون يتَّصلون بنا ويهدِّدوننا: «اخرجوا من بيوتكم، نحن سوف نقصفكم»، ولكن لاحقًا توقَّفت التحذيرات، بدأُوا بقصف الأبراج على رؤوس سكَّانها دون تحذير، كان ذلك فقط في الأيَّام الأولى، كنت مع زوجي وأولادي، نسمع صرخات الناس وهدير القصف. انتابني الخوف على أولادي، ولكنَّنا قرَّرنا أن ننتظر، فلا أحد يريد ترك بيته والتشرُّد نحو المجهول. لكن بعد عدَّة أيَّام، اتَّصل الإسرائيليُّون في منتصف الليل: «يجب أن تخلوا الأبراج وتخرجوا فورًا. اخرجوا باتِّجاه البحر، هيَّا!». لم يكن أمامنا أيُّ خيار! خرجنا على الفور.

وما إن تركنا بنايتنا متَّجهين نحو البحر، حتى بدأت الأبراج تسقط واحدًا تلو الآخر، كانوا يحطِّمون الأبراج كأنَّها علبٌ كرتونيَّة. أبراجٌ عالية تحوَّلت في ثوانٍ إلى غبار، كان مشهدًا أشبه بلحظة انهيار العالم. كنَّا نبتعد، تاركين بيوتنا خلفنا. استمرُّوا يقصفون بعنفٍ وانتقام، والأبراج تهوي واحدًا بعد الآخر، رغم علمهم بأنَّ مدينة الزهراء لم تكن تحتوي على أيِّ مقاومة، وأنَّ سكَّانها جميعهم كانوا من الموظَّفين المدنيِّين، لا يشكِّلون تهديدًا لأحد.

نزحنا إلى منطقة أهلي في جنوب القطاع، الزَّوايدةِ التي كانت تعدُّ أكثر المناطق أمانًا في الحروب السابقة. حركة النزوح كانت كبيرةً من شمال القطاع إلى جنوبه، وامتلأت البيوت هناك بالنازحين الذين فرُّوا من القصف، فتح الناس بيوتهم للهاربين من الموت، حتى لمن كانوا لا يعرفونهم من قبل، كان الجميع يساعد الجميع. كنَّا نعتقد أنَّ الأمر لن يستمرَّ سوى أيَّامٍ قليلة، ثم تعود الأمور إلى سابق عهدها. ثم ما لبث القصف أنْ استهدف منطقة الزوايدة، تلك المنطقة التي ادَّعى الجيش الإسرائيليُّ بأنَّها منطقةٌ آمنة. قصفوا بيت عائلة حسُّونةَ ـ جيراننا الذين عشنا معهم ـ بحجَّة أنَّ بعض شباب العائلة كانوا مع المقاومة كما تذرَّع الإسرائيليُّون. كان بيت عائلة حسُّونة مليئًا بالمدنيِّين والنازحين، وكانوا قد احتفلوا بخطوبة ابنتهم في اليوم السابق، كنت في بيت أهلي عندما حدثت الضربة. عرفنا من قوَّة الانفجارِ أنَّ الأمر خطير، لقد أصبحت لدينا خبرةٌ بالموت، يكفي أن نسمع صوت الصاروخ كي نعرف حجم الموت والدمار الذي تركه. هرعنا إلى الشارع لتفقُّد الناجين، ووجدنا من بقي من العائلة حيًّا يبحث تحت الأنقاض عن الباقين. آية حسُّونة شابَّةٌ خُطِبت قبل يومٍ واحدٍ فقط من القصف. والدها كان يبحث عنها، يأمل أن تكون قد نجت وربَّما جاءت إلينا، ولكنَّها كانت مدفونةً تحت الأنقاض مع بنات خالها النازحات لديهم. سقط سقف البيت عليهنّ، ومتن جميعًا. معظم من شهدوا حفل خطوبتها دفنوا معها تحت الأنقاض. بعض الجيران كانوا يحاولون رفع الأنقاض، ولكنَّ الطيران الإسرائيليَّ لم يدعهم يكملون، قصفهم هم أيضًا وماتوا.

تكرَّرَ هذا المشهد المأساويُّ ذاته في حالاتٍ كثيرة.

كانت الأمور تجري هكذا: يموت من يموت، ومن ينجو يبقى لعذابه. ورغم البؤس الذي أصابنا ونحن ننتظر دورنا في الموت، ولكنَّنا لم نتوقَّف عن مواساة جيراننا أنا وأهلي، رغم أنَّ القصف العشوائيَّ لم يرحم أحدًا. في الشهرَيْن الأوَّلَيْن، بدأت معاناتنا تزداد بسبب نقص الطعام والشراب، ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فقد بدأنا نفقد كلَّ شيء. لم نعد قادرين حتى على الوصول إلى المصابين أو مساعدة الناس، إذ كانت الطائرات تقصف المسعفين بلا هوادة. كنَّا نطبخ للجرحى، ونحمل الطعام إليهم، نسافر بالسيَّارة أنا وأهلي لتوزيع الطعام والملابس، نهرب من القصف ونحاول مدَّ يد العون للآخرين.

درست التمريض، ولكنَّني لم أعمل به، فقد انشغلت برعاية أولادي. ومع بدء الحرب، لم أتوقَّف عن تقديم العون للمصابين من حولي. كان أمرًا غريبًا أن أجد نفسي أركض دومًا لإسعاف الجرحى، وكأنَّ غزَّة أصبحت مدينةً للموتى والجرحى فقط. في إحدى المرَّات، بعد القصف، عثرت على فتاةٍ فقدت كلَّ أهلها، كانت مكسورة الحوض ولا تستطيع التحرُّك. حملتها معي إلى بيت أهلي، وكانت تتألَّم بشدَّةٍ لعدم توفُّر المسكِّنات. صارت هناك روحٌ من المُساندةِ بينَ الجميع، رغم كُلِّ ما كنَّا نمرُّ به. عملت كممرِّضةٍ للآخرين بما استطعت، ورغم ذلك كنت أشعر بعدم الرِّضا. في إحدى المرَّات، أرادوا التأكُّد من أنَّ طفلةً أُخرجَتْ من تحت الأنقاض لا تزال على قيد الحياة. كانت الطفلةُ التي لم يتجاوز عمرها السنة والنصف، باردةً تمامًا. عرفت

أنَّها ماتت منذ وقتٍ طويل. الحقيقة أنَّ الكثيرين كانوا يموتون تحت الأنقاض، وغالبًا ما يختنقون بسبب تأخُّر المساعدة. لم تكن هناك أدوات، ولا مسعفون، ولا سيَّاراتُ إسعاف، وإن وجدت كانت تستهدف من الطائرات الإسرائيليَّة، ممَّا يؤخِّر عمليَّاتِ الإنقاذ. ومع استمرار القصف بلا توقُّف، كان الناس يُتركونَ تحت الأنقاض لأيَّام. كانت حالة الطفلة مشابهةً لما حدث مع جيراننا من عائلة حسُّونة وصيدم، حيث لم تصل آلات الحفر في الوقت المناسب. نزل إخوتي للمساعدة في انتشال جيراننا من تحت الأنقاض، ولكنَّهم لم يستطيعوا الاستمرار؛ كانت وجوههم شاحبةً من هول الموقف. بالكاد كنَّا نُخرِجُ الناس من تحت الأنقاض قبل أن ينتقل القصف إلى مكانٍ آخر، فنركض من مكانٍ إلى آخرَ بلا توقُّف. كثيرون ماتوا، أكثر ممَّا يمكن تخيُّله. حتى جيراننا من عائلة عليومة قُصفوا وقُتلوا، أناسٌ طيِّبون لا علاقة لهم بالسياسة ولا بحماس ولا بالمقاومة، كانوا مجرَّد أُناسٍ غلابة ومحترمين، ولكنَّهم لم يسلموا من الموت.

رأيت جثَّة أحد الشباب تطير أمامي في قصفٍ قريب. كان والده يبحث عنه، ثم وجده أخوهُ وحمل جثَّته بين ذراعَيْه. كنت أمشي بين الجثث، أراها واحدةً تلو الأخرى. أمامي كانت مجموعةٌ من النساء المصابات والجريحات، فاندفعت نحوهنَّ رغم خوفي لأنَّني أعلم أنَّ الإسرائيليِّين يُعاودون القصف إذا ما رأوا مسعفين. كنت أتَّجه نحو النساء الجريحات قرب البيت المهدوم عندما مررت بجانب الشابِّ الذي رأيت جثَّته تطير، لم أقترب منه. لأنَّني ببساطةٍ عرفت أنَّه مات، ولم يكن بحاجة إليَّ. قلت

لنفسي: يجب أن أحتفظ بما تبقَّى من قوَّتي للأحياء، كان الخوف يرافقني، ولكنَّني تقدَّمت. تأتي قوَّة القلب لأُناسٍ دون آخرين، وليس لها علاقةٌ بالشجاعةِ أو الجبن؛ هي أمر لا يمكن تفسيره. لم يكن الأمر سهلًا، رؤية الأشلاء البشريَّة وغيرها من المشاهد التي لا أستطيع الحديث عنها. أنا وإخوتي كنَّا نركض لإسعاف الناس. كنَّا من تلك العائلات التي امتلكت قلبًا يتحمَّل كلَّ ذلك. كانت أمِّي تخاف علينا من الانفجارات المتكرِّرة بعد القصف، وتصرخ منادية في الشوارع، ولكنَّها لم تكن قادرةً على إيقافنا. لم نستطع ترك الناس يموتون، لم يكن ذلك خيارًا أبدًا. كانوا جيراننا، أحبَّتنا، ورفاقنا. لم نكن ننتظر وصول فرق الدفاع المدنيّ، كنَّا نركض إليهم، الجيران والنازحين الذينَ لجؤوا إلينا.

كنَّا نعيش مع النازحين الذين استقبلناهم في بنايتنا، ولم يكن لدينا جميعًا أيُّ شيءٍ له علاقةٌ بالمقاومةِ أو بحماس. كانوا يكذبون عندما يقولون إنَّهم يستهدفون حماس؛ لقد قصفونا وهم يعلمون أنَّنا مجرَّد مدنيِّين. اعتقدنا أنَّهم لن يعاودوا القصف بعد أن دمَّروا الأبنية من حولنا. انشغلنا برعاية النازحين؛ كانت لدينا نساءٌ حوامل وأخريات ولدنَ بعمليَّاتٍ قيصرية. كان وضع النساء الحوامل، اللواتي كنَّ على وشكِ الولادة، صعبًا للغاية. كنت أقوم بتقطيب الجروح، وإزالة الغرز، والعناية بالأطفال والنساء في ظروفٍ فظيعةٍ لا يمكنني الحديث عن تفاصيلها. لم تكن هناك مواصلات، والقصف لم يتوقَّف، بينما الكادر الطبِّيُّ كان مشغولًا بالمصابين.

حين تنشغل بمصائب الآخرين، تفاجئك مصيبتُك. في ليلة

العاشر من أكتوبر، فجأة، استيقظت وشعرت وكأنَّ شخصًا يشدُّني نحو الخارج. عندما يقع القصف عليك، لا تشعرين بشيءٍ ولا تسمعين شيئًا. كنت في غرفةٍ واحدةٍ مع زوجي وأطفالي، وحَماي الذي يبلغ من العمر 65 عامًا. في كلِّ ليلة، كنت أفتح عينيَّ لأراهُ يصلِّي الفجر، ينهض للوضوء، وأنتظر حتى ينتهي لأتوضَّأ بعده. وفي ذلك اليوم، قبل الضربة بثوان، فتحت عينيَّ وقلت لنفسي: هل توضَّأ أم لا؟ ثم بعد ذلك، لم أعد أذكر شيئًا. كان الأمر غريبًا، كأنَّه حلمٌ أو كابوس.

استيقظت وعيناي مليئتانِ بالبارود، أتنفَّسُ بصعوبة، وكأنَّني أختنق. لم أستطع فتح عينيّ، ولم أكن أعرف ما الذي يحدث. اعتقدتُ أنَّني في حلم، وأنَّني سأقوم لأصلِّي، وعندما حاولوا سحبي، صرخت من الألم؛ كان كتفي مكسورًا، ولكنَّ صرختي كانت تعني أنَّني على قيد الحياة، وشعر من حولي بالراحة. من يحاول إنقاذي لا يستطيع الرؤية جيِّدًا، فقد كان الغبار الأسود الكثيف يملأ المكان، والظلام يغمر كلَّ شيء. لم أستطع تمييز الأجساد، كانت سوداء أحيانًا، ومشوَّهةً أحيانًا أخرى. أحدهم يسألني: «هل يوجد أحدٌ بجانبك؟». تذكَّرت لحظتها أولادي! لم يكونوا بجانبي، لقد قذفهم الانفجار بعيدًا. أخرجوني من تحت الأنقاض، ثم وجدوا أطفالي. علمت أنَّ إخوتي استيقظوا على صوت الارتجاج، وأنَّ الطوابق العُليا لم تُصبْ بأضرارٍ كبيرة، حيث كان يسكن فيها نازحون. أخبرني أهلي أنَّهم حاولوا النزول للاطمئنان علينا، لكنَّهم لم يستطيعوا؛ كلُّ شيءٍ في الطوابق السفلى كان مدمَّرًا، والركام يُغطِّي كلَّ زاوية. تذكَّرت حماي

الذي كان نائمًا على سريره حين وقع الانفجار. قذف به الانفجار مع فراشه، ارتطم بالحائط ومات. النازحون ظلُّوا تحت الأنقاض فاقدي الوعي. أخي قال لي إنَّ ذلك اليوم كان أشبه بيوم القيامة، وإنَّني كنت أنادي وأنا تحت الركام.

قالت لي أمِّي إنَّها لم تَرَ شيئًا، بل كانت تسمع صوت أخي فقط، وهو يصرخ. قالت إنَّهم أشعلوا ضوء الجوَّال ليتمكَّنوا من الرؤية، ثم وجدوا أمِّي تائهةً لا تعرف أين هي وماذا حصل! في تلك اللحظة كانوا ينتشلونني من تحت الأنقاض، وعثروا على ابنتي التي وجدت بدورها أختها الصغيرة. الصدمة التي عاناها أهلي كانت قويَّة. بعد اهتزاز البيت، تكسَّرت النوافذ وتطاير الأطفال من مكانٍ إلى آخر. كانت المفاجأة مرعبةً بالنسبة إليهم؛ أدركوا فجأةً أنَّهم من قُصفوا. أبي، كما أخبروني لاحقًا، وقف مذهولًا. كان الأمر كأنَّه كابوسٌ لا يمكن تصديقه، الخراب والدمار في كلِّ مكان، وكأنَّنا في حلمٍ مرعب. ابنتي الصغيرة، التي كانت تبلغ من العمر سنتَيْن، شُقَّ رأسها. أمَّا أنا، فقد كنت مكسورة الرقبة والكتف والأضلاع، مع حروقٍ في ظهري وجسدي. ابنتي بيسان، التي كانت في العاشرة من عمرها، أخرجت أختها الصغيرة من تحت الركام. كانت تبكي من الألم، ورأسها ينزف، بينما وقف إخوتي عاجزين، هم الذين أنقذوا الجميع من حولهم، لم يستطيعوا إنقاذ ابنتي! ابنتي الأخرى قالت لي إنَّني كنت أصرخ، وإنَّني كنت أرتجف من البرد بينما هي تحمل أختها، عاجزةً عن فعل أيِّ شيء. لم يستطع أحدٌ الاقتراب منِّي. كما قالت إنَّ الأرض كانت ساخنةً كالنار بسبب الصاروخ.

هكذا، وقف إخوتي عاجزين، وابنتي بيسان واقفةٌ تحمل أختها الصغيرة وتنظر إلى جمجمتها المفتوحة. زوجي قال لي لاحقًا إنَّه استيقظ من الانفجار وهو يشعر كأنَّه يطير في الهواء. وجدَ نفسه ممدَّدًا ومرميًّا على الأرض، وظنَّ أنَّه في حلم، حتى سمعَ إخوتي يقولون: «هاتوا لفُّوا إسراء بالبطَّانيَّة»، فظنَّ أنَّني قد متّ. قال لي: «لمَّا سمعت هاد الشي، وقفت على رجلي». أخبرني إخوتي أنَّهم رأوا فجأةً رجلًا مغطًّى بالغبار، بعينَيْن حمراوَيْن وحاجبَيْن يكسوهما غبارٌ أبيض، يقترب منهم كأنَّه كائنٌ متوحِّشٌ غريب، ويقول بذهول: «ما لها إسراء؟». فعرفوا أنَّه زوجي. كان ضلعه مكسورًا بسبب الانفجار الذي كان عنيفًا لدرجة أنَّ الأجساد طارت وكُسرت. كانت جميع أجسادنا مكسَّرة، وما زالت آثار الحروق على جسدي. قالوا لي إنَّني تكلَّمت في سيَّارة الإسعاف، أسألُ إنْ كان هذا حلمًا، وأستفسر عن أولادي، لكنَّني لا أذكر شيئًا من ذلك. أخذونا أخيرًا إلى المستشفى، ولحقَ بنا زوجي بينما كنت غائبةً عن الوعي.

الألم غريب، لا أستطيع فهمه. أهلي لم يتمكَّنوا من الاقتراب منِّي في البداية. صدموا رغم أنَّهم أنقذوا الجيران من قبل، لكن عندما تصبح المصيبة تخصُّك، يصبح من الصعب التحرُّك. أنا ممرِّضة، رأيت ما تعنيه المعاناة، وعشت الموت والحروب. نحن في غزَّة نعرف الحرب، «أنا بنت حرب». منذ ولادتنا ـ نحن أهلُ غزَّة نعرف ما هي الحرب ـ، لديَّ قوَّةٌ وإيمانٌ لتحمُّلِ الصعاب، وأعرف قوَّتي، لكن رغم كلِّ ذلك لم أَرَ ما رأيته بعد السابع من أكتوبر. كان ذلك أمرًا يفوق الاحتمال؛ كان

الإسرائيليُّون يروننا لا نستحقُّ الحياة ويريدون تحويلنا إلى غبار، كلُّنا بلا تمييز. نعم، لقد وقفت بعناد، وأردت أن أعيش. قلت للممرِّضِ في المستشفى، «أنا لا أستطيع التنفُّس، لا أقدر». طلبت الأكسجين، كنت قد ابتلعت الكثير من البارود، ولم أكن أستطيع التنفُّس، وكدت أموت. ظنَّ الجميع أنَّني سأموت، ولكنَّني واثقةٌ أنَّني لو لم أتقيَّأ البارود الأسود الذي خرج من أحشائي مع الدماء، لما تعافيت. لقد تقيَّأت بارودًا أسود، ورأيت أشياءً فظيعةً تخرج من داخلي، لا أعرف ما هي السموم التي قصفونا بها، لكنَّني صمَّمت على الحياة وتقيَّأت تلك السموم. بقيت أتقيَّأ حتى تقيَّأت الدماء، وبدأت حالتي تتحسَّن بعدها. كنت أغيب عن الوعي، أرى خيالاتٍ غريبةً وكوابيس، ثم أفيق قليلًا، وأغيب مجدَّدًا. لم أكن أعرف حينها أنَّ حماي قد توفِّي، وأنَّ ابنتي الصغيرة ذات السنتَيْن في حالةٍ خطيرةٍ وأنَّها فقدت جزءًا من عظام جمجمتها. لم أكن أعرف، لأنَّني كنت بالكاد أسمع الأصوات من حولي؛ أصوات دعاء، وكأنَّها تأتي من بعيد.

لا أعرف كيف تداخل الموت بالحياة، لكنَّني أذكر أنَّني عندما رأيت ابنتي وقد قطَّبوا جبينها، شعرت أنَّ أمرًا خطيرًا قد أصابها. كان وجهها منتفخًا ومتورِّمًا مثل رجال الفضاء، ورأسها ملفوفٌ بالكامل بالشاش. كنَّا حينها في مستشفى شهداء الأقصى، وكان وجهها مخيفًا. أنا ممرِّضةٌ وأدركت أنَّ وضع ابنتي خطير؛ كان وجهها أزرق ومنتفخًا، وعيناها متورِّمتَيْن وجاحظتَيْن. كانت مجرَّد طفلةٍ في عمر السنتَيْن، وكان شكل وجهها يخيفني. كنت أريد أن أتكلَّم، أن أتحرَّك، لكنَّني لم أكن قادرةً على الكلام.

المصابون كانوا يتوافدون باستمرارٍ لأنَّ القصف لم يتوقَّف، وشعرت بالخوف. أخيرًا، رأيت ممرِّضًا وطبيبًا، وأخبروني أنَّهم قرَّروا إجراء عمليَّةٍ لابنتي. شعرت بشيءٍ من الهدوء، رغم أنَّني لم أستطع الكلام. وضع ابنتي يحتاج إلى وقت كما قالوا. كان وضعها صعبًا ودقيقًا، ويتطلَّبُ عدَّة عمليَّاتٍ تأخذ الوقت وتحتاج إلى الصبر. المستشفى مليئةٌ بالمصابين، لكنَّها تحوَّلت أيضًا إلى مكانٍ للنازحين. يأكلون ويشربون ويعيشون، نساءً ورجالًا وأطفالًا، في الممرَّات.

وُلدتُ في عامِ 1990، وعشتُ الحصار على غزَّة، وشهدت الحروب ومررت بتجارب رهيبة، لكن لم يكن هناك شيءٌ مثل هذا. كنت أظنُّ أنَّني معتادةٌ على الحربِ والقصفِ وعلى القسوة، ولكن ليس بهذا الشكل! عندما وقعت أوَّل حرب، كنت في الجامعة، وكانت المرَّة الأولى التي أختبر فيها معنى القصف. ضربوا مواقع حماسٍ العسكريَّة، وكان الأمر أشبه بزلزال، حدث ذلك في سنة 2008، ولم نفهم ما حصل إلَّا لاحقًا. وفي عامي 2012 و2014 كانت الحرب في شهر رمضان، وكان أطفالي صغارًا جدًّا. كنت أعيش مع أهل زوجي، وكان القصف أقلَّ وحشيَّةً ولم يكن هناك نزوح. كانت الحروب تأتي ويموت البعض، ثم تمضي، نرتاح لفترة، ثم يعودُ القصف. لم نواجه شيئًا مثل ما يحصل الآن، هذه وحشيَّةٌ غيرُ مسبوقة.

كنت أفكِّر في رأس ابنتي الصغير، جمجمتها المكسورة، وكيف يمكن لرأسٍ صغيرٍ أن يكون ناقصًا وتستمرَّ في الحياة رغم كلِّ ذلك. كنت أشعر بالانهيار، ولكنَّني لم أفقد الأمل. بقيت

ابنتي في المستشفى لمدَّةِ شهرٍ تتلقَّى العلاجات الوريديَّة، ولكن جروحها التهبت بسبب البارود المسموم الذي كان في الصواريخ. أخبرني الأطبَّاء أنَّ الصواريخ المستخدمة تحتوي على موادَّ قاتلةٍ جديدة، وأنَّ الإصاباتَ لا يمكن شفاؤها بالمضادَّات الحيويَّة التقليديَّة. حالتي الصحِّيَّةُ كانت سيِّئةً للغاية، ولم أستطع التحرُّك، حتى إنَّني لم أستطع تحريكَ رأسي. أمَّا ابنتي، فقد كانت حالتها تتدهور، ولم أكن أراها إلَّا مرَّةً كلَّ خمسة أيَّام. كنتُ أرى وجهها المتورِّم وعينَيْها الجاحظتَيْن، وأُدرك تمامًا كم كان وضعها خطيرًا.

عندما أستوعبت أنَّني نجوت، لم أصدِّق! لا أصدِّق أنَّني ما زلت أعيش. أقول لنفسي: سأنجو بأولادي، وابنتي ستنجو. كان ذلك جزءًا من الألم الجماعيِّ الذي عشناه جميعًا، وهناك آخرون عانوا أكثر منِّي. الإبادة التي رأيتها جعلتني أشعر بالامتنان للقوَّة الإلٰهيَّة التي منحتني الحياة وجعلتني أستطيع التحمُّل. كنَّا نجمع الحطب حتى نستطيع الطهي. في البداية، كان هناك بقايا غاز، لكن عندما نفد الغاز، اضطررنا لإشعال النار. حرقنا كلَّ ما وجدنا من كرتون، لكنَّ الحرب استمرَّت ستَّة أشهر. البيت امتلأ بالنازحين، وكانت الدنيا باردة، واحتجنا لإشعال النار للاستحمام. كانت معاناتنا كبيرة. كنَّا ندور في الشوارع لجمع الحطب، إخوتي يذهبون إلى أماكن بعيدةٍ لجمع ما يمكننا إشعاله. عندما قصفوا بيتنا، كان كلُّ أثاثنا تحت الأنقاض، وجدنا أنفسنا سعداء، لأنَّنا سنستخدم دمار بيتنا لإشعال النار! للحظة، بدت الحياة بلا جدوى. كنَّا نعود إلى عالمٍ غريب، عالم الإنسان

البدائيّ. استهلكنا كلَّ ما تبقَّى من بيتنا لإشعال النار، وكلُّ الناس كانت تفعل الشيء نفسه. كنَّا جياعًا، وكان هناك قصفٌ مستمرّ، والطعام نفد. وحتى إن وُجِد، كان من نوعيَّةٍ سيِّئةٍ تُسبِّب الأمراض. أكثر ما كان يؤلمني هو رؤية الأطفال وهم جياع، يطلبون الطعام، ونحن عاجزون عن فعل أيِّ شيء. سيطر الإسرائيليُّون على مدينة الزهرا حيث كان بيتُنا. والآن لم يعد لدينا بيت، ولا أعرف كيف سأعود. أحيانًا أفكِّر في أمِّي، التي ربَّت ابن أخيها اليتيم بعد أن فقد والده الذي استُشهد. عشت مع حزن أمِّي، ونحن عشنا مع الموت. عشنا في حدادٍ دائم، لم نعرف الفرح. نحن في حربٍ طويلةٍ منذ زمنٍ بعيد. أمِّي ابنة حرب. نحن ورثة الأحزان، ورثة الحروب. نحن أولئك الذين يبادون بعد كلِّ هذا الإرث الثقيل. أنظر إلى طفلتي، التي جعل الإسرائيليُّون رأسها ناقصًا من العظام، هذا جنوني! لم أطلب الكثير من الحياة. أمِّي ورثت الألم عن أمِّها، وأنا ورثته عنها، وسوف أورثه لابنتي. نحن نرث الحرب والألم والقهر منذ عشرات السنين، والآن نعيش الإبادة.

سجود أبو حليب

19 سنة

خان يونس، منطقة القرارة

نحن نعرف الحرب، نعرفها جيِّدًا. في إحدى هذه الحروب قصفوا بيتنا، واستشهد أبي. كان ذلك في سنة 2014. لذلك عندما رأيت الصواريخ تخرج من غزَّة، عرفت أنَّ الوضع سيكون رهيبًا.

أعيش مع أُمِّي وثلاثة إخوةٍ شباب وزوجة أخي. أُمِّي موظَّفةٌ في إدارةِ الزراعة، وأبي كان موظَّفًا في المطار. عندما بدأ القصف الإسرائيليّ، ذهبنا إلى بيت لاهيا في الشمال، على عكس كلِّ الناس وعلى عكس ما يريده الإسرائيليُّون. خبرتنا في حروبٍ سابقةٍ جعلتنا نعتقد أنَّهم سيدخلون عبر الجنوب. بقينا في شارع

حبوب في بيت لاهيا لأربع ليال. كانت ليالٍ صعبةً جدًّا.

القصف مستمرٌّ طوال الوقت، الأبنية تتساقط من حولنا، انتقلنا إلى المنطقة الوسطى، لم يتوقَّف القصف. قلت لأهلي: «لنعد إلى بيتنا، غزَّة كلُّها غير آمنة!» وخرجنا أنا وأهلي. وفور خروجنا، سقطت قذيفةٌ على البيت الذي كنَّا فيه.

في القرارة، حال عودتنا إلى بيتنا، اتَّصل الإسرائيليُّون ليأمرونا أن نترك المنطقة. يعني ببساطةٍ كانوا يلاحقون الناس من مكانٍ إلى آخر. قالوا لنا: «اخلوا واتركوا!».

في الفجر، بينما نحن نصلِّي، أمطروننا بأحزمة ناريَّة. ونحن! ماذا نفعل؟ كنَّا ننتظر، نصلِّي وننتظر الموت! الموت فقط! الأحزمة الناريَّة لم تكن تتوقَّف، والموت أيضًا! لا أريد الحديث عن التفاصيل.

صرنا في شهر نوفمبر، والوضع لم يتغيَّر. موتٌ دائم، قصفٌ دائم، انتظارٌ للموت! وفي كلِّ صباح، أخرج لأرى الدمار والشظايا والجثث. ثم ذهبنا إلى مدرسة نازحين في حيِّ الأمل، اسمها مدرسة الأمل! أمرٌ مضحكٌ هذه الأسماء! لقد خرجنا بثيابنا ولم نأخذ ملابسنا. في مدرسة النازحين، قصفنا الإسرائيليُّون أيضًا. أخي عمره 15 سنة، مُجرَّد ولدٍ يلعب أمام المدرسة، أكل الصاروخ جسده، والشظايا أكلت جسده، لم يمت، شاهدوه يتحرَّك، فحاولت قتله طائرةٌ زنَّانة.

طائرةٌ زنَّانة! لماذا قد تقتلُ طفلًا؟! ثم قالوا إنَّ حمزة ابنَ عمِّي استُشهِدَ أيضًا. أخذوا أخي إلى مستشفى ناصر، جروحُه

كانت خطيرةً وبليغة. ذهبنا إلى دار عمّي لعزاءِ ابن عمّي الصغير، عمره ستُّ سنوات.

اقتربَ الإسرائيليُّون من المدرسة، صراخ النازحين وعويلهم أعلن اقتراب الخطر، لقد كان الجيش الإسرائيليُّ يقتحم المكان. حاصروا المدرسة وكنَّا في الداخل، شعرنا بالرعب. ماذا يريد الإسرائيليُّون منَّا، طردونا من بيوتنا وقصفوها ثم لحقوا بنا وقصفونا، ثم جاؤونا مرَّةً ثانية! لحقوا بنا إلى مدرسة النازحين هذه. أغلبنا نساءٌ وأطفال! ماذا يريدون؟! طلبوا إخلاء المدرسة، وأن نتَّجه إلى الجنوب.

لم نكن نعرف أين سنذهب. كانوا يلاحقوننا من مكانٍ إلى آخر. كنَّا منذ شهرٍ في المدرسة، ولم تكن هناك سيَّاراتٌ للتنقُّل، ولا يوجد بنزين. ولا نعرف ما الذي سنفعله. وهكذا خرجنا، حملنا حقائبنا ومشينا من شارع الطينة. أخي الأوسط كان يبحث عن وسيلة نقل. نمشي تحت إطلاق النار، نمشي والرصاص بيننا وحولنا. هكذا كان تقسيم الأدوار بيننا؛ نحن نخرج من المدرسة وفي الأثناء كانوا يطلقون النار بين أقدامنا وفوق رؤوسنا.

رأينا في مدرسةٍ قريبةٍ منَّا الكثير من الجثث. كانت الدبَّاباتُ تلتفُّ من حولنا، وبيننا، يراقبون حتى تنفُّسنا. دبَّاباتٌ وجنودٌ وزنَّانات، ننتظر أخي الذي تأخَّر، وبدا أنَّه محاصرٌ بين الدبَّابات. كانت الطائرات من حولنا، وزوجة عمّي المقعدة معنا، ونتقدَّم هكذا ببطء!

ذهبنا دون أخي الذي أوصانا أنَّه إذا حدث أمرٌ ما وتأخَّر قبل أن يعود بوسيلة نقل، فعلينا أن نتقدَّم ونتركه. أرتال النازحين

تمشي من حولنا، تفصل بيننا الطائرات الزنَّانة والدبَّابات والجنود. في لحظةٍ ما، اعتقدت أنَّهم سيجمعوننا ويقومون بعمليَّة إعدامٍ جماعيٍّ لنا جميعًا!

بقينا في المكانِ الذي تركونا فيه. كان البرد شديدًا، ونمنا على الأرض. كنَّا قد فقدنا أخي. اعتقدت أنَّ أخي مات. لكنَّه كان يبحث عنَّا ونحن نبحث عنه!

وصلنا إلى مواصي خان يونس، نصبنا خيمةً وجلسنا فيها مع عائلة عمِّي. صارت الخيمة بيتنا الجديد.

كنت أخاف من الأحزمة الناريَّة. لكنِّي من كثرة الموت والأشلاء تبلَّدت. في المستشفيات، وأنا أزور خالتي، رأيت الأهوال، تبلَّدت. أظنُّ أنِّي لم أعد أشعر! أظنّ أنِّي توقَّفت عن الشعور. أكبر كذبةٍ يقولها الإسرائيليُّون إنَّهم يقصفون حماس. إنَّهم يقصفوننا نحن ـ المدنيِّين ـ الأطفال والنساء!

لقد قتلوا ابن عمِّي الآخر بطائرةٍ زنَّانة. أنا أعرفه! لم يكن من حماس ولم تكن له علاقةٌ بالسياسة. لماذا قتلوه؟ أفقروا الناس. الأسعار غالية، ولا يوجد أكل! تأتي بعض المعلَّبات مرَّةً في الأسبوع من الأونروا.

لقد نشفَت دموعي! عمري 19 سنة ومع ذلك أشعر أنِّي هرمة. لمَّا قصفوا المدرسة جنبنا، رأينا النازحين فيها يجمعون أشلاء بعضهم البعض! وبعد ذلك، ما الذي يفيد؟ لقد ماتوا! كانوا يحملون الجرحى والأشلاء ويمشون بهم. كنَّا جائعين، ولا يوجد أدوية! لا يوجد شيء. كنَّا نموت فقط. حاصروا مستشفى

ناصر. كلُّ هؤلاء البشر أمامي...

قبل الحرب، كنت أقول لأمّي أنّي رأيت حلمًا، أنَّ هناك نارًا تلحق بنا. كان هناك شارع البحر، ورأيت مشهدًا من الدمار. قلت لأمّي لنسافر، لنهاجر، لنترك غزَّة، لنرحل بعيدًا. ولكنَّ أمّي قالت: «لا، سنبقى هنا»، بقينا هنا وتحقَّقَ حلمي! أكلتنا النار.

عشت يتيمةً دون أب. قتله الإسرائيليُّون. كان أبي يستحمّ، قصفوا بناء بجانبنا، وضربته شظيَّةٌ في رأسه، نزف ومات. كان عمري تسع سنوات.

ما معنى هذا! ما الذي فعلوه بنا؟ لا يوجد كلام.

الطائرات الحربيَّة تعيش معنا. تنزل بيننا، ذاهبةً وجاية. لم يكونوا بحاجةٍ لوجودهم جسديًّا ليقتلونا، أسلحتُهم المتطوِّرة وطائراتهم الآليَّة تكفي! لم يتركوا سلاحًا إلَّا واستخدموه. دبَّاباتُهم تظهر فجأةً وتُصوِّب نحوَنا.

مرَّةً أطلقوا النار على أخي، لماذا! كان يركض، هم فقط يُطلقون النار على من يركض! الكثير مات هكذا.

هل أقول شيئًا! لم يبقَ عندي أيُّ شعور، لا شيء! أنا فقط أراقب كلَّ هذا الموت، دون أيِّ انفعال! مرَّةً كنت أنا وأخي في الشارع، وفجأةً فجَّرت الطائرات حزامًا ناريًّا قربنا، كنَّا قريبَيْن جدًّا من الانفجارات، ماذا حصل! وقفتُ صامتةً فقط. لم أخف، ولم أفعل شيئًا. أحيانًا أفكِّر أنّي ميتة. ودائمًا أفكِّرُ بإخوتي الذين يعيشون في الخيام تحت خطر الموت.

لنتوقَّف هنا! لا أريد إكمال الحديث.

مهنَّد رضوان

15 سنة

شمال غزَّة

تعتقدين أنَّني ما زلت طفلًا! كنت سأخبرك أنَّ عمري ليس 15 سنة، هكذا يظنُّ الجميع، أنا أيضًا أستغرب عندما أتذكَّر عمري ولكنَّني قرَّرت أن أكون صادقًا.

ما الذي حدث منذ السابع من أكتوبر؟! كلُّ شيءٍ يمكن تخيُّله حدث، وكلُّ شيءٍ لا يمكن تخيُّله حدث أيضًا. كنَّا في ذلك الصباح الباكر مثل بقيَّة الناس في بيوتنا. ومثل بقيَّة الناس، سمعنا أصوات الصواريخ، لا بدَّ أنَّكِ سمعت التفاصيل نفسها مرَّاتٍ عديدة، لن أُعيدها! بعد يومَيْن، تلقَّيْنا اتِّصالًا من الجيشِ الإسرائيليّ، كنَّا نيامًا، وكانت الساعة الثانية عشرة ليلًا حين

أجبرونا على الخروج من بيتنا. كنت ما زلت أتثاءب حين دفعني أهلي خارجًا، ليس لدينا أيُّ مكانٍ نذهب إليه. لم أفكِّر بأيِّ شيء، أصلًا لم يكن هناك وقتٌ للتفكير إلَّا بالهروب، لم أنطق بحرفٍ ولم أحاول التمسُّك بأيِّ شيء. كان القصف جنونيًّا، الصواريخ تتطاير حولنا، صواريخ عشوائيَّةٌ تبحث عن أهدافها، أحدُها أصاب بيت عمَّتي، الأستاذة رجاء رضوان، لم تأت سيَّارات الإسعاف، ولا أعرف حتى إن كانت متوفِّرة، فالصواريخ العشوائيَّة ذاتها لم تكن لتوفِّرها. كان الوضع فوضويًّا، والصواريخ تبحث عن أيِّ شيءٍ يتحرَّك كي تستهدفه، لم يترك القصف فرصةً للناس لفعل أيِّ شيء. ومع ذلك ذهب أبي وأعمامي نحو بيت عمَّتي، ذهبوا دون معدَّاتٍ أو أيِّ شيء، مخاطرين بحياتهم وهم يعلمون أنَّ من يقترب إلى مكان القصف قد يُقصف بدوره، ورغم ذلك ذهبوا، كانوا يأملون في إنقاذ ما يمكنُ إنقاذه من أحياءٍ وربَّما استطاعوا نقل بعض الجرحى إلى المستشفيات. وعندما وصلوا! حدث ما كان متوقَّعًا أن يحدث؛ أعاد الإسرائيليُّون قصف البيت. كانت الطائرات تنتظر البشر القادمين لإسعاف الجرحى كي تقصفهم. أصيب أبي إصابةً بليغة، أُصيبت عمَّتي وأبناؤُها الخمسة، ومات زوج عمَّتي. نقلوا أبي إلى المستشفى ونزحنا أنا وأعمامي وعمَّتي المُصابة واثنان من أبنائها إلى مخيَّم النصيرات وسط القطاع، ادَّعى الاحتلال أنَّ المخيَّم آمنٌ ولكنَّه لم يكن كذلك على الإطلاق، فالقصف لحقنا هناك. لا يوجد مكانٌ آمنٌ في غزَّة، كلُّ الأماكن خطرة. نزحنا على أمل البقاء أحياء، حملنا جرحانا معنا وتركنا الشهداء وراءنا. أولاد عمَّتي المصابون

بجروحٍ خطيرةٍ بقوا في مستشفى الشفاء. لم نكن الوحيدين، فقد تمزَّقت معظم العائلات وتفرَّقت بين جريحٍ وشهيد.

مضت الأيَّام بهذه الطريقة. هل تريدين المزيد من التفاصيل؟ لا بدَّ أنَّكِ سمعتها مرارًا وتكرارًا. حكاية كلِّ واحدٍ منَّا تشبه حكاية الآخر. ننزح من مكانٍ إلى آخر، نفقد بعضنا البعض عند كلِّ نزوح، لم نستطع الوصول إلى أقربائنا، ولا نعرف عنهم الكثير من الأخبار. أصبحنا مشرَّدين بلا مأوى، وجرحى بلا أيِّ عناية. لم تستطع المستشفيات استيعاب جرحى القصف؛ الجرحى والجثث في كلِّ مكان، الموادُّ الغذائيَّة تقريبًا مفقودة، شعرنا بالجوع، ولم يكن هناك ماءٌ للشرب إلَّا القليل من الماءِ الملوَّث لنستمرَّ في العيش. انقطعت الإنترنت وشبكات الهاتف والكهرباء. شعرت وكأنَّني أعيش في صحراء. الشيء الوحيد المؤكَّد المستمرُّ الذي بقي دائمًا ولم يتوقَّف، كان القصف! بقيت صامتًا طوال الوقت، وجاهدت ألَّا أقوم بأيِّ ردِّ فعلٍ يزيد الأمور سوءًا، كنَّا نسير نحو المجهول.

في يوم السابع والعشرين من أكتوبر علمت عمَّتي رجاءُ بخروج أبنائها المُصابين من مستشفى الشفاءِ وذهابهم إلى بيت أختها فدوى، لذلك قرَّرت العودة إلى هناك لتكون بجانب أولادها وتعتني بهم. أصرَّت على ذلك، لم تستطع أن تبقى بعيدةً عنهم. كان ذلك قبل يومَيْنِ من الهدنة المنتظرة. الكبار يقولون إنَّنا بحاجةٍ للهدنة لانتشال الجثث على الأقلّ. ثم ماذا حصل؟ قصفوا بيت عمَّتي فدوى، ومات معظم من كان فيه، بمن فيهم عمَّتي رجاء؛ لم تهنأ برؤية أولادها، ذهبت لتبقى بجانبهم، فماتوا وماتت

معهم! عمَّتي فدوى أُصيبت بحروقٍ وكسورٍ بليغةٍ في جميع أنحاء جسدها. كنت أرى كيف تختفي عائلتي، كنت أراقب منتظرًا دوري.

العائلة تختفي واحدًا تلو الآخر، وأنا حتى الآن في حالة ذهول. سأُعيد ترتيب الأحداث من جديد، أُريد أن أستوعب ما حصل! لماذا خرجنا من بيتنا عندما أمرنا جيش الاحتلال بالخروج؟! كان الناس يرتبكون عندما يتَّصل بهم الاحتلال ويأمرهم بالخروج من بيوتهم، اعتقد البعض أنَّ هذا الاتِّصال ما هو إلَّا حربٌ نفسيَّة، وأنَّ الإسرائيليِّين «يطفِّشون» الناس بالطريقة هذه، لأنَّ القصف في النهاية سيطال الجميع دون تمييز، بتحذيرٍ أو بدونه، هذه مجرَّد دعاية. عمَّتي، قصفوا البناء المجاور لبيتها دون إنذارٍ ومات جميع من فيه. في النهاية قرَّر أهلي الخروج. وكما أخبرتك، استيقظت من النوم لأجد نفسي ونحن نركض في منتصف الليل باتِّجاهِ «دارِ سيدي»، كان القصف فوق رؤوسنا، والانفجارات تُحيط بنا، كنت أسمع من حولي يهيِّئون أنفسهم للموت، يركضون وهم يتمتمون آياتٍ قرآنيَّة، شعرت وكأنَّنا داخل فيلم، كنَّا مجرَّد أهدافٍ للموت تتحرَّك بانتظار القضاء عليها. احتار أهلي فيما يجب علينا فعله بعد ذلك، كنَّا نحاول العودة قرب بيتنا ولا نستطيع من القصف، وبعد يومَيْنِ كما قلت لك قصفوا بيت عمَّتي رجاء. كيف عرفنا؟ لم يكن هناك اتِّصالاتٌ ولا كهرباء؛ لكن فجأةً وجدنا عمَّتي أمامَنا تنزفُ ممزَّقةَ الثياب، أذكرها جيِّدًا، لقد جاءت على هذه الحالة لتُخبرنا بما حدث، خرجَت من تحت الأنقاض ومشت في الليلِ وحدها مسافةً طويلةً

وهي تنزف، كانت تريد منَّا الذهاب لإنقاذ أبنائها المصابين، أبنائها الذين سيدخلون المستشفى ثم يخرجون ويعودون لبيتِ عمَّتهم فتَلْحَقهم ليموتوا كلُّهم سويًّا.

توجَّهنا جنوبًا. في النزوح هناك أمرٌ بشع! نتحوَّل إلى مجرَّد أشياء تتحرَّك، لا نملك ثيابًا ولا طعامًا ولا أيَّ شيء. في مخيَّم النصيرات الذي نزحنا إليه، عانينا من العطش، لم يكن هناك ماء، شربنا ماء مالحًا وماء قذرًا. كنَّا مستعدِّين لشرب أيِّ شيءٍ لنواصل الحياة، لم يكن هناك طعام أيضًا. بدأ النحول والوهن يحوِّلني إلى شخصٍ آخر، نسيت أنَّني مجرَّدُ ولدٍ في الخامسة عشرة من عمري، ولست ذلك الرجل الذي أشعر به بداخلي الآن! شعرت أنَّني أكبُرُ وأستطيعُ فعل أشياءٍ لا يفعلها الأطفال الآخرون، أستطيع أن أعتمد على نفسي ويستطيع أهلي الاعتماد عليّ، لكن كلُّ هذه الأحاسيس، فجأةً كانت تختفي أمام الجوع، أنكمشُ وأعود إلى وهني. البرد كان شديدًا، ولا توجدُ تدفئة، وليست لدينا ثيابٌ والنازحونَ الجرحى والجوعى يتوزَّعون على كلِّ البيوت.

أمرنا الإسرائيليُّون أن نذهب إلى الجنوب، ثم لحقوا بنا. قصفونا مجدَّدًا في البيت الذي نزحنا إليه، استشهد 33 شخصًا من عائلتنا دفعةً واحدة، معظمهم أطفالٌ رضَّع، أعمارهم شهور، رأيت ذلك بعيني، كنت في قلب الضربة، ونجوت، لكنَّ الرضَّع لم ينجوا، أجسادهم صغيرةٌ وضعيفة! مات جدِّي أيضًا ـ الأستاذ عبد الرؤوف رضوان ـ لكنَّه لم يمت بسبب القصف، مات لأنَّ جرحه كان ملتهبًا ولم تكن هناك موادُّ طبِّيَّةٌ لعلاجه، كان الجرح

مجرَّد إصابةٍ متوسِّطة، لكنَّ البكتيريا قتلته، لم يكن هناك دواءٌ أو مكانٌ في المستشفياتِ للعناية به! القصف طال أخي محمَّد، أُصيب في رأسه وجسده بإصاباتٍ بليغة. حصل ذلك بينما كان يبحث عن الطعام في شوارع المخيَّم. أصبحنا حائرين، لا نعرف أين نذهب وهم يلاحقوننا من مكانٍ إلى آخر.

عندما سمعت خبر احتراق بيتنا، أصابني حزنٌ شديد. لا أعرف لماذا شعرت للمرَّةِ الأولى أنَّني أصبحت وحيدًا. لقد احترق كلُّ ما في البيت، عالمي كلُّه، ذكرياتي، أغراضي، أوراقي. أفكِّرُ بلوحاتي التي كنت أرسمها وأحتفظ بها. نعم كنت طفلًا متفائلًا وكنتُ أرسم. كنت طالبًا مجتهدًا أيضًا، أحبُّ الرياضيَّات تحديدًا، كانت مادَّة الرياضيَّات بالنسبة إليَّ هي متعتي، وشاركت في مسابقة رياضيَّاتٍ واختاروني لتمثيل فلسطين في مسابقاتٍ دولية. أنا حزين، حزينٌ جدًّا! ليس لأنِّي لاجئٌ في خيمة، ولكن من أجلِ حياتي التي احترقت مع كتبي ولوحاتي وأوراقي!

نزحنا سبع مرَّاتٍ فيما بعد. تركنا مخيَّم النصيرات كما فعلنا مع أماكن سابقة. الإسرائيليُّون يقولون إنَّهم سيجتاحون برِّيًّا ويقصفون، فنضطرُّ للنزوح إلى مكانٍ جديد. وفي كلِّ نزوح، نعتقد أنَّها النهاية، مرَّت الأشهر وكأنَّها سنواتٌ طويلة. كلُّ نزوحٍ كان حياةً بحدِّ ذاته. بعد النصيرات، اتَّجهنا إلى رفح. وفي رفح، لم نكن نعرف إلى أين سنذهب، ولم نكن الوحيدين في هذه الحيرة. استطعنا، مع نازحين آخرين، أن نجد غرفةً نتكدَّس فيها، فقط لنحظى بسقفٍ يحمينا. لم يكن هناك مكانٌ في الغرفة لأضع

قدمي، كان معظم النازحين معنا مرضى، بلا عنايةٍ ولا أدوية، جميعنا بلا طعام، ولا ماء، ولا غاز. كنَّا مثل كائناتٍ محبوسةٍ داخل قفص، ننتظرُ الموت، أيُّ موتٍ كان! ليس بالقصف فقط، بل الموت جوعًا وعطشًا وبردًا، أذكر أنَّ طعم العطش كان قاسيًا جدًّا، أسوأُ من طعم الجوع بكثير!

عندما أدركنا أنَّنا لا نستطيع البقاء هكذا، مكدَّسين فوق بعضنا البعض، قرَّرنا الخروج والبحث عن مكانٍ آخر. لم نستطع البقاء، ولم يكن معنا أموال، ومع الحرب ازدادت إيجارات البيوت بشكلٍ كبير، لكنَّنا استطعنا أن نجد غرفةً صغيرةً بحمَّامٍ نعيش فيها. أموالنا بدأت تنفد، كلُّ شيءٍ كان غاليًا، وكنتُ أستغرب كيف ترتفعُ الأسعار هكذا والكلُّ فقراء ولا يملكون النقود! الناس كانت مضطرَّةً للشراء ونحن مثلهم، لم يكن لدينا خيارٌ آخر. اضطررنا لشراء أشياءٍ رخيصةٍ بأسعارٍ غالية. ثم دخل الشتاء، واحتجنا بعض الملابس. كنَّا ما زلنا نرتدي الثياب نفسها التي خرجنا بها من البيت في تلك الليلة، كانت ثيابنا خفيفة، وأجسادنا ترتجفُ من البرد.

الحياة في رفح جحيمٌ لا يُطاق. كان النزوح يحمل معه تحدِّياتٍ جديدةً يوميًّا، كانت الحياة مختلفة، مليئةً بالصعوباتِ والقهر. كنَّا نفتقد للماء بشدَّة، وكانوا يأتون بخطوط ماءٍ من مصر، لكنَّها كانت تنقطع بشكلٍ متكرِّر. حتى عندما كانت تصل بعض الكمِّيَّات من الماء، كان من الصعب علينا الخروج للحصول عليها. في الليل، لم يكن الأمر أفضل حالًا، حيث كان صوت الطائرات المسيَّرةِ «الزنَّانات» عاليًا ومرعبًا، كنَّا نشعر أنَّنا

مسجونون في مكانٍ لا نخرج منه إلّا لمواجهة الموت. كلُّ خروج كان يمثِّل احتمالًا لموتنا. ومع ارتفاع أسعار الموادِّ الغذائيَّة بشكلٍ جنونيّ، لم نعد نجد السكَّر أو الطحين، وهما الموادُّ الأساسيَّة التي تُبقينا على قيدِ الحياة. مياه الصرف الصحِّيّ تجري في الشوارع، ولا يوجد أحدٌ ليصلح أيَّ شيء! الأوساخ والفضلات كانت تتدفَّق في مصارف الصرف الصحِّيّ، وانتشرت الأمراض بشكلٍ كبير، وأُصيب الكثيرون بنزلاتٍ معويَّة، بما فيهم نحن. الأمر الأكثر إيلامًا من كلِّ شيءٍ هو ما بدأ يحصل بين الناس. العنف بات واقعًا يوميًّا. الشخص المهذَّب واللطيف لا يحصل على شيء. أصبح الناس يحصلون على ما يحتاجونه فقط بالعنف والشجار، والزعران هم من ينتصرون، وهم من يحصلون على ما يريدون. إذا كنت محترمًا، فلن تحصل على شيء. الناس محبطة، جائعة، ومكسورة، والشجاراتُ باتت تحدث لمجرَّد شربة ماء. كنت أخجل من نفسي، أنتظر في طوابير طويلةٍ في انتظار المساعدات وفي النهاية غالبًا لا أحصل على أيِّ شيء، لأنِّي لا أستطيع أن أتشاجر مع أحد.

لا أريد لأيِّ إنسانٍ على هذه الأرض أن يعيش تجربتي في النزوح. أفكِّر بعائلتي التي فقدنا نصفها، بعمَّاتي وأقاربي، أفكِّر بأشياءٍ مخيفةٍ وأنا أنتظر طوال النهار للحصول على رشفة ماءٍ نغسل بها أيدينا، وأعود للتفكير في إشعال النار لنطبخ طعام المعلَّبات، هذا إن حصلنا عليه! نتابع بقلقٍ لنعرف متى يعلنون عن توزيع السكَّر والأرزّ، ننتظر وننتظر في طوابير تمتدُّ لعدَّة ساعات، يا للذلّ! المواصلات أصبحت غاليةً وغالبًا غير متوفِّرة، وكثيرٌ

منها صار يعتمد على الحمير والأحصنة. حالتنا النفسيَّة سيِّئة، أنا أعلم أنَّني لست بخيرٍ ولا أهلي ومن حولنا، لكن هل لا يجب أن نقول هذا؟ لأنَّ ذلك يعتبر عيبًا! لكنِّي لست بخير، أنا حزين. أُفكِّر في مدرستي، أُفكِّر في لوحةٍ كبيرةٍ رسمتها وتركتها معلَّقةً في غرفتي، أكيدٌ أنَّها احترقتْ مع البيت. أُفكِّرُ في أقلامي ودفاتري ونصوصي التي كتبتُها، ألواني وفرشاة الرسم. أتخيَّل، يا ترى كيف احترقت فرشاة الرسم! أعترف أنَّني الآن أريد فقط أن أعيش مثل باقي الأولاد، فقط أن أعيش حياةً طبيعيَّة. لا أعرف لماذا أُعيد الكلام نفسه! أشعر أنَّني شخصٌ مريضٌ الآن. أصبحت لديَّ قرحةٌ في المعدة مع نزيفٍ مستمرٍّ بسبب المياه الملوَّثة والطعام المعلَّب، بدأت العلاج منذ ثلاثة أشهرٍ لكنَّ النزيف ما زال مستمرًّا في جهازي الهضميِّ ولا توجد خدمةٌ طبِّيَّةٌ كافية، الوهن يتسلَّل إلى جسدي، ولا أستطيع النوم من الألم الشديد في معدتي. بدأت أشكو من أعراض التهاب الكبد الوبائيّ، ربَّما بسبب الماء الملوَّث الذي شربناه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

نور عاشور

20 سنة

جباليا

كنت أدرس الحقوق، لديَّ أختٌ واحدة وأربعة إخوة. نسكن في جباليا؛ تحديدًا في حيٍّ يُسمَّى «بير النَّعْجَة» في شمال المدينة. لم أحبَّ يومًا هذا الاسم، كنت أقول للناس إنَّني أسكن في «الصّفْطاوي». جباليا فيما مضى كانت مدينةً تغمرُها بساتين الليمون والبرتقال. خطيبي يعمل طبيبًا في مستشفى الشفاء، كنَّا نستعدُّ للزواج ونؤثِّث منزلنا، نُخطِّط لأدقِّ التفاصيل.

يوم السابع من أكتوبر؛ استيقظت فجأة، غزَّة بأكملها استيقظت على دويِّ الصواريخ. حاولنا فتح الإنترنت لنعرف التفاصيل، لم نصدِّق ما يحدث. بدا الأمر كما لو أنَّ الناس

أصيبت بالجنون! كانت حماس تُطلق الصواريخ ولم نكن نعلم أو نفهم ما يجري.

أوَّل مرَّةٍ رأيت فيها الحرب كان عمري خمس سنوات، كنت في الروضة. كانت لي صديقتان، فرحٌ وهديل، وُلدنا معًا في الأسبوع نفسه، وعشنا في الشارعِ نفسه. كانت بيوتنا جنب بعضها، وكنَّا نرتدي ملابس مُتشابهة. كانت الروضة تبعد عن بيوتنا خمس دقائق مشيًا. في طريقنا إلى الروضة، رأينا الطائرات لأوَّلِ مرَّة، كانت ضخمةً وتقصف بشكلٍ جنونيّ. الأصوات كانت رهيبة، كنَّا صغارًا جدًّا ولا نفهم، فقط نركض نحو بيوتنا. كانت أمَّهاتُنا ينتظرننا بخوف. حصل هذا في حرب 2008، كان أهل الحارة مجتمعين في بيت أحد الجيران يصنعون الخبز معًا. أتذكَّر أمَّ إحدى صديقاتي وهي تصرخ لأنَّ أولادها استُشهدوا، بينما كنَّا نحن الأطفال نصرخ ونبكي نريد أن نأكل. القصف ازداد بشكلٍ جنونيّ، وصرخاتُنا علت ونحن جوعى، من وقتها أعلم جيِّدًا ما يعنيه القصف. في مايو من العام 2013، قُصِفَ بيتُ جيرانِنا؛ أذكر عندما بنى ابن جيراننا بيته من جديد، ولم يمرَّ وقتٌ طويلٌ حتى دمَّره القصف مرَّةً ثانية. وقتها، كان الإسرائيليُّون يتَّصلون بنا ليخبرُونا بأنَّهم سيقصفون، فكنَّا نركض هاربين. الحروب السابقة كانت محدودة، نعيش في غزَّة حروبًا متكرِّرة، قصيرة المدى، متقطِّعة، ولكنَّ هذه المرَّة مختلفة، هذه ليست حربًا كالتي اعتدنا عليها. الحروب السابقة كانت صعبة، لكنَّها كانت تنتهي، وكنَّا نتمكَّن من النجاة. كان الأكل شحيحًا، لكن لم يكن الأمر كهذه المرَّة، كنَّا نَجوع، لكن ليس بهذا الشكل!

بعد ساعاتٍ من الصمت والانتظار والخوف، بدأ القصف. في البداية تمَّ تحديد هويَّات المقاومين، ثم بدأت الطائرات الإسرائيليَّة بقصفِ منازلِ أهاليهم، حتى إنَّهم دخلوا إلى سجلَّات المستشفيات وأخذوا أسماء الجرحى، وقصفوا بيوتهم أيضًا. كانَ انتقامهم وحشيًّا!

بقيت أنام قربَ النافذة، كانت السماء تشتعل بالألوان الحمراء والزرقاء من كثافةِ القصف، رأيت الصواريخ تتساقط. الناس من حولي كانوا خائفين، الجميع يتهافتون على شراء المعلَّبات وتخزينها في المنازل. في البداية، بدا الأمر عاديًّا بالنسبة إليّ؛ فقد اعتدنا على القصف والدمار، كنت أتحدَّثُ كثيرًا مع خطيبي، نضحكُ أحيانًا، وندعو اللهَ أن لا يقصفوا بيتنا قبل أن نسكنه. كنت عروسًا تستعدُّ لزفافها، وضعنا كلَّ أموالنا في تأثيث بيتنا وتجديده، من الشبابيك إلى كلِّ تفصيل، كلُّ شيءٍ كان جديدًا لنبدأ حياتنا، لم نتخيَّل أنَّ الحرب هذه المرَّةَ ستقضي على كلِّ شيء.

الصواريخ تهزُّ الأرض كالزلزال، براميل متفجِّرةٌ تسقط علينا من السماء. سقط أحدها على منزلنا، في البداية لم يُهْدَم البيتُ بالكامل، لكنَّ الشظايا بدأت تتساقط، وتُحطِّمُ النوافذَ. ومع اشتداد القصف، بدأ أهالي الحيِّ يخرجون أفواجًا، مشيًا على الأقدام تحت القصف، يهربون راكضين. بقينا في بيتنا خمسة أيَّامٍ فقط بعد السابع من أكتوبر. ربَّما ولأنَّني نشأت وسط القصف، اعتقدت أنَّ كلَّ شيءٍ سيمرُّ كما في السابق. ثم نزحنا إلى منزلِ عمِّي في بيت لاهيا لأنَّنا اعتقدنا أنَّ منطقتَهم ستكونُ أكثر أمانًا،

كان لا يزال هناك الكثير من المدنيِّين. القصف لم يتوقَّف، مشهد الصاروخ لا يفارقني. في النهار أخذت أُصوِّرُ الأطفال، أُصوِّرُ أولادَ إخوتي، وأبقى مستيقظةً في الليل لأُصوِّر القصف ولأتابع أخبار الشهداء في حارتنا. الموت لا يتوقَّف، ما الذي يجب عليَّ فعله! الجميع يموتون من حولي. كيف أتعامل مع هذا الرعب!؟

زوج صديقتي استُشهد، وعندما نعته ووضعت صورتَهُ على الإنترنت طلبت منها أن تحذفها، خشية أن يقصفوا منزلها. كنت أعلم أنَّهم يُراقبوننا واحدًا واحدًا. الأطفال ينامون وأيديهم على آذانهم، يتكوَّرون على أنفسهم وكأنَّهم يختبئون داخل أجسادهم. صوت الطائرات، الدخان، الغبار، الصراخ، لم يتوقَّف أيُّ شيءٍ من ذلك أبدًا. لم يُمهلونا لنلتقط أنفاسَنا. كانوا يتبعون النازحين ويقصفونهُم. تنتشر الإشاعات، فنخرج إلى العراء خائفين، كبارًا وصغارًا، نحمل حقائبنا وننتظر في الشوارع. بقيت في الملابس نفسها لستَّةِ أشهر، والكهرباء مقطوعة، لا يوجد إنترنت. كنَّا نشحن هواتفنا عند جارٍ يملكُ مولِّدًا صغيرًا.

لم نعد نعرف إلى أين ننزح. البيوت تحترق من حولنا، وأصبح من المؤكَّد أنَّ الدور سيأتي علينا. رؤية الناس تموت بهذه الطريقة جعلتني أعيش رعبًا لم أختبره من قبل. أصوات الانفجارات لا تزال ترتجُّ في رأسي حتى الآن. كان بيت عمِّي في بيت لاهيا بجانب مستشفى (كمال عدوان)، وكنت أرى المستشفى يوميًّا، وأرى مئات الجثث بأمِّ عيني. لم يكن هذا مبالغة، فقد كانت الجثث ممدَّدةً هناك بالمئات. في البداية كانوا يُكرمون الجثث بدفنها ويخرجون بها في سيَّارات، ثم بدأوا

ينقلونها على الحمير، وكان يرافق الشهيد خمسة أشخاص، ثم لم يعد أحدٌ يرافق أيَّ جنازة. ثم توقَّفوا عن إخراجها وتكدَّست الجثث في ساحة المستشفى. بنات جيراننا من عائلة أبو سعدة استشهد ثمانيةٌ منهنَّ في منطقة الفاخورة في جباليا. كنَّا قد تركناهنَّ لأنَّنا نزحنا إلى منطقةٍ مختلفة. إسراءُ ودواليا ودينا وسلام، مات معهُنَّ أخوهنَّ الوحيد فتح أبو سعدة ووالدتهنَّ ماتت وبقيت إيمان وأختها فقط على قيدِ الحياة، كانت مجزرة. والدهنَّ قُتِل في حرب 2008 وهو ذاهب لجلب الطعام لأطفاله، تاركًا خلفه سبع بناتٍ وزوجةً حاملًا وولدًا. عاشت البنات بدون أب، وولدت الأمُّ بنتًا أسمتْها حلا، حلا التي لم تعرف أباها أبدًا. كانت البنات مجتهداتٍ وجميلات ومتعلِّمات، وربَّتهنَّ الأمُّ بدمها، كانت أرملةً وأفنت حياتَها لتربيتهنّ. اشترت لهنَّ منزلًا، هل تعرفين أين اختارت المنزل! في المكان الذي استشهد فيه والدهنّ. هناك كبرن وتخرَّجن من الجامعة وتزوَّجن واحدةً تلو الأخرى. لم تبق واحدةٌ منهنَّ على قيد الحياة، اختفت العائلة بأكملها. لم يتمكَّنوا من انتشال جثثهم، حصلت تلك المجزرة يوم الرابع عشر من أكتوبر. كانت صدمةً كبيرةً لي. كنت في بيت عمِّي حينها، ومع رؤية الجثث التي لا تتوقَّف بدأتُ أُصابُ بالانهيار، لكنِّي قلت لنفسي إنَّه يجب عليَّ أن أوثِّق كلَّ شيء.

عُدي ابن أخي عمره أربع سنوات، حاولنا أن نمنح الأطفال بعض السعادة لنخفِّف عنهم، فقرَّرنا أن نُقيم حفلة عيد ميلاده الرابع تحت القصف. وعندما بدأنا إطفاء شموعه الأربع، وصلنا خبر قصف بيتنا. كان إخوتي قد خرجوا بالكاد من المنزل،

وكانت هناك مسافةٌ زمنيَّةٌ قصيرةٌ بين خروجهم وبين سقوط الصاروخ. نجوا بأعجوبة، لكنَّ جيراننا أصيبوا واستشهدوا. لم يأكل أحدٌ من الكعكة! ولم يحتفل عُدي بعيد ميلاده. صديقة أختي، شمس اللداوي، استشهدت في جباليا مع عائلتها، أبوها وأمُّها وإخوتها وأخواتها وخالها، جميعهم استشهدوا، ومن بقي منهم أصبح مبتورَ الأطراف.

بدأ الخبز ينفد، حتى الطحين لم يعد متوفِّرًا، وبدأنا نعاني بسبب الجوع. في السادسة صباحًا، قصفوا منزلًا بجوار بيت عمِّي. تجمَّع الناس لإنقاذ الشهداء، شاهدت ذلك بأمِّ عيني. وعندما وصل المسعفون لإنقاذ ضحايا القصف، رآهم الإسرائيليُّون فقصفوا المسعفين، وبدأت الجثث تتطاير في كلِّ مكانٍ من حولنا! قصفوا سيَّارة الإسعاف، كنَّا نراقب! الموت كان في كلِّ مكان كنَّا نعتقد أنَّنا سنموت، كنت أنتظر الموت، لم يكن مجرَّد شعورٍ بل كان حقيقة، كنت مؤمنةً تمامًا بأنَّني سأموت. سلَّمت أمري لله، وقلت لن أكون أفضل من غيري، ولم يكن من الممكن أن نذهب إلى مكانٍ آخر، لم نعد نستطيع التحرُّك. قصفوا جامعة الأزهر. في ذلك اليوم، أرسل لي خطيبي من مستشفى الشفاء صورةً لفتاةٍ محترقة، كانت متفحِّمة. كان خطيبي يرسل لي صور الفظائع لأوثِّقها بينما كنت أصوِّر الفظائع من حولي. لا يمكن التعبير عمَّا حصل في تلك المرحلة، كان من المستحيل توثيق كامل جرائم القتل التي قام بها الجيش الإسرائيليّ، الأحزمةُ الناريَّةُ من حولنا تتفجَّر، وبعدها نفقد السمع! كلُّ يوم كانت هناك أحزمةٌ ناريَّة، ووصلنا إلى يوم السابع والعشرين من أكتوبر، وكان

قد مرَّ عشرون يومًا. كنت قرب النافذة، وسط الأحزمة الناريَّة مستمرَّةً في التصوير، زوجة عمِّي أصيبت بتبوُّلٍ لاإراديٍّ من الخوف وأصبحت عاجزةً عن الحركة، الناس يركضون ويصرخون، والأشلاء تتناثر، كلُّ ذلك كنت أراه من النافذة، هكذا كانت تمرُّ الأيَّام. طلب منِّي أبي الخروج لشراء بعض الأشياء. كانت الأبنية مدمَّرة، السوق مدمَّر، كلُّ شيءٍ على الأرض. ذهلت من منظرِ السوق، لقد قصفوه. كان الناس يهتفون للشهداء، وآخرون يحملون نعوشهم باكين. الموت لا يتوقَّف؛ أصدقائي من دار عفانة استشهدوا، سجى عفانة كانت جارتي في بيتنا، وسمعنا بموتهم ونحن في بيت عمِّي وأخوها محمَّد عفانةَ استشهد، كان محترقًا بالكامل، زوجته بقيت، الزوجة بقيت وحيدةً على قيدِ الحياة. زوج صديقتي غدير مات، غدير من دار أبو صفيَّة، كانت تعيشُ في منطقةِ الشيخِ رضوان، وكانت قد ولدت قبل يوم واحدٍ من استشهادِ زوجها. صديقتي لما أبو عيدة، التي كانت تدّرس الهندسة، ماتت مع عائلتِها كلِّها، وكذلك وصال النحاوي، كلُّهم ماتوا، ورأيتهم موتى، رأيتهم بأمِّ عيني. بعد ذلك، استشهدَ أولاد عمِّي في منطقة النصيرات، ورأيناهم على قناة الجزيرة. لم يعثروا على جثَّةِ أحدِ أبنائهم الذي تحوَّل إلى أشلاء، كلُّ من في البيت استشهد، بما فيهم أمُّه. استشهد أولاد خالتي أيضًا! لا أصدِّق أنَّنا ما زلنا نعيش بينما مات كلُّ من حولنا. لانا، لما، عمر، ومريم، انظري إلى هذه الصور! انظري إليهم! ماتوا أيضًا! انظري إلى هذه الصورة للطائرة في السماء، تستطيعين رؤيتها بوضوحٍ رغم الليل! أصبحت أخشى الأخبار،

لأنّي كنت أعلمُ أنّها ستأتيني بأخبار المزيد من الشهداء، لقد كان يقتلني شعورٌ غريبٌ بالذنب، كلُّ من حولي يموت، بينما أستمرُّ أنا على قيدِ الحياة، كنت أستمرُّ بالتوثيق كي أبرِّرَ لنفسي حياتي.

في تلك الأيّام أيضًا، نفدت الخضروات واختفتْ كلُّ أنواع الطعام، كان ثمن تسع حبّات بندورة ثلاثين دولارًا، كان حلمي في تلك المرحلة أن أجد سندويشة زعترٍ لأكلها، تخيَّلي! تحوَّلت حياتنا إلى حملٍ ثقيل، أمّي تقضي كلَّ يومها في العجنِ والغسيل، لم تهدأ أبدًا، اهترأت يداها وأصابعها من كثرةِ الغسيلِ والعجين. عندما يتوفَّر الطحين، كنّا نعجن ونأكل الخبز مع الملح فقط، اختفى حتى الزيت والزعتر. كان هذا في بداية شهر نوڤمبرَ. ثم بدأت معدتي تؤلمني كثيرًا، كانت هناك بئر ماءٍ قذر نُحضرُ الماءَ منها. لم تكن هناك كهرباءٌ ولا ماءٌ نظيفٌ ولا طعام. كنّا نشرب تلك المياه، وكنت أُعاني من آلامٍ مبرحةٍ في معدتي. بدأت أذهب إلى مستشفى كمال عدوان، حيث كانت النفايات تتراكم فوق بعضها البعض، وداخل المستشفى كان النازحون قد انتشروا في كلِّ مكان، وامتلأت الحشرات هناك. كنت أرى الخراف تأكل من القمامة، والأطفالَ يحاولونَ الحصولَ على ماءٍ حتى وإن كان ملوَّثًا. رأيت طفلةً تحملُ بيدون ماءٍ فارغ، أخذت صورًا لها، كان الجميع يحاولون الحصول على الماءِ بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ من أجلِ الشربِ ثم يمرضونَ بسببها!

في الرابع عشر من نوڤمبر، بدأنا نفكِّر أنّنا يجب أن نخرج، الوضع أصبح لا يُطاق. كنّا نعتقد أنّنا سنموت من الجوعِ والعطش. انظري إلى هذه الصورة، انظري كيف يتقاتل الناس

ويتجمَّعون من أجل قطراتِ الماء! كان ذلك اليوم هو آخر يوم لنا في بيت عمِّي. قال الإسرائيليُّون إنَّهم سيقصفون مستشفى كمال عدوان وسيدخلون برِّيًّا ويجتاحون المستشفى، ويقصفون من حوله. كان البقاء هناك انتحارًا. لقد قصفوا مدارس النازحين بالغازِ والفوسفور، لقد صوَّرتُهم، انظري! وبعد أن قصفوا البيت المجاور لنا، عرفنا أنَّه يجب أن نخرج. الروائح في بيت لاهيا أصبحت مميتةً وخانقةً والناس يهربون بسببها، الحوامل كانوا يفقدون الوعي بسببها أيضًا. خرجنا مرغمين إلى معسكر جباليا، جماعاتٍ جماعات، وكان ذلك في العشرين من نوفمبر. كنَّا ذاهبين إلى بيت عمَّتي حين رأينا الطائرات تقصف عيادات الأنروا في منطقة جباليا. وجدنا منطقة بيت عمَّتي التي كانت منطقةً حيويَّةً وقد تحوَّلت إلى مكانٍ مدمَّرٍ بالكامل! بالكاد، ما إن خرجنا من بيت لاهيا حتى قصفوا بيت عمِّي، نجونا بأعجوبةٍ من الموتِ مرَّةً أخرى. بمعجزةٍ كنَّا نهرب من بيتٍ إلى بيت، كنَّا نسبق الموت بساعاتٍ فقط منذ بداية هذه الحرب!

كنت أبحث عمَّا يمنحني القوَّة لأستمرّ، لذلك أخذت أكتب قصص الناس من حولي، أراقبهم وأوثِّق حياتهم بالكلمات والصور. جمعت الفتيات حولي وأشركتهنَّ في الحديث، الجميع حولهنَّ فقدوا أحباءهم؛ أمَّهاتٌ بترت أطرافُهنّ. سردت قصصهنَّ بحذر، فأغلب من نجوا كانوا يعانون من فقدان أطرافٍ أو بصر. عائلاتٌ بأكملها أُبيدت، وفي بعض الأحيان بقي من العائلة ابنٌ أو ابنةٌ وحيدان على قيد الحياة. كنَّا حينها في بيتِ عمَّتي في الشمال، بينما القصف يشتدّ. لجأنا إلى مستشفى اليمن السعيد،

الذي كان بالأصل مجرَّد مستوصف، لكنَّه تحوَّل إلى مستشفى مؤقَّتٍ بسبب الحرب. شعرنا أنَّ البقاء في المستشفى قد يوفِّر لنا بعض الأمان، لكن سرعان ما أدركنا أن لا مكان آمن، إذ كانت المستشفيات نفسها هدفًا للقصف. كانت الحياة داخل المستشفى مختلطةً بين النازحين والمرضى، وكلُّ مكانٍ يتحول إلى مأوى للمصابين. قرَّرنا المغادرة، إذ أصبح القصف فوق الاحتمال، والمنطقةُ بأكملها كانت تحت النيران. شعرت بالخوف المستمرّ؛ كلُّ بيتٍ كنت أغادره كان يُقصفُ مباشرةً بعد مغادرتي. لم نتمكَّن من النوم، عشنا في حالةٍ دائمةٍ من اليقظة، خاصَّةً وأنَّ عمَّتي مريضةٌ بالسكَّري، ومعنا مرضى آخرون في حالةٍ صعبة. بقينا في معسكر جباليا، حيث لم تستطع عمَّتي التحرُّك بسبب حالتها الصحِّيَّة، وكان الأمر مؤلمًا أن تراها تصرخ عاجزةً عن الحركة، ولا نستطيع فعل أيِّ شيء.

بعد خروجنا من جباليا ووصولنا إلى منطقةٍ تسمَّى «الدبَّابات»، اضطررنا للمرور عبر شارع صلاح الدين، وهو أحد الشوارع الرئيسيَّة في غزَّة، إلى جانب شارع البحر. كان شارع صلاح الدين يعرف بأنَّه الطريق الذي يصل بين مختلف أنحاء غزَّة. أمامنا كان حاجزٌ إسرائيليٌّ يُسمَّى «خطَّ الموت»، بالقربِ من مكان دراستي، جامعة الأزهر. تحوَّلت المنطقة إلى ساحة معركة، حيثُ تمركزت القوَّات الإسرائيليَّة، ورفعوا علمًا إسرائيليًّا كبيرًا، كما أقاموا الحواجز وصنعوا تلالًا من الرمال. الجنود كانوا يرتدون زيًّا بلون الرمل، ممَّا جعل من الصعب تمييزهم. المنطقة كانت مليئةً بالأسلحة والدبَّابات، وكانت هناك «ساحة

اعتقال» يجمعون فيها الناس. حين مررْنا في قوافل من بين تلك القوّات، شعرت بإهانةٍ عظيمة، كنَّا حرفيًّا نُمرَّغُ في الذلّ، كانوا يصرخون علينا ويأمروننا برفع أيدينا وأرجلنا، وكأنَّنا عبيد. سمعت الشتائم والإهانات من الجنود: «امشوا يا بهايم! امشوا يا حمير، اركعوا، ارفعوا أيديكم!». لم أكن موافقةً على النزوح نحو الجنوب، وشعرت بالقهر والرغبة في الموت بدلًا من التعرُّض لهذا الذلّ. لكنَّ زوجةَ عمِّي كانت مريضة، والناس من حولي يبكون ويصرخون. على الرُّغم من أنَّني كنت ضدَّ النزوح، إلَّا أنَّ العائلة اتَّخذت قرارًا مشتركًا، لأنَّ الوضع كان لا يُحتمل. أبي أيضًا كان رافضًا النزوح، وكان يقول: «لو الدبَّابة على باب الدار، أموت في داري أشرف لي». حاولت إقناعه بعدم الخروج، لكنَّه وجد نفسه محتارًا وعاجزًا لأوَّلِ مرَّة، إذ كان عليه اتِّخاذُ قرارٍ مصيريٍّ يخصُّ حياةَ عائلةٍ كاملةٍ مكوَّنةٍ من أربعةَ عشرَ شخصًا. في النهاية، كنَّا نقفُ جميعًا متسائلين: «إلى أين سنذهب؟»، خاصَّةً وأنَّ النازحين قد ملؤوا كلَّ مكان.

قرَّرنا أن نأخذَ زوجة أخي إلى بيت أهلها، وزوجة عمِّي مع أولادها إلى بيت أخوالهم، وبقينا خمسة: أنا ووالدي وإخوتي. تركنا منازلنا الواسعة، والآن نسير نحو المجهول! كرهت مشاعري. خرجنا دون أن نأخذ معنا أيَّ شيء! تركت جهاز عرسي وأغراضي، تركنا كلَّ شيءٍ وخرجنا فقط بالملابس التي نرتديها. كان الجنود الإسرائيليُّون يمنعون الأطفال من البكاء، ويهدِّدون النساء قائلين: «أسكتوا أطفالكم وإلَّا أطلقنا النار عليهم!». رأينا كلَّ هذا الذلّ ونحن نمرُّ أمامهم، كيف يمكنني أن

أنسى؟ كنَّا بالفعل جائعين، وكنت حزينةً لدرجة أنَّني لم أعد أعرف كيف أبكي. كلُّ ما يحدث جنون! لا أستطيع تحمُّل فكرةَ الفقدان، وأقول دائمًا: لا أريد أن يموت الناس، أريدهم أن يبقوا. أنا أرفض فكرة التضحية بحياة الناس من أجل أيِّ شيء. لا أريدهم أن يموتوا! كان من حولي يحاولون الحفاظ على بعض الثبات. بقينا ثلاث ساعاتٍ على الحاجز، وكان معي أطفال أخي. خفت على ابن أخي لأنَّه لم يُظهر أيَّ ردِّ فعل، حاولت أن أشرح له ما يحدث، وقلت له إنَّنا سنواجهُ الجنود الإسرائيليِّين. قام الجنود بفصلنا عن بعضنا، كانوا يفتِّشوننا ويُفرِّقون العائلات. ضاعت بعض العائلات عن بعضها البعض على الحاجز، ولم يكن مسموحًا لأحدٍ بالاعتراض. فقدنا بعض الأطفال، وكنَّا خائفين من أن نفترق عن بعضنا كما حدث في قصص النكبة القديمة، حين ضاع الناس من بعضهم البعض. الإسرائيليُّون لم يهتمُّوا! فتحت هاتفي وأنا على الحاجزِ ونظرتُ إلى صورةِ خطيبي، كنت خائفةً من الجنون الذي يحدث، وخائفةً أن أسمع خبر وفاته. حينها بكيت، واستمرَّ الإسرائيليُّون في تعذيبنا ونحن نعبر. بقيت عائلتي على الجهة الأخرى من الحاجز، وكنَّا خائفين أن نضيع عن بعضنا. بعد ساعتَيْن تحت الشمس الحارقة، وصلت أمِّي وأخيرًا اجتمعنا من جديد. كان شعورًا حقيقيًّا بالسعادة أن نلتقي مرَّةً أخرى. كان علينا الاستمرار نحو الجنوب، لكن لم تكن هناك سيَّاراتٌ أو حافلات، وكان الناس ينتقلون بعرباتِ الحمير. عدنا وكأنَّنا نعيش في قرونٍ ماضية. كنَّا نتَّجه جنوبًا نحو رفح في قافلة، والناس على عربات الحمير، أمَّا أنا فلم أركب، بل وقفت

أنظر إلى ما يحدث، لم أستطع تصديق ذلك. أخيرًا، جاء باصٌ قديمٌ وصغير، وطلب صاحبه مبلغًا كبيرًا لنقلنا، وكان من أهلِ غزَّة. اضطررنا لدفع خمسمائة دولار!

في رفح كان علينا أن نقسِّمَ العائلة على عدَّةِ بيوت. كان الوضع مضحكًا ومؤلمًا في آنٍ واحد. عائلاتٌ فوقَ عائلاتٍ في بيوتٍ ضيِّقة. رأيت جدَّتي وقد تقلَّص حجمها، وزوجة أخي وقد تغيَّرَ لونها. وجوههم نحيلةٌ وذابلة، وكأنَّنا تحوَّلنا إلى مشرَّدين في فترةٍ قصيرة. وجوهنا باتت شاحبةً وأجسامنا هزيلةً وغريبة. كان إخوتي قد سمعوا أنَّ المنزل الذي مررنا به قد قُصف، ولذلك ظنُّوا أنَّنا قد متنا. نعم، كنَّا قد مررنا بذلك البيت، لكنَّنا خرجنا منه قبل أن يُقصف. كما قلت لك، هذه لم تكن مجرَّد قصَّة، بل كانت حقيقة. تبدو كحكايةٍ من كتاب، لكنَّها ما حدث معنا. نجونا بأعجوبة، وفي لحظةٍ ما، لحظةٍ غريبة، شعرنا جميعًا بالسعادة. أنا ووالدي ووالدتي وإخوتي والعائلة بأكملها، شعرنا برضى عميق. لقد نجونا! أذكر لحظاتٍ مضحكةً وسط رحلة النزوح عندما وصلنا إلى بيت عمَّتي. كنت جائعةً للغاية، وشممت رائحة طعامٍ زكيَّة، شعرت بأنَّني على وشك الإغماء من الجوع. كانت روائحِ الخبز والزيت والزعتر والبندورة والخيار تتسلَّل إلى أنفي، وكأنَّني أشمُّها لأوَّل مرَّةٍ في حياتي! تحوَّلنا فجأةً إلى كائناتٍ غريبة، هل كنَّا حقًّا نأكل هذه الأطعمة يومًا ما؟ بقيتُ لفترةٍ طويلةٍ أشمُّ الخيارَ والبندورةَ وكأنَّني أتعرَّفُ على نكهةٍ لم أتذوَّقها من قبل. فقدتُ ذاكرتي عن الروائحِ والمذاقات، ونسيت كيف يكون طعم الطعام. كنت أتذوَّق الخبز وكأنَّه أوَّلُ مرَّةٍ في

حياتي، وأستمرُّ في شمِّ أصابعي بعد كلِّ لقمة! كان شعور الفرح الذي انتابني لا يوصف!

أذكر موقفًا آخر حين اقترب منِّي ابنُ أخي عُدي ووجهُه شاحب. قال لي بجدِّيَّة: «عمتو، الله أقوى من سبايدرمان؟»، فأجبته: «نعم، الله أقوى من كلِّ شيء!» ثم سألني: «لماذا يسمح لهم بقتلنا إذا كان أقوى منهم؟». ضحكتُ ولم أعرف كيف أردُّ عليه في تلك اللحظة. عندما وصلنا إلى بيت عمَّتي في الجنوب، كان القصف مستمرًّا ولكنَّه أخفُّ قليلًا. وجدنا هناك مخزنًا صغيرًا يملكه بيت عمَّتي، فقمنا بتنظيفه وترتيبه ليصبح مكانًا مؤقَّتًا لنا. كانت لا تزال هناك بعض الخضار في الأسواق، لكنَّها كانت غاليةً جدًّا. في تلك الفترة، كنَّا في شهر نوڤمبر، ولم يكن الزحام شديدًا بعد. لكن سرعان ما تبدَّل الوضع وازدادت الأمور سوءًا بشكلٍ كارثيّ، ورغم كلِّ شيءٍ استطعنا البقاء.

بدأت أكتبُ عمَّا يحدث حولي. لم أكن أعتقد يومًا أنَّني سأكتب، فأنا طالبةُ قانون ولم تكن لي أيُّ علاقةٍ بالكتابة. في البداية كنت أراقب الناس، كلُّ واحدٍ منهم كان يحمل قصَّةً رهيبة. كتبت قصَّةً واحدة ونشرتها على حسابي في تويتر، وتفاعل الناس معها بشكلٍ كبير. بعدها أدركت أنَّني أستطيعُ أن أنقل معاناةَ الناس. وهكذا بدأت ألاحظ قصصًا لم يتحدَّث عنها أحدٌ من قبل، لأسبابٍ مختلفة. كتبتُ عن فقدانِ الفوط الصحِّيَّة النسائيَّة، أمرٌ ربَّما لا يفكِّر فيه أحدٌ وسط الحرب، لكنَّه كان معاناةً حقيقيَّة. كتبتُ أيضًا عن نقصِ حفاضات الأطفال، وعن تفاصيل أخرى لا يتمُّ التطرُّق إليها عادةً في مثل هذه الأوقات.

اكتشفتُ فجأةً أنَّ هذه التفاصيل مهمَّةٌ جدًّا وتؤثِّر في حياةِ الناس. كنَّا ننامُ على البلاط، نشرب الماء الملوَّث، نأكلُ طعامًا غير نظيف، ونعيش وسط القصف. تحدَّثتُ عن الفتيات وكيف أنَّ الحمَّامات في أماكن النزوح لم تكن تصلح للاستخدام، حمَّامٌ متر بمترٍ يخدم آلاف الناس! كانت الفتيات يأخذن حبوبًا لتأخير الدورة الشهريَّة لتجنُّب الإحراج والمعاناة، نعم، هذا ما حدث. كتبتُ عن ذلك لألفتَ الأنظار إلى هذه الاحتياجات الضروريَّة التي غالبًا ما يجري تجاهلها. لم تكن لي علاقةٌ بالسياسة، بل كنت أروي قصص الناس من حولي، كلُّ شخصٍ حولي كان يحمل قصَّةً تستحقُّ أن تُروى، قصَّتي كانت الأكثرَ عاديَّةً بينهم. وحدها القصص التي كتبتها عنهم جعلتني أشعر بأنَّني أبقيهم أحياءً بطريقةٍ ما. نعم، على العالمِ ألَّا ينساهم. أحاول أن أكتب قصص الناس، وأريد أن يسمع الجميع حكايتي، فأنا واحدةٌ منهم، والفرق الوحيد هو أنَّني ما زلت على قيد الحياة.

أحمد أبو رضوان

30 سنة

معسكر جباليا، منطقة الفالوجة، شمال غزَّة

كنتُ أعمل في مطعم، ثم في سوبر ماركت. لقد غيَّرت الكثير من الأعمال. أعمل لأتمكَّن من الأكل. لم أدرس، ولم أكمل تعليمي! الشؤون الاجتماعيَّة في غزَّة قدَّمت لي مشروع «دكَّانة» في معسكر جباليا، ثم وسَّعتُ مشروعي.

لا أعرف كيف أحكي ما حدث، سأحاول!

أصبت في يوم الثامن من أكتوبر، ثاني أيَّام الحرب، في الساعة العاشرة صباحًا. كنَّا قد أنهينا الفطور مع عائلتي! خرجت من البيت، عندها، رأيت القصف! ارتجفت الأرض واهتزَّت مثل

زلزالٍ قويّ، وكأنَّها ستنشقّ. تجمَّدت في البداية وقلت: «هذا يوم القيامة!».

أطلقوا علينا صواريخ كثيرةً وهائلة، ثم وجدتُ نفسي أركض مع الناس! الجميع يركض من حولي، لا نرى أمامنا! أركض وأصرخ مناديًا على إخوتي، أبحث عنهم. نحن ثمانية صبيان وأربع بنات. أبي كان موظَّفًا عاديًّا في شركة جوَّال. نحن عائلةٌ مكوَّنة من 12 شخصًا، وأمِّي ربَّة منزلٍ لا تخرج من البيت، وهي مريضةٌ جدًّا؛ تعاني من تليُّفٍ في الرئتَيْن وتعيش على الأوكسجين منذ ما قبل الحرب. إخوتي وزوجاتهم وأولادهم، لم يبقَ منهم أحد! كلُّهم استُشهدوا! ماذا سأقول عنهم؟ استُشهدوا جميعًا مع أولادهم! راحوا كلُّهم في القصف! كلُّ ذلك حدث فجأة!

لا أستطيع الكلام...

لم أسمع صوت القصف! عندما خرجت من البيت سقطت الصواريخ، لم أفهم أنَّها سقطت في بيتنا، لأنَّني كنت قد أصبحت في الشارع. لم أمت، نجوتُ بأعجوبة! كنت قبلها بدقائق أجلس معهم، ثم خرجتُ إلى الشارع! اتَّضح لاحقًا أنَّ هناك صواريخَ بجوار بيتنا وصواريخ أخرى أصابت بيتنا، وأنا لم أفهم! كيف يمكن استيعاب ذلك؟ مات 18 فردًا من عائلتي دفعةً واحدة. أبي دَفن إخوتَه وأولاده وزوجاتهم وأحفاده! وعندما خرج من المقبرة بعد دفن أحفاده وأولاده وزوجات إخوته، أُصيب بجلطةٍ دماغيَّة وهو الآن مقعدٌ ومشلولٌ في المستشفى الأوروبيِّ برفح.

أنا نجوت، لكنَّني فقدتُ ساقي. بترت ساقي ثلاث مرَّات.

كانت الديدان تخرج منها. ما زلتُ أذكر كيف اهتزَّت الأرض. تخيَّلتُ أنَّ الضربة عند جيراننا، ولكنَّها كانت في بيتنا بينما نجلس في الطابق الأرضيِّ مع إخوتي وأولادهم وزوجاتهم، كما نفعل كلَّ يوم، فجأةً اختفوا.

دياب، وسيم، محمود، محمَّد، فادي، وسام، رهام، ونبيلة، كلُّهم من عائلة أبو رضوان، كلُّهم ماتوا! كان ذلك يوم جمعة.

عند القصف، خرجتُ وحدي من تحت الركام، ورأيتُ ساقي مقطوعة، كانت من تحت الركبة. أخذوني إلى المستشفى الإندونيسيّ. لم أكن وحيدًا، ورغم قطع ساقي، اعتبروا أنَّ حالتي ليست حرجة. كان الناس ممزَّقين، فأتوا إليَّ مرَّةً واحدة، أسعفوني وعقَّموا الجرح، ثم تركوني وانشغلوا بالمُمزَّقين!

دخل الإسرائيليُّون في منتصف شهر نوفمبر إلى المستشفى الإندونيسيّ. كنت في الطابق العلويّ، وحدثت مجزرة. قصفونا أوَّلًا، ثم دخلوا لاحقًا. كنَّا نعيش مع النازحين، وأدخلوني إلى العناية المشدَّدة. خفنا من الإسرائيليِّين، وهناك أُناسٌ هربوا من المستشفى. امتلأت العناية المشدَّدة بنا، كلُّنا مقطَّعو الأطراف. كنت أفضل حالًا من غيري، رجلٌ واحدة فقط. دخل الجنود الإسرائيليُّون، وأخذوا أطبَّاء. صرخوا وضربوا واعتقلوا جرحى وفي الساعة الواحدة ليلًا انسحبوا.

في الصباح خرجنا من المستشفى، ورأينا الأربعة عشر شخصًا الذين اعتقلوهم، جثثهم مرميَّةٌ أمام باب المستشفى. كان

مشهدًا مرعبًا. قرَّرت الخروج من المستشفى؛ فقد أيقنتُ أنَّهم سيعودون ليقتلونا نحن أيضًا.

القصف لا يتوقَّف، ونحن لم نعد نفكِّر فيه. نحن نعيش طوال الوقت تحت الموت. من يوم 8 أكتوبر وحتى منتصف شهر نوفمبر وأنا في المستشفى، توقَّفت عن الإحساس بالألم! عندما أخبروني أنَّ الدود يخرج من جسدي، نظرت إليه فقط دون اكتراث.

نقلني الهلال الأحمر إلى المستشفى الأوروبيِّ في خان يونس. أثناء رحلتنا، أوقفنا حاجزٌ إسرائيليٌّ وأطلقوا الكلاب علينا، رغم أنَّنا جميعًا كنَّا في حالةٍ حرجةٍ وخطرة. أبقونا على الحاجز لساعات، وعلى جانبي الطريق، كنت أرى جثث النساء والأطفال. وعلى الرَّغم من أنَّنا نحمل تنسيقًا من الهلال الأحمر، وخرجنا بسيَّاراتهم، لكنَّهم رغم ذلك أوقفونا، فتَّشونا، وعذَّبونا!

عندما وصلنا إلى المستشفى الأوروبيّ، أخبروني أنَّهم سيبترون ساقي للمرَّة الثانية، وأنَّني قد أموت. في كلِّ مرَّةٍ كانت تُبتر قطعةٌ من ساقي، كانت العدوى تنتشر أكثر فأكثر، ولم يكن هناك حلٌّ سوى البتر الكامل! ولأنَّ لديَّ مرض السكَّر فقد زاد هذا من صعوبة الوضع. بقيتُ في المستشفى الأوروبيِّ ثلاثين يومًا. بتروا ساقي ثلاث مرَّات، حتى لم يبقَ منها شيء. البتر الأوَّل تحت الركبة، والآن صار تحت الحوض! لقد رأيتُ نفسي أموت حيًّا، عرفتُ كيف يتحلَّل الجسد البشريُّ عندما نموت.

الجيش الإسرائيليُّ لا يقصف بيتًا بيتًا، إنَّهم يقصفون مناطق

كاملة، كأنَّهم قرَّروا محو مجموعةٍ من الأبنية تمامًا عن الوجود! وأثناء ذلك، كانت أجساد الناس تختفي وتختلط أشلاؤها مع الحديد والإسمنت، ولم يكن بالإمكان العثور على بقاياهم بعد ذلك! الموت في كلِّ مكان! كنَّا قد اعتدنا على الحروب الصغيرة، وعلى جرعاتٍ صغيرة من الموت، لكن ليس بهذا الشكل!

لقد عشتُ ثلاث حروبٍ من قبل، اعتقدنا في البداية أنَّ هذه الحرب ستكون مثل السابقة، سيضربون مواقع عسكريَّةً أو يستهدفون حماس. لكن هذه المرَّة، لم يتركوا شيئًا! لا أعتقد أنَّهم سيتوقَّفون!

نعم، فقدت ساقي، فقدت أهلي، فقدت كلَّ شيء، ولا يوجد ما يمكن قوله أكثر من ذلك! لا أعرف لماذا أخبرتك بكلِّ هذا! كان يجب ألَّا أقول شيئًا!

كيف يمكن الحديث عن كلِّ هذا!؟

لا يمكن!

سين

34 سنة

وسط غزَّة

أنتِ تسألين عمَّا حدث يوم 7 أكتوبر؟ أعتقد أنَّ لديك ما يكفي من الإجابات بصدد ما تريدين سماعه. لكنِّي لا أذكر سوى بقعة ضوءٍ واحدةً ممَّا جرى. بقيت عشرين ساعةً مدفونةً تحت الركام. تعرفين القصَّة؛ قصفٌ صاروخيّ، يُطلقه الإسرائيليُّون على الأبنية المليئة بالناس، فتنهار الأبنية وتُمحى من الوجود، ويختلط الركام بأجساد البشر. كنت مثل غيري ممَّن سقطت عليهم الأبنية. زوجي وثلاثة من أولادي ماتوا. لم يعثروا عليهم، بحثوا عنهم طويلًا، لكن دون جدوى. عرفت بعد أسبوعٍ أنَّهم لم يجدوهم.

هل تؤمنين بالمعجزات؟ أنا أؤمن بها. الحمد لله، أنا راضيةٌ

بما كتبه الله لي. لولا إيماني بالله وخوفي من عقابه، لربَّما قتلتُ نفسي. أحيانًا أظنُّ أنَّه كان من الأفضل لو كنتُ قد متُّ مع أولادي وزوجي. لم يكن ليتغيَّر شيءٌ في العالم. لا أطلب شيئًا، ولا أذكر الكثير من التفاصيل. حتى وجوه أولادي تغيب عن ذاكرتي. أنظر إلى صورهم حتى لا أفقد ذكرى ملامحهم.

كانت لديَّ ثلاث بنات، جميعهنَّ جميلاتٌ ومجتهدات في المدرسة. الكبرى كانت في الخامسة عشرة، فتاةٌ مثابرة، ربَّيتها لتكون قويَّةً وتعرف كيف تقول «لا». تليها ابنتي في الثالثة عشرة، ثم الصغرى في العاشرة من عمرها. لا أذكر سوى أشياء بسيطة. كنَّا مثل عائلاتٍ كثيرة في غزَّة، نسكن في بناءٍ واحدٍ مع العائلة بأكملها، العائلة كانت مهمَّة جدًّا لنا. تجمعنا العلاقات العائليَّة والأقرباء كانوا يعينون بعضهم على مصائبهم. لذلك كنَّا جميعًا نجتمع: أنا، إخوتي، أمِّي، الأحفاد، وأبي. كانت عائلةً مثاليَّةً ومتضامنة. نجا والدي ووالدتي، لكنَّ إخوتي الثلاثة وزوجاتهم وأطفالهم ماتوا جميعًا.

أذكر فعليًّا من 7 أكتوبر تلك البقعة المضيئة، ضوءٌ قادم من مكانٍ دائريٍّ وسط الظلام الذي بقيت فيه عشرين ساعة. كنتُ مدفونةً بين الركام، غير قادرةٍ حتى على تحريك يدي. فقط رأسي كان في فراغٍ صغير، بفضله كُتبت لي الحياة. وفي ذلك الفراغ، كان هناك ممرٌّ صغير يشبه حبلًا من النور، يأتي منه الهواء والضوء ويغمر الدائرة التي احتوت رأسي.

أنا الأخت الكبرى في العائلة. زوَّجوني عندما كنت في السابعة عشرة. لم أكن أقول «لا». أيُّ شيءٍ يرونه مناسبًا لمصلحة

العائلة كنت أفعله. قرَّروا أن أتزوَّج وأترك المدرسة. نحن أربع بناتٍ وثلاثة صبيان. البنات جئن أوَّلًا، وتربَّينا على أن نكون أمَّهاتٍ لإخوتنا. لم يكن لديَّ مانع، كنتُ أفعل كلَّ شيءٍ لأُرضي أمِّي. هكذا كانت القاعدة في بيتنا وفي مجتمعنا. لم أرفض طلبًا قطّ. الزواج كان «سترة» للبنت، ويجب أن أنجب أطفالًا، فأنجبت. كنت أبذل كلَّ طاقتي لإرضاء أمِّي، هكذا تربَّينا؛ أن نخدم إخوتنا الذكور. وكنت أفعل ذلك بمحبَّة. السترة، السمعة الحسنة، ورضى الله ورضى الوالدَيْن كانت هي الأولويَّات.

قرَّرتُ إكمال تعليمي بعد أن زوَّجوني. كنت صغيرةً جدًّا، لكنِّي أحبُّ الكتابة. أردت أن أكون كاتبة. أحبُّ القراءة، أقضي كلّ وقتي المتبقِّي بعد أعباء البيت والأطفال في القراءة، كلُّ ما تقع عليه عيناي. لذلك درست في الجامعة بعد أن حصلت على موافقةٍ بصعوبةٍ من زوجي وأهلي. بقيت سنواتٍ أحاول إقناعهم، وعندما وافقوا بشروطٍ كثيرة، أكملت تعليمي. أنهيت اختصاص اللغة العربيَّة في الجامعة، وأردت أن أدرس الصحافة. لكن أمِّي كانت ترى أنَّ ما أفعله عيبٌ وجحود. قالت إنَّ زوجي رجلٌ جيِّد لأنَّه سمح لي بالدراسة، وهذا يكفي. لم يسمحوا لي بالعمل.

كنت قد أنجبت ثلاث بنات، وكانوا يطالبونني بأن أنجب أيضًا، لأنَّني يجب أن أحصل على صبيّ. في نظرهم، لا تكتمل أمومتي إلَّا إذا أنجبت صبيًّا. زوجي قال إنَّه يريد الصبيّ، وقلت لهم: «كما تريدون». لذلك كنت حاملًا عندما قصفونا. في ذلك اليوم، كنت في شهري الرابع عندما حدث الانفجار.

تريدين معرفة ما حصل في 7 أكتوبر؟ سأُخبرك، رغم أنِّي ما

زلت أحاول استيعاب كلَّ شيء. كنت غاضبةٌ من كلِّ ما يحيط بي: من أعباء البيت، الأولاد، الحروب التي لا تنتهي، الحصار، وحتى من أمِّي وزوجي. أردت أن أدرس الصحافة، ولكن منعوني. كنت أكتب، لديَّ دفترٌ أملأه دائمًا بالأفكار والكلمات. كنت أشتري الدفاتر من المكتبة وأقرأ الكتب على الإنترنت، أتابع ما يحدث في العالم. لم أخبر أحدًا أبدًا بما أكتبه، لم يكن مسموحًا لنا أن نتحدَّث عمَّا رأينا؛ عن الألم، الاغتصاب، التحرُّش. كنت أقرأ وأكتب، ولكن لم أجرؤ على التفوُّه بحرفٍ واحد.

ربَّما كنت جبانة، لكنَّني سأغيِّر نفسي، أو ربَّما تغيَّرت بالفعل، بعد تلك البقعة المضيئة التي أنقذت حياتي، وتلك اللحظة التي سمعت فيها صوت أمِّي وهي تمشي بجواري بينما كنت مدفونةً تحت الركام.

لقد أخبرتك، بقيت عشرين ساعةً تحت الأنقاض، ولم أكن أستطيع أن أتكلَّم. كنت أصرخ في داخلي، أحاول تحريك شفتيّ، لكن لم يخرج صوتي، ولم أستطع حتى تحريك جسدي. فقط كنت أسمعهم يتحرَّكون في مكانٍ قريب. فجأة، سمعت صوت أمِّي، وهنا كانت الحقيقة تقترب. اشتعل قلبي. أردت أن أصرخ: «أنا هنا!»، لكنَّها لم تنادِ إلَّا بأسماء إخوتي الصبيان. كنت أقول لنفسي: «ستذكرني قريبًا، ستنادي اسمي». لكنَّ الخطوات كانت تقترب وتبتعد، وأمِّي تستمرُّ بالبحث عن أبنائها الذكور.

هل كانت تبحث عنهم فقط؟ كانت تمشي مع المسعفين، ثم غادرت. أحاول تذكُّر هل جاءت مرَّتْيْن؟ أم كان مجرَّد حلم؟ هل سمعت صوتها حقًّا؟ هل نادت عليَّ أو على أخواتي البنات؟ لا

أعتقد أنَّها فعلت. حتى الآن، لا أستطيع تصديق ذلك. كانت تنادي أسماء إخوتي الثلاثة مرارًا، وسمعت البكاء والنحيب. لو نادت اسمي ولو لمرَّةٍ واحدة، لكانت الحياة قد اختلفت. لكن ذلك لم يحدث. ظلَّت تردِّد أسماء إخوتي حتى اختفت.

أنقذوني لاحقًا، كيف؟ بمحض صدفة! الردم من حولي انهار، فوجدوني، كنت غائبة عن الوعي. عندما فتحت عينيّ، رأيت خيالاتٍ قبل أن أغمضها مرَّةً أخرى. لم أسأل عن بناتي ولا عن زوجي. لم أتفوَّه بحرفٍ لأكثر من شهر. بُترت رجلي، وأصابعي الأربعة، ولم يكن الوقت متاحًا للتفكير في شيء. كنَّا ننتقل من مستشفى إلى آخر، ومن نزوح إلى نزوح. لا أريد أن أكرِّر ما تعرفينه عن الإبادة التي تعرَّضنا لها. الإسرائيليُّون لم يتوقَّفوا عن القصف، وكانوا يُعيدون قصف الجثث ويفتِّتونها.

ما زلت أفكِّر في كيف فعلت أمِّي ذلك؟ لم أسألها، ولن أفعل. مات إخوتي الثلاثة، وكانوا كأبنائي. هذا ما بقي لي من ذاكرة 7 أكتوبر: تلك البقعة المضيئة التي احتوت رأسي، وصوت أمِّي وهي تنادي على إخوتي فقط. ما زلت أعيش، بنصف جسدٍ تقريبًا. سوف أكتب يومًا ما عن كلِّ شيء، ولكن ليس الآن. سأنتظر حتى ترحل أمِّي عن هذه الدنيا. حتى ذلك الحين، لا تذكري من أنا ولا من أين أتيت. لا أريد حتى ذكر أسماء بناتي الجميلات. أريد أن أنسى.

تعرفين أنِّي كنت حاملًا بشهري الرابع؟ هل أخبرتك ذلك؟ كانوا يريدون صبيًّا ليحمل اسم أبوه، تسألين عن جنيني؟ لقد مات. مات فورًا. أجهضته، مات في بطني. وهذه قصَّةٌ أخرى.

بشرى الغلبان أبو صبيح

42 سنة

خان يونس

نعيش في معن، إحدى القرى الشرقيَّة لخان يونس. درست اللغة الإنجليزيَّة في الجامعة، وفي عام 2004 توظَّفت في الأونروا، وما زلت أعمل فيها حتى الآن. قضيت 20 عامًا أعمل في مدارس متعدِّدة.

هذه الحرب لم تترك شيئًا في خان يونس، لقد دمَّروا المدينة بالكامل! لا أعرف كيف أصف يوم 7 أكتوبر. كان يومًا عاديًّا؛ زوجي طبيب العظام في مستشفى ناصر يستعدُّ للذهاب إلى عمله، ونحن نستعدُّ للذهاب إلى المدرسة. أنهينا تحضيراتنا وارتدينا ملابسنا وكنَّا على وشك الخروج، عندما سمعنا أصواتًا مدوِّية

ومن ثم رأينا الصواريخ تنطلق. بحكم تجربتنا مع الحروب السابقة، عرفنا أنَّه لن تكون هناك مدارس في ذلك اليوم، لكنَّ الأمر لم يتوقَّف عند هذا الحدّ! لم تكن مجرَّد صواريخ متقطِّعةٍ كما في السابق، بل اندلعت حربٌ شاملة علينا.

كنَّا قلقين لأنَّنا أدركنا أنَّ هذه الحرب ستكون مختلفةً تمامًا عن كلِّ ما مررنا به. بقينا في بيوتنا، وعلى الرَّغم من معرفتنا أنَّ الحرب ستكون أقسى ممَّا عايشناه من قبل، لم نتوقَّع ما حدث لاحقًا. ما شهدناه سيفوق قدرتنا على الفهم. هل نسمِّيه إبادة؟ حتى هذه الكلمة لا تبدو كافيةً لوصف ما جرى. هناك أشياء كثيرةً أرغب في الحديث عنها، لكنَّ الكلمات تخونني. أحيانًا أفكِّر أنَّ الوقت ليس مناسبًا للحديث عن الأمل أو الحزن أو حتى عن مشاعرنا الشخصيَّة. ربَّما من الأفضل أن أروي ما حدث لنا جميعًا، أو ربَّما أصمت، لكنَّني أريد أن أُشارك ما رأيت. أرجوك، اكتبي كلَّ كلمة.

في اليوم الأوَّل، 7 أكتوبر، قصفوا أبراجًا في غزَّة، وفي نهاية اليوم وصل القصف إلى خان يونس. أصبح القصف يوميًّا، وبدأنا نتوقَّع وصول الصواريخ في أيِّ لحظة. لقد استهدفوا العمارات دون إرسال أيِّ تحذيراتٍ للمدنيِّين كما فعلوا في الحروب السابقة، زوجي طبيبٌ وأنا معلِّمة، نحن أُناسٌ عاديُّون مثل كثيرين يعيشون في غزَّة. في يوم 24 أكتوبر، سمعنا صوت ضربةٍ قريبة ورأينا الدخان والغبار وآثار الدمار، ومع ذلك عدنا للنوم، فقد أصبحت الحرب جزءًا طبيعيًّا من حياتنا. أنا أمٌّ لثلاثة أبناء وابنة، وأولادي دائمًا معي، لا أفارقهم. ابني الأكبر يدرس

في الجامعة وأرسل لنا صورًا لبيتٍ مقصوف، وهو بيت أمِّ محمود شراب. هل تعرفين لماذا قصفوا بيتها؟ في حرب 2014، قُتل ابنها الذي مع المقاومة، ومنذ ذلك الحين يستهدفون عائلات الشهداء الذين فقدوا أبناءهم في الحروب السابقة. انتقامهم أعمى، يستهدفون حتى الموتى ويطمحون للقضاء على أُسرهم. الصاروخ الذي سقط على بيت أمِّ محمود شراب لم ينفجر، لكنَّه أحدث حفرةً كبيرة، وبعد ذلك الحادث هرب الناس من المنطقة. كنَّا نعلم أنَّ الانتقام سيكون بلا حدود.

لم يعد بإمكاننا انتظار شيءٍ سوى الأسوأ، خاصَّةً بعدما قُصف بيت جيراننا الملاصق بشكل عشوائيّ. ظننت أنَّني في أمان، جعلنا بيتنا ملجأ للنازحين. صدَّقت أنَّهم لن يقصفوا بيتنا لأنَّنا لا علاقة لنا بالمقاومة ولا بحماس، لكنَّنا اضطررنا إلى تركه والنزوح إلى بيت أهلي. بعد أن خرجنا، قصفوا في الليل بيت جيراننا بالكامل، وسوِّي بالأرض، وتضرَّر بيتنا أيضًا. قصفونا بالبراميل، ولم تكن صواريخ عاديَّة. كنَّا حينها ما زلنا في مرحلة الحرب الجوِّيَّة، ولم يكن الاجتياح البرِّيُّ قد وصل إلى خان يونس.

تركنا البيت في 6 ديسمبر مُكرهين، القذائف تتساقط من حولنا، وفكَّرت أنَّني سأموت مع عائلتي. إنَّ فكرة النزوح مجرَّد وهم آخر، فلا يوجد مكانٌ آمن للنزوح إليه، إذ إنَّ كلَّ الأماكن تُقصَف، بقينا بين الموت والحياة حتى بدأت الحرب البرِّيَّة، وكنَّا نتابع كلَّ ما يحدث من حولنا، نرى الفظائع التي يرتكبوها على أرض الواقع. قاموا بتقسيم القطاع إلى مربَّعات، ووضعوا خريطةً

له وأعطوا كلَّ منطقةٍ رقمًا. ادَّعوا كاذبين أنَّهم يلتزمون بالقوانين الإنسانيَّة. منطقة خان يونس، التي تشمل القرارة، وكما ننطقها «كرارة» بالكاف، كانت واحدةً من تلك المناطق، وجاء دورنا في المربَّع رقم 45 في منطقة معن، وهي قريةٌ شرقيَّة، تعتبر منطقةً زراعيَّةً واسعة، ببيوتٍ متفرِّقة، ولا توجد بها أيُّ مقاومة.

بعد أن ألقوا المناشير التي كانت تقول: «على سكَّان معن وكرارة أنتم في منطقة قتالٍ شديد، حفاظًا على سلامتكم، اتركوا المنطقة»، وأنَّه «قد أعذر من أنذر»، لقد كتبوا تلك المناشير بلغةٍ عربيَّةٍ ركيكة، قرَّرنا بعد قراءتها أن نترك بيتنا المدمَّر أصلًا. أخذنا حاجياتٍ بسيطةً وتنزحنا إلى بيت أهلي. استغرب الناس من قرارنا، وطلبوا منَّا عدم تصديق تلك التحذيرات، مؤكِّدين أنَّ القصف لن يصل إلينا.

في تلك الليلة، بدأ ما يُسمُّونه «الحزام الناريّ»، القصف عنيفٌ للغاية على منطقةٍ واحدة دون توقُّف، عشرات الصواريخ وقذائف صوتيَّةٌ تُصدر أصواتًا مرعبة، وكأنَّها أصوات الجحيم. الشرار والنيران تحوِّل الليل إلى نهار، القذائف تثير الرعب في كلِّ مكان. مخيَّم خان يونس بُني في أيَّام نكبة 1948. عائلتي كانت تعيش في هذا المخيَّم، وقربه يقع مستشفى ناصر، حيث يعمل زوجي كطبيب عظام. بقيت مع أولادي في بيت أهلي. تحرَّكنا بواسطة الحمير لأنَّ استخدام السيَّارات لم يعد ممكنًا. أنا وأختي كنَّا نازحتَيْن عند أهلي عندما بدأ قصف «الحزام الناريّ». الناس بالكاد قرأت المناشير حتى بدأ القصف، فهربوا إلى مدرسةٍ قريبة من البيوت. في الصباح، نحو الساعة السادسة، أُطلقت قذائف

الدبَّابات على مكانٍ قريب يُدعى «المركز الثقافيّ»، واستهدفت مدرسةً تابعة للأونروا. لم يكن في المدرسة سوى المدنيِّين، وهم على علم بذلك، إذ كانوا يعرفون أنَّ هذه المدرسة تابعةٌ للأونروا. الدرون تُحلِّق باستمرار، تراقب تحرُّكات الناس، تتحدَّث إليهم وتقتلهم، فيما النازحون لا يفهمون ما يجري حولهم بسبب القصف المتواصل والقتل العشوائيّ.

كان أمرًا غريبًا للغاية، أن تأتي طائرةٌ آليَّةٌ تقتل الناس ثم تعطيهم تعليمات! الجميع في حالة رعب، ولهذا اعتقدوا أنَّهم سيكونون في مأمنٍ إذا لجأوا إلى مدرسةٍ تابعة للأونروا. في يوم 6 ديسمبر، قصف الإسرائيليُّون مدرسة الأونروا «مدرسة معن الإعداديَّة المشتركة» ممَّا أسفر عن مقتل 30 أو 35 شخصًا. من بين الضحايا عشرة أفرادٍ من عائلة الغلبان، وهم أفرادٌ من عائلتي أنا شخصيًّا: حماتي، أسلافي، خطيب ابنتي، وزوج أختي. كانوا جميعًا مدنيِّين، يحتمون في المدرسة بعد أن تعرَّضت منازلهم للقصف ونجوا من الموت عدَّة مرَّات.

هذه المرَّة لم يكن القصف من الطائرات، بل من مدفعيَّة الدبَّابات التي استهدفت المدرسة مباشرة. ليس خطأ، بل كان القصف متعمَّدًا، فقد رأوا كلَّ شيءٍ بأعينهم. لم يكتفوا بذلك، بل أرسلوا طائرات الكوادكابتر بعد ذلك، تلك الطائرات المسيَّرة التي تستهدف الأفراد الهاربين. لم يكن مسموحًا لأحدٍ أن ينجو، وهكذا قُتل جميع أفراد عائلتي. القتل يأتي من كلِّ الجهات. الدكتور إبراهيم الغلبان أحد أفراد عائلة الغلبان، لقد استهدفته الطائرات المسيَّرة وقتلته. كانت زوجته، غنيمة، تقف على باب

منزلهم، وحين رأت زوجها ينزف، حاولت إنقاذه، لكنَّ الطائرة قتلتها هي أيضًا. ماتت فورًا بجانبه، وبقي هو ينزف حتى فارق الحياة. بقيت جثَّتا الدكتور إبراهيم وزوجته في الساحة لمدَّة أسبوعَيْن كاملَيْن، لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منهما لدفنهما، لأنَّ الطائرات المسيَّرة استمرَّت تقتل أيَّ شخصٍ يقترب. استمرَّ القصف بلا توقُّف، والطائرات تمنع أيَّ حركة، وظلَّ الجميع سجناء داخل ما تبقَّى من بيوتهم المدمَّرة.

الدكتور إبراهيم الغلبان في الستِّينيَّات من عمره، رجلٌ محترم، معروفٌ في منطقته بعمله وأخلاقه. كانت طريقة موته أمام الجميع مشهدًا رهيبًا. الناس يرونه يتحلَّل ببطء، وليس بإمكانهم فعل شيء. الأكثر حزنًا كان أخوه، الذي بقي ينظر من شرفته نحو جثَّة أخيه، غير قادرٍ على التحرُّك أو فعل أيِّ شيء. لم يتحمَّل الأخ الثاني للدكتور إبراهيم هذا المشهد، وأُصيب بجلطةٍ دماغيَّة بسبب الحزن الشديد على ما حدث لأخيه. ابنة الدكتور إبراهيم شهدت أيضًا كيف بقيت جثَّته في الساحة أمام أنظار الجميع. ظلَّ الوضع على حاله حتى تدخَّلت فرق الصليب الأحمر بعد أسبوعَيْن، فتمكَّنوا من نقل جثث المدنيِّين الذين بقوا في العراء طوال تلك الفترة بدون جنازةٍ أو أيِّ نوعٍ من الاحترام، بعد أن تحلَّلت جثثهم.

في تاريخ 26 ديسمبر، ألقوا مناشير مجدَّدًا على بيت أهلي، يطلبون منَّا النزوح مرَّةً أخرى. لم يتوقَّفوا أبدًا. عادت طائرات الكوادكابتر لنشر الرعب، تطير وتتحرَّك وتقصف، نعيش محاصرين حتى في الهواء الذي نتنفَّسه، لأنَّ هؤلاء القتلة الآليِّين يحيطون

بنا. بقينا محبوسين، لا نتحرَّك. حتى إذا أردنا الخروج لجلب ماء، نخاف من أن تقتلنا الدرون. نعاني من العطش، هكذا بقينا محشورين في دار أهلي المليئة بالنازحين، ونحن معهم، وكأنَّنا مسجونون داخل حيطان، مستعدُّون للموت في أيِّ لحظة.

خالتي أصابها رعبٌ شديد من الكوادكابتر، أخذنا نحاول تهدئتها وإفهامها أنَّنا أغلقنا كلَّ الأبواب والنوافذ. لكنَّها استمرَّت تقول إنَّ هذه الطائرة القاتلة تأخذ بصمة الصوت وتستطيع تتبُّع كلَّ شيءٍ والنفاذ إلينا. كنَّا نطفئ هواتفنا المحمولة خوفًا من أن تتبعنا، سمعنا قصصًا عن الزنَّانة التي تدخل البيوت، وقد رأت إحدى النساء الطائرة على شرفتها وهي تحاول الدخول إلى منزلها وهي تنشر الغسيل. الزنَّانات تستهدف الناس، تحدِّدهم ثم تقتلهم. لقد قتلت طفلةً عمرها خمس سنوات، ولم نكن نعرف لماذا تقتل هذه الطائرات الآليَّة طفلةً بهذا العمر. رأينا كلَّ ذلك بأعيننا.

حاولنا الخروج في الفجر لنشتري بعض الأغراض للبيت. لكن مع الوقت، لم يعد هناك أيُّ أسواق، ولا أغراض. الرفوف فارغة، وانقطعت الموادُّ الغذائيَّة، ولم يعد هناك طعامٌ متاح. ندفع أضعافًا مضاعفة للحصول على أقلِّ مستلزمات الأكل. فقدنا الطعام والماء والكهرباء في خان يونس. في 26 ديسمبر، بعد أن رموا علينا المناشير، خرجت من بيت أهلي ونزحنا جنوبًا إلى رفح. طوال تلك الفترة كنَّا نُدرك أنَّ الدور سيأتي على المنطقة التالية التي ننزح إليها، لكن ليس أمامنا أيُّ خيارٍ آخر. نهرب ولا نعرف إلى أين نذهب. وصلنا إلى رفح، معي أختي وزوجها

وأطفالها السبعة، كنَّا مجموعةً كبيرة، والعائلات بدأت تتجمَّع. لم نستطع تركهم لوحدهم. بنت سلفي، آمنة، جاءت مشيًا من منطقة معن، وبقيت معنا. استقبلناها هناك، وأهلي استقبلونا جميعًا. وعندما قرَّرنا الذهاب إلى رفح، ذهبوا معنا. هناك وجدنا بيتًا عبارة عن غرفةٍ صغيرة، فتكدَّسنا جميعًا في تلك الغرفة، نعيش مكتظِّين ولا نعرف ما يجري في معن لأنَّها كانت منطقةً محظورة. لاحقًا علمنا أنَّ الإسرائيليِّين انسحبوا، وعرفنا أنَّ بيوتنا جميعها قد دُمِّرت بالكامل.

ابني كان يعاني من مشكلةٍ في الأذن، وبعد القصف ازدادت حالته سوءًا بسبب شدَّة الصوت والجراثيم المنتشرة. تفشَّت التهابات الكبد الوبائيِّ بين الناس، هناك 800 ألف نازح. البشر متكدِّسين فوق بعضهم البعض، والعدوى تنتشر بسرعة. أخطر شيءٍ كان التهاب الكبد، وابني تأثَّر بشكلٍ خاصٍّ في أذنه المصابة مسبقًا. في النهاية «لقد عشنا» ـ أنا وأبنائي ـ نحن على قيد الحياة!

مكتبة
t.me/soramnqraa

براء حمادة

17 سنة

الشيخ رضوان

في صباح 7 أكتوبر، كنت أستعدُّ للذهاب إلى المدرسة كالمعتاد، وبينما أنا على وشك مغادرة البيت؛ فجأةً سمعنا صوت انفجارات الصواريخ التي أطلقتها حماس. كانت أمِّي إيمان، وهي معلِّمة، تجهِّز إخوتي الصغار استعدادًا للمدرسة وتتحضَّر أيضًا للتوجُّه إلى عملها. كنَّا قد تعوَّدنا على الخروج سويًّا صباح كلِّ يوم؛ أمِّي تعمل في مدرسة الهدى الثانويَّة للبنات، أمَّا والدي فهو موظَّفٌ إداريٌّ في مدرسةٍ أخرى. لكنَّ ذلك اليوم لم يكن كأيِّ يوم. حين سمعنا دويَّ الصواريخ، توقَّفنا ولم نذهب إلى المدرسة. بدأ القصف بشدَّةٍ في فترة العصر، ولم يتوقَّف بعدها.

بقينا جميعًا في البيت. مرَّت الأيَّام ونحن نعيش وسط دويِّ القصف من حولنا، نخرج أحيانًا أنا وأبي لشراء حاجيَّات البيت الضروريَّة، حتى جاء اليوم الذي ضرب فيه القصف بيت جيراننا، واستشهد ابنهم. عرفنا حينها أنَّ منطقتنا، حيَّ أرض الشنتي في الشيخ رضوان، مستهدفةٌ بالكامل وأنَّ علينا المغادرة فورًا. رحلنا مع العائلة إلى بيت جدِّي في برج الشفاء حيث اجتمعنا جميعًا، العائلة بأكملها بما في ذلك خالاتي وأبناؤهم، كنَّا قرابة 45 شخصًا في مبنًى من خمس طوابق، كلُّ طابقٍ يضمُّ شقَّتَيْن، مكتظَّتَيْن في المساحة المحدودة.

ليلة 5 نوڤمبر، عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كان الرجال ينامون في جهة، والأطفال في غرفة، والنساء في غرفةٍ أخرى. كنَّا مكدَّسين في المكان، وصوت القصف لا ينقطع، بينما الدبَّابات تقترب من محيطنا. فجأة، تساقط الزجاج وملأ الغبار المكان، ثم انهارت الجدران؛ سقطت أربعة صواريخ متتاليةً على المبنى، شعرت بالأرض تهتزُّ تحتنا كما لو أنَّها تتمايل. حين أصابني الصاروخ، شعرت بألمٍ شديد، وسمعت صوت أمِّي تقول لي: «تشاهد! تشاهد!»، إذ اعتقدت أنَّني أحتضر، قدماي ممزَّقتان. لم أعلم حينها أنَّ قدمي بُترت، عرفت ذلك لاحقًا فقط، عندما أدركت أنَّ الصاروخ أصاب ساقي. بينما أنا في حالة صدمة، حملني الناس إلى الخارج ليجدوا الدرج مغلقًا بالركام. ظهري انغرس في الزجاج ما عمَّق الجروح، وفي ذلك المبنى، استشهد 15 شخصًا من عائلة الصحفيِّ محمَّد الجاجة، ونجت طفلةٌ صغيرة عمرها سنتان فقط. حين حملتني

أمِّي إلى المسعفين، وأعطتهم قدمي. أخذوها ودفنوها مع بقايا أشلاء الضحايا الآخرين، ولم أعرف أبدًا أين دُفنت. في المستشفى، أُجريت لي عمليَّةٌ جراحيَّةٌ بينما أمِّي تنتظرني في الاستقبال، تجلس على الأرض وسط الدماء والأشلاء، تشاهد وصول ضحايا مجزرةٍ أخرى كانت قد وقعت في معسكر الشاطئ.

عندما أفقت لاحقًا، علمت أنَّني فقدت ساقي. كنت في السادسة عشرة من عمري حينها، غاب وعيي للحظاتٍ من الصدمة. بعد العمليَّة، دخلت أُمِّي في حالةٍ من الهلع وبدأت تبحث بين الجثث عن أخي الصغير، معتقدةً أنَّه قد فُقد، كان مشهدًا لا يُنسى، قالت لي فيما بعد إنَّها شعرت للحظةٍ وكأنَّها فقدت عقلها.

بقيت في مستشفى الشفاء سبعة عشر يومًا، أصارع الألم والخوف وسط القصف المستمرِّ حتى على المستشفى نفسه. في ذلك اليوم، يوم الجمعة 10 نوفمبر، القذائف تضرب قسم الولادة، ولم أتوقَّع أن أخرج من هناك على قيد الحياة، ولكنَّني بقيت هناك حتى النهاية. قُصف جامع البورنو المقابل لمستشفى الشفاء، وبدأت القذائف تنهال علينا، فحملني أهلي على عجلٍ وبدَّلوا غرفتي. حصل ذلك يوم جمعة، والقصف في كلِّ مكان، فوقنا ومن حولنا. شعرت أنَّ قلبي سيتوقَّف من شدَّة الألم، وأصرخ باستمرار، غير قادرٍ على السيطرة على صرخاتي. كانوا يغيِّرون على جروحي دون استخدام أيِّ تخدير، واستخدموا دواءً يُدعى الكيتامين لكنَّه لم يؤثِّر عليَّ إطلاقًا. طلبت منهم أن يبتروا رجلي الثانية، إذ لم أستطع تحمُّل الألم. وفي خضمِّ هذا كلِّه،

أطلق الجنود الإسرائيليُّون قنابل الغاز علينا، وهناك طائراتٌ مروحيَّةٌ تُطلق النار تجاه غرفنا، فغادرنا المكان سريعًا. الغاز كان خانقًا، والرصاص يخترق الغرف. لم نعرف إلى أين نتوجَّه، وبدأ الناس يركضون كأنَّها لحظة حشر، إذ غادر الأطبَّاء واكتفى المتدرِّبون فقط بمحاولة العناية بالجرحى. لم يكن لديهم سوى الخلِّ لتعقيم الجروح، ممَّا أدَّى إلى ظهور الدود في جروحي بسبب تعفُّن الجرح، ولم يكن هناك من يقدر على فعل شيء، فالمستشفى محاصرٌ بالكامل والدبَّابات والمدافع الإسرائيليَّة تطوِّق المكان.

استمرَّ هذا الوضع لأسبوعَيْن حتى قرَّروا اقتحام المستشفى. كنَّا نعيش على القليل من الطعام والشراب، وشهدت الكثير من حالات الوفاة حولي. أمِّي كانت مرعوبةً من أن أموت بسبب تعفُّن جروحي وتسمُّم جسدي، طمأنتني أمِّي وقالت لي: «لن أتركك، سأبقى معك». جاءت أوامر الإخلاء وطلبوا من الجميع النزول إلى الطابق الأوَّل، أنزلوني على سريري لأنَّه ممنوعٌ بقاء أيِّ شخصٍ في الطوابق العلويَّة. تجمَّعنا جميعًا في الطابق الأوَّل، الطائرات المروحيَّة تحوم حولنا وتُطلق النيران، واقتحم الجنود المستشفى. قاموا بجمع جميع الشباب الأصحَّاء، وأخذوهم وقاموا بتعريتهم وعصب أعينهم، فيما أنا منتظرٌ في سريري. حقَّقوا مع أمِّي، وسألوها عن سبب إصابتي، فواجهتهم بقوَّةٍ قائلة: «أنتم من فعل هذا به!»، كان أسبوعًا من الرعب المتواصل. فيما بعد، فتحوا المصاعد وأدخلوا أسلحةً إلى المستشفى، ثم رأينا بعض الرجال يبدِّلون ملابسهم المدنيَّة

بملابس عسكريَّةٍ ويأخذون صورًا كأنَّهم عناصر من حماس، ولم نعرف ما الغرض من تلك الصور. جلبوا لنا طعامًا وصوَّرونا وكأنَّهم يقدِّمون لنا المساعدة، وفي اليوم التالي أجبرونا على ترك الطعام وإلقائه، رغم أنَّنا في حالة جوعٍ شديدة.

لم نَرَ أيَّ أفرادٍ من حماس، ولكنَّ الجنود استمرُّوا يسألوننا عنهم بشكلٍ مستمرّ، وحتى إنَّني حاولت فهم السبب وراء كلِّ هذا التركيز، دون أن أجد تفسيرًا. سألني الجنود الإسرائيليُّون عن إصابتي وحياتي وعائلتي وتفاصيل كثيرة، فقلت لهم في النهاية: «هذا كلُّ ما أعرفه، ما زلت في السادسة عشرة!». غادرنا المستشفى بعد ذلك وقضينا النهار كلَّه على الطريق. بقينا ساعاتٍ طويلة عند الحاجز، في طريقنا إلى المستشفى الأوروبيّ. واجهتني مشكلةٌ جديدةٌ على الحاجز، حيث اعتقد الجنود الإسرائيليُّون أنَّني أحد أسراهم. بدا أنَّ صورتي تُشبه وجه أسيرٍ منهم، وظللت أؤكِّد لهم مرارًا أنَّني فلسطينيّ، لكنَّهم لم يأبهوا. ربَّما شكُّهم بسبب مظهري؛ فأنا شابٌّ أشقرُ بشعرٍ فاتحٍ وعينَيْن زرقاوَيْن، لم يصدِّقوا ذلك بسهولة. بدأوا يحقِّقون معي، وبعد تأكُّدهم من أنَّني فلسطينيٌّ ولست أسيرهم الذي يبحثون عنه، بدأوا بضربي وإهانتي؛ وضعوا البنادق على ساقي المبتورة وضربوني، بعد ذلك، وصلنا إلى مستشفى ناصر في خان يونس، علينا قضاء الليلة كلِّها مستلقين على البلاط في البرد حتى صباح اليوم التالي، حين أدخلونا إلى قاعةٍ كبيرة، مقسَّمةٍ بستائر، لتكون تلك هي المستشفى التي وضعونا فيها. وضعي بقي خطيرًا، وساقي المبتورة لم تتوقَّف عن النزف، كدت أموت لأنَّني لم أتلقَّ العلاج المطلوب، وكلُّ ما

أفكِّر فيه هو كيف سأتمكَّن من المشي لاحقًا، كيف سأعود إلى المدرسة، وكيف سأدخل الجامعة بساقٍ واحدة والأخرى بالكاد تتحرَّك. التفكير بالمستقبل يرهقني، أتساءل كيف سأقف، ماذا سأفعل. الأوضاع في الجنوب ليست أفضل بكثيرٍ من الشمال؛ صحيح أنَّنا هربنا من المجازر هناك، لكنَّ المعاناة استمرَّت. ما زلت أذكر اللحظة الأصعب على الإطلاق، لحظة علمي بفقدان ساقي. بكيت كثيرًا حينها، إذ إنَّ حلمي أن أدرس طبَّ الأسنان، ومع علمي أنَّني فقدت العديد من أصدقائي، من بينهم عبد الرحمٰن ومالك، شعرت بفراغٍ كبير. أنا أحبُّ السباحة، أسبح مرَّتَيْن في الأسبوع، وأتساءل الآن هل يمكنني السباحة بساقٍ واحدة؟ ساقي الثانية أيضًا متضرِّرة، لذا لا أعرف حتى إن كان هذا ممكنًا بعد الآن.

فراس الشيخ رضوان،

21 سنة

حيُّ التاج، غزَّة

قبل أن أصبحَ نصف إنسانٍ الآن؛ كنت أدرس المحاسبة في جامعة القدس المفتوحة. أعيش في غزَّة مع عائلتي: أمّ، أخوَيْن، أخت، وأب دائم السفر لعمله في التجارة. عائلةٌ صغيرة كما ترين، لكنَّها عائلةٌ سعيدة، أو هذا على الأقلِّ ما أذكره. وُلدت في الحرب والحصار، صحيح، لكنِّي أحببت جامعتي ودراستي.

نمت يوم الجمعة السادس من أكتوبر متخيِّلًا أنَّ اليوم التالي مجرَّد سبتٍ عاديّ، يوم دراسيٍّ جديد. صحوت على صوت صواريخ، قطع النوم بشكلٍ مباغت. صوتٌ شديد، غزير، جعلني أقفز من فراشي وأنزل راكضًا إلى الشارع. الناس من حولي في

حالة هياج. لم يكن أحدٌ منَّا يعرف ما يحدث. في أوَّل الأمر ظننَّا أنَّنا نُقْصَف. هذا هو منطق الأشياء في القطاع، أن نُقْصَف، اعتَدْنا ذلك مثلما اعتَدْنا الحصار والصبر. لكنَّ الأمر مختلفٌ هذه المرَّة: الصواريخ تخرج من عندنا! قال بعض الجيران: قريبًا يبدأُ الإسرائيليُّون جولة قصفٍ من جولاتهم المعتادة، ضربة، ضربتَيْن، ثلاثَ ضربات، قال آخرون: بل هذه معركة تحرير فلسطين، أكَّد آخرون: لن تكون حربًا عاديَّة، وافقهم آخرون: هذه المرَّة سيقتلوننا جميعًا. كلٌّ من حولي قال شيئًا، وكلُّ واحدٍ كان له رأيٌ مختلف. الأكيد أنَّنا، في أوَّل الأمر على الأقلّ، لم نعرف ما يحدث، ولم نتخيَّل ما سيحدث. لا أذكر بالضبط كيف مرَّت الساعات والأيَّام الأولى. ما أذكره هو أنَّنا قرَّرنا البقاء في البيت. لن نغادر، القصف الإسرائيليُّ آتٍ لا محالة، هذا جزءٌ طبيعيٌّ من حياتنا، هذا منطق الأشياء في غزَّة. ستكون جولةً معتادةً من جولات القصف، ضربة، اثنتَيْن، ثلاث ضربات، لكنَّنا سنتابع عيش حياتنا في أدقِّ تفاصيلها.

بعد ثلاثةِ أيَّام، في العاشر من أكتوبر، كنَّا في البيت، أمِّي في غرفة، أنا في غرفتي، إخوتي في غرفة، وأبي في سفره، حين بدأ الهجوم الإسرائيليّ. نحن في حصارٍ منذ سنين، ينقصنا كلُّ شيء. نحن في حربٍ مزمنةٍ تأكلنا على البطيء! أتى القصف وبدا لي أنَّ المتغيِّر الوحيد هو أنَّه كثيفٌ هذه المرَّة إلى أبعد حدّ، ولا ينقطع، ولا يترك للواحد منَّا فرصة التفكير بالنزوح. تعرَّضت بناية جيراننا لصاروخٍ من العيار الثقيل. تقع بنايتهم وراء بنايتنا مباشرة، وكان من الطبيعيِّ أن ينال بيتنا قسطًا وافرًا من الشظايا والردم

اللذين تطايرا من الانفجار. حينها كانت إصابتي الأولى، وكانت في الظهر، فور إصابتي، لم أشعر بالألم، بل لم أشعر بشيءٍ وأنا أتأمَّلُ صورة ظهري المشقوق وأتفرَّج على لحمه وعظامه. كنت مثل من يشاهد إنسانًا آخر، مثل الجرَّاح وهو يُجري إحدى عمليَّاته. شعورٌ غريب، لا أفهمه إلى الآن، لذا لا أعتقد أنِّي مؤهَّلٌ لوصفه. حدَّقت في وجوه جيراني وهم يحملونني إلى المستشفى. أخذت ساعتها أُراجِعُ قرارنا بالبقاء؛ سكَّان بنايتنا من الأطبَّاء والمهندسين، أبي يعمل في التجارة كما أخبرتك، كلُّنا مدنيُّون، وليس فينا مقاتلون من حماسٍ أو من فصائلِ المقاومةِ الأخرى. أسعفني الجيران إلى مستشفى الشفاء. كان يعجُّ بالمصابين. وعلى الرَّغم من اسمه إلَّا أنَّه كان يفتقد كثيرًا من اللوازم والأدوات الطبِّيَّة. هناك بدأت أشعر بالألم، وكان جرحي عميقًا طويلًا. رضيت بأن يغلقوه بخيوطٍ جراحيَّةٍ قديمة. لم يكن لديَّ خيارٌ آخر، وكنت أريد أن أنتهي من القصَّة بأسرع وقتٍ وأعود للاطمئنان على أهلي. قال الأطبَّاء إنَّه يجب أن أبقى، لكنَّ فكري مشغولٌ على أهلي ولن أنام على الأرض وسط أكداس المصابين. خرجت، لا أعرف كيف فعلتها، لا أذكر، أذكر أنِّي كنت أمشي مترنِّحًا ولا أكاد أبصر أمامي. مررت على صيدليَّةٍ لشراءِ اليود المعقِّم والشاش، وحين وصلت البيت أخيرًا وجدت أنَّ أهلي جميعًا بخير، وأنَّ الإسرائيليِّين أصدروا بيانًا بعد القصف طالبين منَّا الذهاب إلى الجنوب، إلى رفح.

خرجنا، أنا وأمِّي وإخوتي، نازحين إلى دار أصدقاءٍ للعائلة في شارع الجلاء وسط مدينة غزَّة. وهناك، في الخامس والعشرين

من أكتوبر، تعرَّضنا لقصفٍ جديدٍ وأُصِبت للمرَّة الثانية. أرجو، حين أقول «قصفٍ جديد»، ألَّا تفهمي أنَّ الصفة هنا تفيد مجرَّد التكرار العدديّ. لا! لقد كان شيئًا مختلفًا، يُسمُّونه «الحزام الناريّ»، ليس صاروخًا أو اثنَيْن، عشراتُ الصواريخ والقنابل. ههُنا قصفٌ عنيفٌ متواصلٌ قد يدوم ساعةً كاملةً، سوى أنَّ هذه الساعة لا تنتهي. قصفٌ شرس، لا يرضى بأقلَّ من مسح أحياءٍ بكاملها ومحوِ عائلاتٍ كاملةٍ من السجلِّ المدنيّ. كنت في الشارع حين بدأ الحزام. لا يمكن تصديق ذلك، لا يمكن وصف ذلك. كنت في الشارع حين دوَّى الصوت وزُلزلت الأرض وانهارت الأبنية. صعدت فورًا للاطمئنان على الأهل والنزول بهم. شيءٌ لا يوصف. قصفٌ خرافيٌّ لا يتوقَّف، والأبنية تنهار مثل قلاعٍ من البسكوت. كلُّ شيءٍ يهتزّ: الأبنية، الأرض، القلوب، الهواء، الناس. نركض، أركض، الناس من حولي يركضون، وفي ركضنا نرى الركام والقتلى والأشلاء البشريَّة المتناثرة في كلِّ مكان. لم نعد نرى أجسادًا، أو كتلًا مكوَّمة، بل أعضاءً وأحشاءً وأطرافًا. رأيت بعض الأحياء أيضًا، نعم، رأيت من أُصيبوا ولا يزال بهم رمقٌ من حياة. لا أزال أذكر وجوههم، أطفال، نساء، رموا هنا وهناك. رأيت رؤوسًا وأيادي وأرجلًا، رأيت أنصاف أجسادٍ وأرباعها، رأيت أجسادًا مفتوحةً مثل أطلس التشريح، وكنَّا نقفز فوقها، ندوس عليها أحيانًا، نتعثَّر بها أحيانًا، ندوس على بعضنا بعضًا، نركض ونتدافع لا نفكِّر بشيءٍ غير الهروب من الجحيم الذي اسمه الحزام الناريّ. شيءٌ بشع. قُتل مئتان من الناس دفعةً واحدة، ارتفع بعدها الرقم إلى ثلاثمئة قتيل. سمَّوا ذلك اليوم

خبطة الجلاء، ضربة أو مجزرة الجلاء. نجت عائلتي مبدئيًا من أولى موجات الحزام الناريّ، ونوينا التوجُّه إلى جنوبِ القطاع.

ركبتْ أمّي مع أخي وأختي في سيَّارة، وركبت مع أخي الثاني في سيَّارةٍ خلفهم. وفي الطريق إلى رفح تعرَّض موكبنا للقصف. وبعينيَّ رأيت سيَّارة أمّي تُقصف. الفتاة التي كانت بجانبها ماتت على الفور، أمَّا أمّي فأُصيبت إصابةً خطرةً في رجلها. هذا كلُّه من الشظايا. لو أنَّ الصاروخ نزل على السيَّارة مباشرةً لكانت تبخَّرت في الحال. نزل الصاروخ قريبًا من السيَّارة وأصابتها شظاياه. الصواريخ تنشر روائح غريبةً إلى أبعد حدّ، كريهةً وقاتلة، تعيق التنفُّس الطبيعيّ، لا بدَّ أنَّها سمومٌ زُوِّدت بها. الرعب الحقيقيُّ كان في الصوت، صوت الانفجارات التي يُحدثها الحزام الناريّ، كأنَّ الأرض تنشقُّ نصفَيْن وتصرخ من ألمها. لا يزال طنين الانفجارات في أذني، الحمد لله. ما حدث مع سيَّارة أمّي حدث معنا بعد ذلك بزمنٍ وجيز، صاروخٌ نزل قريبًا للغاية من سيَّارتنا. طرت بعيدًا، طارت السيَّارة، طار فيها أخي والسائق وأولاده. لم أكد أستوعب ما يحدث حتى نزل صاروخٌ آخر. اختفى كلُّ شيء. أنظر حولي ولا أرى شيئًا. أشعر بدوارٍ وثقلٍ في الرأس ولا أرى شيئًا. بعد قليلٍ لمحت يدًا أعرفها. كانت لواحدٍ من أولاد السائق. لم أرَ جسده، رأيت يده أوَّلًا، ثم رأيت أشلاءً له قريبًا من يده، وعلى بعد بضعة أمتارٍ رأيت رأسه يقعد على بطنه، ويده الأخرى مُركَّبةٌ عليهما، وبجانب ذلك أشلاءٌ وأحشاءٌ له، أو ربَّما لأحدٍ غيره؟ كان مثل لوحةٍ مشوَّهةٍ أو لعبةٍ رَكَّب ولدٌ أجزاءها بطريقةٍ عشوائيَّة. نظرت إليه وضحكت! لم

أستطع إلَّا أن أنظر إليه وأضحك. لم أكن أبتسم، ضحكت وكنت أسمع ضحكتي، وأنظر فيما حولي وأضحك. لم أرَ مخلوقاتٍ حيَّةً حولي، رأيت ركامًا وغبارًا وأشلاءً بشريَّة. ورأيت أنِّي فقدت ساقي، لم أشعر بأيِّ ألم، أخبرتك أنَّك لا تشعرين بألم الإصابة الطازجة. والقصف لم يتوقَّف، لا يأتي الحزام الناريُّ ليذهب عند أوَّل فرصة. ظلَّت الصواريخ تنزل، ومع كلِّ نزلةٍ كنت أعلو وأطير، وفي طيراناتي المتعدِّدة رأيتُ جثَّة السائق، ورأيت جثث أولاده الثلاثة، كانت تتمزَّق مع كلِّ ضربة، تتنتَّف. يصعب وصف ما تبقَّى منها بأنَّه أشلاء، لم تُبقِ الصواريخ غير نُتَف. نتَّفونا تنتيفًا. أطير مع الضربات، وأسقط لأطير مجدَّدًا، وأنظرُ إليَّ كيف فقدت رجليَّ وأبتسم. لِمَ كنت أبتسم؟ ماذا كان عليَّ أن أفعل؟! جلست بهدوء، لا أشعر بأيِّ شيء. لعلَّها راحة الموت. رجلٌ ذو ملابس بيضاء وملامح طيِّبةٍ أخذ يدنو منِّي ويتلو بصوتٍ نديّ: ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون﴾. ثم اقترب منِّي وخيَّرني بهمسٍ بين الشهادة والحياة. قلت له من فوري: «أنا نفسي في الشهادة من زمان». هناك، في الآخرة، تعيشين في هدوء، سكينة، مع النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، ولا يزال الرجلُ ذو الملابس البيضاء والملامح الطيِّبة يُخيِّرني بين الشهادة والحياة، فأُجيبه: «أنا نفسي في الشهادة من زمان»، ثم يعود ليخيِّرني من جديدٍ كأنَّه لا يسمعني. بعدها، وكنت أقتعد الأرض بمؤخِّرتي وما تبقَّى من طرفيَّ السفليَّيْن، أزاح من حولي بعض الركام، وأمسكني برفق، وجعلني أستلقي على ظهري، ومسح على رأسي وهو يتمتم

بكلماتٍ لم أفهمها. أكَّدتُ عليه أنِّي أريد الشهادة، ثم أطبقتُ جفنيَّ على هذه الحال، وكان وجهه آخر ما رأيت.

وصلت إلى المستشفى ميِّتًا. لا أدري من الذي تكبَّد عناء نقل جثَّتي إليها. لم أكن وحسب بلا رِجلَيْن، كان جسدي مفتَّحًا بجروحٍ كثيرة، النصف الذي تبقَّى منه أعني، وبه شظايا لا تُحصى، وخسر كمِّيَّةً لا بأس بها من لحمه وتماسُكه. كان أقرب ما يكون إلى الأشلاء التي رأيتها قبل موتي. عبثًا بحث الأطبَّاء عن نبضي وخفقات قلبي. ميِّت، وضعوني في الثلَّاجة. يسهل وضع نصف جسدٍ في كيس نايلون وإلقاؤه في ثلَّاجة الموتى. صلَّى عليَّ أصحابي وعمِّي صلاة الجنازة، وبكوا كثيرًا وهم يتحلَّقون حول جثَّتي. ولمَّا أمسك عمِّي بيدي يُودِّعني صرخ وهو يَبكي: «عايش، عايش!». طلب الأطبَّاء من عمِّي أن يهدأ ويستغفر ربَّه. «أستغفرُ الله العظيم، لكنَّه حيّ، والله إنَّه عايش!»، صدَّقهُ أخيرًا أحدهم وعثر عندي على علامات حياة. «حيّ، لكنَّه يُحتضر، ويحتاج ستَّ وحدات دم، ربَّما نستطيع إنقاذه». أسرع عمِّي لإحضار وحدات الدم، بينما كان الأطبَّاء ينقلونني من المشرحة إلى غرفة العمليَّات. قضيت ساعاتٍ ربَّما في كيسٍ بلاستيكيٍّ في ثلَّاجةٍ بصحبة الجثث. كيف حدث هذا؟ لم نعثر على نبضك، قال لي طبيب، وكانت عيناك مفتوحتَيْن كعيون الموتى. وفي غرفة العمليَّات قضيت سبع ساعاتٍ إلى تسع. من المؤسف أنَّني لا أذكر شيئًا من ذلك، أخبروني بالتفاصيل لاحقًا، أي بعد أن صحوت من عمليَّتي. كان ذلك أيضًا في مستشفى الشفاء، في السادس والعشرين من أكتوبر، اليوم التالي لقصف

سيَّاراتنا. وشيئًا فشيئًا بدأت أستعيد ما حدث في اليوم السابق. تذكَّرت الرجل الأبيض، تذكَّرت أنِّي استُشهدت مُغمضًا عينيَّ على ملامحه الطيِّبة. ارتجفتُ من موجة بردٍ تسلَّلتْ إلى عظامي. ثم تذكَّرت أنِّي فقدت ساقيّ، بعينيَّ رأيت اختفاءها. غريبٌ! لا أزال أشعر بوجودها. لم أكن أستطيع تحريك رأسي أو رفعه لرؤية الأمر بنفسي، لكنَّ الأطبَّاء وعمِّي أكَّدوا لي أنَّها لا تزال موجودة. ما الذي كان ما رأيته إذن؟ الأشلاء، اختفاء رجلي، مَلَك الموت، كلُّ ذلك كان هلوسة؟ لم أستشهد! لا يمكن أن يكون كلُّ ما سبق مجرَّد كابوس. أشعر برجلي موجودة، صحّ، لكنِّي متأكِّدٌ بأنَّها طارت. عمِّي يقول إنَّها موجودة، الأطبَّاء يقولون إنَّها موجودة، وأنا أشعر بها. قد تكون موجودة إذن، قد يكون ما سبق كابوسًا حقًّا. ابن عمِّي أكَّد لي أنِّي مشيت عليها، لا بدَّ أنَّها موجودةٌ إذن. ونصف الجسد الذي بقي لي خضع لعمليَّاتٍ كثيرة، بات محفورًا بالشقوق وموشومًا بالقطب، والأطبَّاء يأتون إليَّ دائمًا ويفحصون قدمي. لا بدَّ أنَّها موجودةٌ إذن. لكنَّ شعورًا غريبًا يراودني، أشعر أنَّ الجميع يكذب عليّ. قلت لعمِّي: «عمِّي، احكِ لي الحقيقة، ما وضع رجلي؟».

ـ راحت يا عمِّي.

ـ أيّ واحدة تقصد؟

ـ التِنتين عمِّي، التِنتين.

لكنَّ ذلك لم يكن نهاية قصَّتي في مستشفى الشفاء. حالتي لا تزال خطيرة، وكان عليَّ المكوث فيه خمسة أشهر. لا يزال ما

تبقَّى من طرفيَّ السفليَّيْن يأتكلان، وكان على الأطبَّاء إجراء عمليَّةٍ في كلِّ مرَّة، أي التنظيف بإزالة مزيدٍ من اللحم والعظم! كانوا يبترون في كلِّ مرَّةٍ حتى لم يبقَ لديَّ ما يبترونه، وصلوا إلى أعلى الفخذَيْن. كان الوضع صعبًا. كلُّ عائلتي في المستشفى. أبي لا يزال في سفره، أمِّي مُصابةٌ بجراحٍ خطرة، أخي الصغير ذو السنوات الثلاث جسمه مزروعٌ بالشظايا، ومثله أختي وأخي الآخر. والأطبَّاء لا يكفُّون عن البتر، لا يريدون أن يتركوني أموت بسلام. قلت لهم: «أُفضِّل الموت على رؤيتكم كلَّ مرَّةٍ تقتطعون جزءًا إضافيًّا من جسدي». أعددت نفسي للموت، الجميع ظنَّ أنِّي ميِّتٌ قريبًا لا محالة، فحالتي خطرة. حصلت أشياءٌ كثيرة، وتوقَّف الائتكال، وتوقَّف البتر عند أعلى فخذيّ، وعشت. لا أستوعب ما حصل. أتذكَّر لحظات ما قبل الحزام الناريّ، كنَّا في الشارع، كنت في الشارع أرى الناس يمشون بشكلٍ عاديّ، اشتريت بعض الأغراض، رأيت جارنا يشتري الخبز الذي لم يأكله أحد. لم نكن غير مجموعةٍ من المدنيِّين، مُجرَّد عائلاتٍ عاديَّة تعيش حياةً عاديَّةً إلى أن حدث ما حدث. شيءٌ فظيع، لن تتخيَّلي بشاعة المشهد مهما وصفت لك، كانت الجثث والأشلاء في كلِّ شبر. في طرفة عَيْنٍ مُسح كلُّ شيء، اختفت بيوتٌ ومحالٌّ ومخازن وحيواتٌ كاملة، دمَّروا كلَّ شيءٍ في غزَّة، دمَّروا غزَّة كلَّها. أريد أن أفهم: ما ذنبي؟ ما ذنب الأولاد الذين كانوا معي في السيَّارة؟ ما ذنب حيِّ التاج؟ المنطقة التي كنَّا فيها في شارع الجلاء اسمها حيُّ التاج، لم تعد موجودة، كلُّ سكَّانها أطبَّاءٌ ومهندسون وأكاديميُّون وتجَّار.

كنت أسمعهم وأنا في المستشفى يهمسون بأنِّي سأموت، كانوا يبترون ويُخرجون الشظايا ويهمسون بأنَّني ميِّت. أتظاهر بأنِّي لا أسمعهم، لكنَّني كنت أتمنَّى أن يكون ما يقولونه حقيقيًّا. لم أكن أريد أن أعيش، أن أتعافى، أردت أن أموت وحسب، فالآلام كانت رهيبة، لا تستجيب للمسكِّنات، وما تبقَّى من جسدي كان أبعد ما يكون عن أن يشبه جسد إنسانٍ سويّ. طوال الوقت أفكِّر بعائلتي، بأخي الصغير تحديدًا. يعيش الآن وحده في رفح. يعيش في خيمة، ولدٌ صغيرٌ يعيش في خيمةٍ بعيدًا عن أهله، وقد علمت مؤخَّرًا أنَّه أُصيب بالتهاب الكبد. التفكير فيه يقتلني. ثم يحدث أن أرى الناس يمشون بينما أتدحرج على كرسيٍّ متحرِّك، فلا أملك إلَّا أن أسأل نفسي: لِمَ ذهبت الرجلان كلتاهما؟ لِمَ لم تبق واحدةٌ على الأقلِّ أتعكَّز عليها؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

مـاذا حصـل لأهـل غـزَّةَ الناجيـن مـن الإبـادة؟ هـل يحـقّ لنـا أن نعتبرهـم «ناجيـن»؟ أيـن يذهـب الألـم البشـريّ حيـن تغيـب العدالـة؟ كيـف فقـدوا أجـزاءً مـن أجسـادهم وتحوَّلـوا إلـى أشـكالٍ جديـدةٍ مـن الوجـود؟ وكيـف لنـا أن نبتكـر سـردًا مختلفًـا يتحـرَّى الألـم والفاجعـةَ فـي عالمنـا؟

وكيـف نبحـث فـي فعل النقصـان ،الـذي هـو بحـدِّ ذاتـه شـكلٌ مـن أشـكال ثبـات مرويَّـة الإبـادة وقوَّتهـا واكتمالهـا: نقصـان الأجسـاد المقطَّعـة، نقصـان قدرتنـا علـى الرؤيـة، نقصـان المشـهديَّة العميقـة لآلام الآخريـن،... ونقصـان اللغـة؟

دعونـا نسـتمع إلـى شـهادات غزيِّيـن جرحـى وناجيـن دوَّنتهـا سـمر يزبـك، فـي محاولـةٍ لإعـادة إحيـاء ذاكرتهـم، مـا يجعلهـم عصيِّيـن علـى التكدُّس فـي لعبـةِ عدِّ الأرقـام، ولانتشـال إنسـانيَّتهم مـن عمليَّـة التشـييء التـي صنعتهـا ماكينـات الإعـلام الاسـتهلاكيّ السـريع.

سـمر يزبـك: كاتبـةٌ وصحافيّـةٌ وناشـطةٌ سـوريّة، صـدر لهـا عـن دار الآداب: «رائحـة القرفـة» و«صلصـال»، «ولهـا مرايـا»، «جبـل الزنابـق» و«تقاطـع نيـران» و«بوَّابـات أرض العـدم» و«المشّـاءة».

دار الآداب

مكتبة